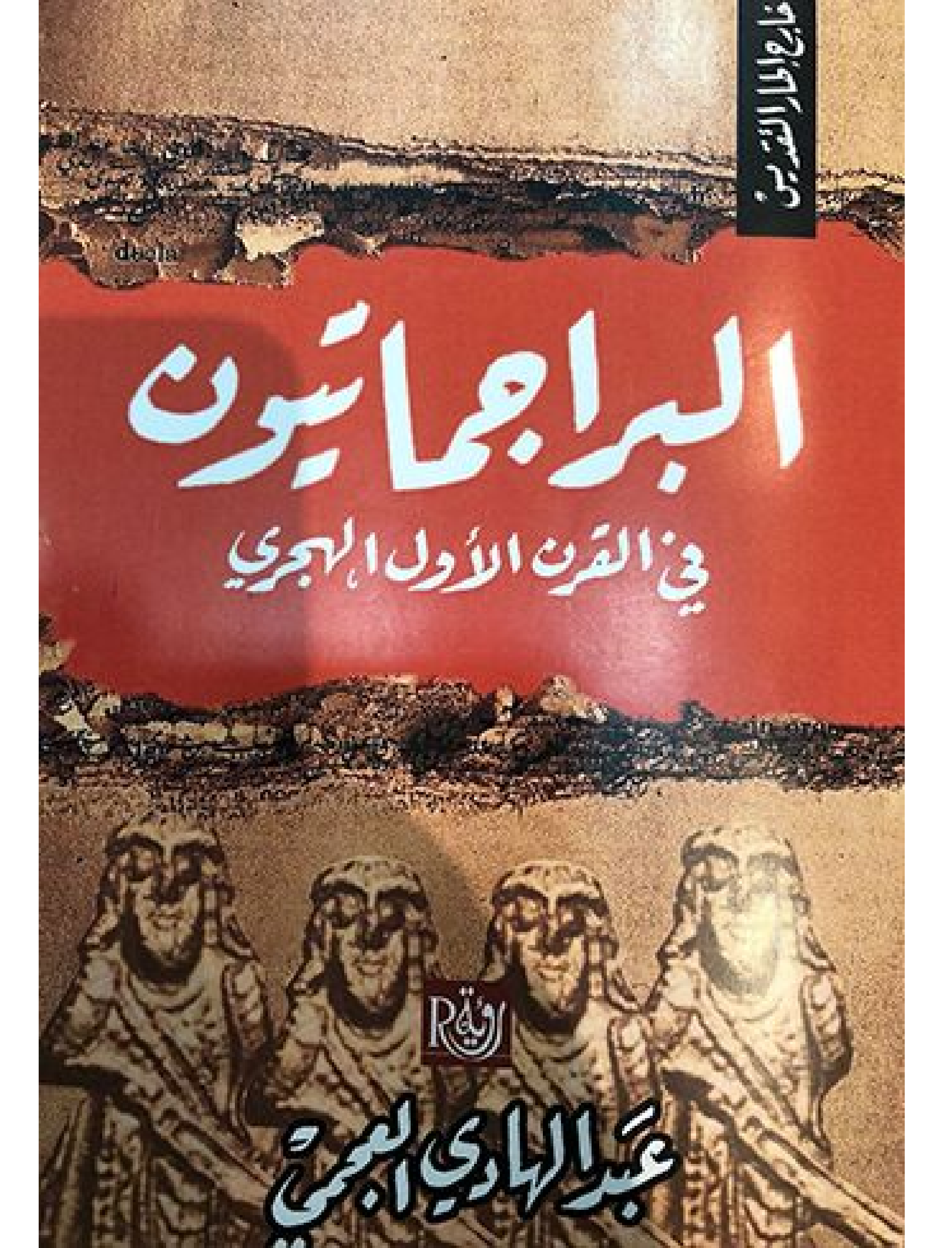


البراجماتيون
في القرن الأول الهجري
عبد الهادي العجمي

خارج إطار التقديس

البراجماتيون

«في القرن الأول الهجري»



عبدالهادي ناصر العجمي

خارج إطار التقديس

البراجماتيون

«في القرن الأول الهجري»



خارج إطار التقديس البراجماتيون في القرن الأول الهجري

عبدالهادي ناصر العجمي

الطبعة الثانية: 2021

الردمك: ISBN 978-977-499-204-9



المحتويات

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع **الصفحة**

الموضـــــوع **الصفحة**

الموضـــــوع **الصفحة**

مدخـــل

توجيه التاريخ سلطة أم أيديولوجيا؟

من المحقق أن الكتابة التاريخية الإسلامية وركامها الهائل في عصورها المتقدمة فرضت – إلا في حالات نادرة – توجيه التاريخ وتشكيل حركته، وأن يوضع غالبية تراث الإسلام في سياقات موظفة (أيديولوجيًّا[1]) غايتها خدمة الدين وتاريخ الأمة، ورجالات الإسلام ومعجزات المسلمين وبطولاتهم، لا سيما أن المشهد النهائي المتصور من قبل القارئ سيرتبط

(1) مصطلح الأيديولوجيا في رأي البعض يتكون من مقطعين يونانيين هما (Idea - Logy) أي علم الأفكار وعلم المثاليات، وعمومًا المصطلح – شأنه شأن كثير من مصطلحات العلوم الاجتماعية – تم التصدي له بتعريفات مختلفة، لكن في الغالب لم تستقر تلك التعريفات على تعريف واحد محدد، وربما يعود ذلك بسبب تطور المعاني الخاصة بها عبر الحقب الزمنية المتنوعة مما جعل كل حقبة تذهب مذهبًا مختلفًا عن سابقتها ولاحقتها تبعًا لما يتوافق معها من أدبيات وفلسفات معينة لكل فريق أو مذهب. انظر: المدخل في الأيديولوجيا والحضارة، عبد الرحمن خليفة؛ فضل الله محمد إسماعيل، مكتبة بستان المعرفة، الإسكندرية، 2006، ص 21 حتى 27.

هـو الآخـر وبشـكل مبـاشر بالمفهومـين الأكثـر جدليـة (الخـير والـشر) ووفـق معايـير تعكـس أدبيـات ورمزيـات وقِيـم الإيـمان والكفـر، وتجسـد أدبيـات (الحـق والباطـل) اللذيـن لطالمـا تنقـلا بـين النصـوص والروايـات ليرسـما (مشـهدي) بدايـة ونهايـة الأحـداث[1].

لكـن، وفي واقـع الحـال مـع تلطـخ بعـض الشـخصيات بمطامـح ومنافـع دنيويـة في مشـاهد موسـعة، طالـت الكثـير مـن الزعامـات المحسـوبة عـلى تيـارات وفـرق وأحـزاب[2] بـل وحتـى

(1)استـدعت رمزيـة مضامـين ودلالات الخـير والـشر (ولا زالـت) في الكتابـة التاريخيـة أن تقـدم للقـارئ أهـداف نبيلـة توائـم القيـم الأخلاقيـة والدينيـة للإسـلام ومبادئـه

(2)في بعـض المعاجـم العربيـة يـأتي (الحـزب) أيضًـا بمعنـى (الشـيعة). والشـيعة تعنـي الفرقـة مـن النـاس. ابـن منظـور، لسـان العـرب دار صـادر، 8/ 189. كذلـك عـروسي لسـمر، العنـف والمقـدس في الإسـلام (كتـاب المحـن) لأبي العـرب التميمـي ت 333 أنموذجًـا، الدار التونسـية للكتـاب، 2012، ص 264.

رموزًا دينية، أصبحت أجزاءً موسعة من المشاهد التي قدمها المؤرخون والرواة والإخباريون - ولأسباب سنرصدها لاحقًا - غير قادرة على الإقناع[1] أو استمرارية ما أُريد تسويقه لها، ولاسيما المشاهد والمضامين التي تبدو بعيدة عن الديني والمقدس، كما هي بعيدة عن الحق والخير وغيرهما من مثل تلك المضامين؛ إذْ أصبح الأصل في المشهد مجرد غطاء شكلي لفكر تقليدي يرى التاريخ حقائق مطلقة لا تسمح بتجاوزه ولا تقبل بنقده[2].

ترافق ذلك مع شحن مقولات تم إلباسها لبوس الديني

---

(1) يتساءل (عبد الله العروي) في كتابه (مفهوم الدولة) عن الذي يجعل (السلطة) ممثلة في الدولة تصبح تجسيدًا للمثل الأعلى" الإسلام، الحق" إذْ يرى أن ذلك اتجاه مثالي وأيديولوجي (بآن)، لكنه لا ينفع في مجال الدراسة، فالمثالية المطلقة ربما تفيد في البحث عن الدولة كما يجب أن تكون، لكنها لا تفيد في البحث عنها كما هي في (الواقع)، انظر عبدالله العروي، مفهوم الدولة، بيروت، المركز الثقافي، 1980، ص 89.

(2) ذلك أنه بمرور الوقت تتراكم الشروح والتأويلات على هذه الروايات والنصوص، حتى يصبح نقدها أمرًا صعبًا، وغير مقبول، بل غالبًا ما يمسي الاقتراب من النص أو الرواية بتفسير أو تحليل جديد أمرًا مفعمًا بخطورة، ومعرضًا صاحبه لسهام الانتقاد والتشكيك، وبذلك يصبح النص مقدسًا تاريخيًّا لا يخضع للمساءلة، ويستعصي على النقد، بل يمسي مؤرخ النص هو الآخر محميًّا من خلال سلطة هذه النصوص نفسها التي نقلها أو صاغها.

والأيديولوجي[1] وغيرها من نصوص وقيم مصطنعة لا تريد منا تجاوز رؤية مَن قال بها، وفسرها من فقهاء وعلماء، لكل منهم مذهبه وفرقته وجماعته وحزبه.

أن محاولة نقد أو تصحيح تراثنا الإسلامي، وفرز ما علق به من مشاهد ومظاهر بعيدة عن الواقعية والمنطق أو حتى (المعقولية) هو اليوم معني بالتاريخ قبل كل شيء، بل معني بدرجة أكبر باستكمال مشاهد وأسئلة مازالت صُورها وإجاباتها ناقصة!! فباستثناء القرآني منها والمتفق عليه من أقوال النبي ﷺ، يصح القول إن النصوص والروايات لا تحمل معنى دائمًا أو مثاليًّا؛ هناك فقط معنى يجعل الحدث أو المضمون أو المشهد المقدم يأخذ الشكل الذي يُراد تقديمه للقارئ من قِبل مَن قَدمه.

(1)مثل: "تلك دماء طهر الله منها أيدينا، فلا نلوث بها ألسنتنا" أو "والإمساك عما شجر بين الصحابة".

إجابات

أم رغبة في تجاوز النص؟

يأخـذ الطابـع الرمـزي (للسـلطة) أهميـة متزايـدة في مجـال التاريـخ الإسـلامي بالنسبة لأحـداث القـرون الأولى، ونعنـي هنـا تحديـدًا القـرن الأول منـه الـذي يُعَـدُّ رحـم التمفصـلات الكـبرى في عمـر الأمـة وملحمـة الحضـارة الإسـلامية العربيـة الأولى، لكن تبـدو المفارقـة في "هـل مَـن قـاد الفعـل التاريخـي وصنـع التغيـير في هـذه الفـترة[1]... هـم فقـط معسـكر الحـق أو فريـق الخـير المتمثـل في... الرمـوز والزعامـات الدينيـة وقـادة الفتـوح والـولاة والخلفـاء، والعلـماء والفقهـاء"؟ أم أن هنـاك شـخصيات (فاعلـة) أخـرى أسـهمت وبشـدة في عمليـة التغيـير ودفـع الأحـداث. وكانـت مـع غيرهـا مصـدرًا للمبـادرة وصـورة مـن صـور الفعـل السـياسي (الواقعـي) ومنابـع التغيـير التـي جـرت، علـمًا أن هـذه الشـخصيات صُنِّفـت في بعـض المواقـف والمشـاهد في المعسـكر المضـاد لمعسـكر الخـير والحـق، والمتصـادم معـه.

لقـد كان جـزءًا كبـيرًا لحمـلي عـلى اختيـار الشـخصيات (المدروسـة) في هـذا الكتـاب، وتقديمهـا يعـود لمـا كنـت أواجهـه مـن تحديـات أسـئلة مؤرِّقـة.

---

(1) (ونعني القرن الأول الهجري منه).

أسئلة تتناول إشكاليات حول قضايا التاريخ[1]، والنص، والرواية، وتطورهما، علاقة النص بالتقليد وبالموروث والمتغيرات والاحتياجات التي حتمت وضعه على الشكل المنقول[2].

- ما حدود الشخصية والنص؟
- ما مدى أثر النص والرواية المدونة على المشهد المنتج في كتب التاريخ؟
- ما مدى واقعية الفعل والتغيير الذي جرى مع تسلسل الأحداث، وما آلت إليه في النهاية؟
- ما أسباب تعدد الروايات لحدث واحد واختلافها؟
- أين يقع الخط الفاصل بين النص والمؤرخ الذي دونه وكتبه وبين الشخصية أو الحدث المرصود؟

(1) يقول رضوان السيد، في معرض كتابه "الجماعة والمجتمع والدولة"، ص 9: "تتجدد الدعوة لدى المؤرخين لإعادة كتابة التاريخ العربي، لكن دعوتهم لا تتصل بأسباب منهجية، بل بدأت في الخمسينيات استجابة لمنازع وطموحات معينة، غير أنها تتجدد اليوم حاملة هم الهوية والأصالة وخصوصية الإسلام" – انظر: رضوان، "السيد الجماعة والمجتمع والدولة"، سلطة الأيديولوجيا في المجال السياسي العربي الإسلامي، دار الكتاب العربي، ط2، 2007

(2) في السياق انظر حياة عمامو (ماهية المصادر الإسلامية المبكرة واختلاف آراء الباحثين في أهميتها التاريخية)، كذلك انظر وداد القاضي، "نحو منهج سليم في قضية موثوقية الرسائل العربية الإسلامية المبكرة في موافقات تونس" الدار التونسية للنشر، 1989م.

- هـل ارتبـاط النـص أو الحـدث أو الشـخصية بحقبـة زمنيـة مخصوصـة مرتهنـة بتصـورات المـؤرخ لتلـك الحقبـة ومتطلباتهـا؟
- هـل التاريـخ مرتهـن بالنـص المدون، ومـن ثَـمَّ يصبـح الحـدث معتمـدًا عـلى التصاقـه بـه. ومـن ثَـمَّ بـما يريـده المـؤرخ أو الـراوي أو بمعنـى آخـر (سـلطة الأوصيـاء) عـلى النـص؟
- وأخيرًا ما حدود التاريخ نفسه؟

هـذه الأسـئلة كان لابـد لهـا مـن إجابـات... إجابـات هـي الأخـرى يجـب أن تكـون بعيـدة عـن التبريـر والتسـويغ والدفـاع والاتهـام والتشـكيك... إجابـات تراعـي الواقعيـة، وتكـون في إطـار المقبـول والمعقـول. إجابـات تقـدم تصـورات مـن شـأنها أن تسـاعد في الكشـف عـن مكمـن الخلـل بعيـدًا عـن التمـترس خلـف نصـوص وروايـات باتـت لا تحتمـل النقـاش ولا الاستفسـار، إجابـات تسـلِّط الضـوء لإنقـاذٍ مـا تبقَّـى مـن قـدرة عـلى قـراءة أكثـر منطقيـة.

فعـلى المسـتوى التاريخـي- قديمـه وحديثـه- هنـاك دون شـك نصـوص وروايـات عـبرت عـن مرحلـة زمنيـة معينـة، لكـن ولأسـباب خاصـة تـم اسـتخدام وتوسـيع وشـد هـذه النصـوص والروايـات إلى خلفيـات تُمـازج بـين أصيـل نابـع مـن خصوصيتهـا الدينيـة والاجتماعيـة والسياسـية، وبـين دخيـل أملتـه عليهـا ظـروف الواقـع، والرغبـة في تجـاوز حاضرهـا ونقـده.

التاريخ
والمكون الأزلي/ (الدين)

إن شخصيات[1] هذا الكتاب ليست أسطرة[2] أو تابوهات دينية، إنها شخصيات إسلامية أصيلة، عاشت ومارست دورها، وكانت جزءًا من نسيج القرن الأول الإسلامي، وانعكاسًا لمشاهده التاريخية، ولاسيما مشاهد الصراع السياسي والقبلي المتجذرة فيه، شخصيات ابتعدت نصوصها وروايتها عن نهج المثالية السياسية المُقيدة بالديني والتزاماته، متجهة نحو ما تفرضه المتغيرات[3] (المنطقية)؛ فبدت هذه النصوص والروايات التي تتناول هذه الشخصيات الأكثر قدرة ومرونة من مثيلتها على تفسير هذا الزخم والتشابك المعقد للقضايا

---

(1) شبث بن ربعي، أبو الأعور السلمي، عبد الله بن خازم، المهلب بن أبي صفرة. شخصيات كانت الأقدر على الحراك وصنع عمليات التغيير، وتحمل مسؤولية النتائج الأخيرة لقراراتها وممارستها، تلك القرارات والممارسات التي ليس فيها ما يدينها، بقدر ما فيها من انعكاس لكيفية صناعة عمليات التغيير والحراك التي جرت في الفترة التي عاشت بها هذه الشخصيات من القرن الأول الهجري.

(2) أيًّا كانت الأسطورة ومنشؤها ونوعها إلا أنها تظل تدور بشكل موسع في فلك الموروث أو المعتقد، سواء أكان هذا الموروث أو المعتقد دينيًّا أم اجتماعيًّا أم ثقافيًّا. شكري محمد عياد، البطل في الأدب والأساطير، دار المعرفة، القاهرة، 1959م.

(3) سواء السياسية أم القبلية أم الاجتماعية.

الجدليـة التـي لا تـزال مرهونـة اليـوم بقـدرة المؤرخـين[1] عـلى فك وتشـابك تعقيدهـا، واسـتنطاق مـا تحملـه مـن مضامـين ودلالات سُـخر بعضهـا لترجيـح كفـة طـرف ضـد آخـر، وتـرك بعضهـا ليتقـرر وفـق موضوعيـة المـؤرخ أو وفـق مضامـين الاحتيـاج والـضرورة التاريخيـة (إن دعـت الحاجـة لذلـك).

امتلـك التاريـخ لهـذه الشـخصيات مشـاهد متضـادة ومتباينـة فيـما بـين التلميـح والاتهـام والتقزيـم والتشـكيك تـارة، إلى التبريـر والتحيـز والانتصـار تـارة أخـرى، حيـث بقيـت أدوراهـا في كتـب الـتراث الإسـلامي رهـــن هـــذه الـدلالات وتلـك المضـــامين، لكـن بشـكل لا يمكـن اختزالـه ولا تقليـص مسـاحته، أو حتـى اسـتبعاده مـن محـركات الفعـل الأصليـة للقـرن الأول الهجـري، بـل عـلى العكـس.

وإن اسـتطاعت النصـوص والروايـات المنقولـة عـن هـذه الشـخصيات، تكثيـف عمليـة الربـط بـين الديـن والممارسـات المرتبطـة بـه، لكـن ذلـك لا ينفـي أنهـا شـخصيات امتلكـت القـدرة عـلى خلـق تصـور مختلـف، تصـور يثبـت اسـتحقاقها فـرض حضورهـا بشـكل بـدا وكأنـه يتعـارض مـع الديـن نفسـه ومرتكزاتـه الأخلاقيـة والقيميـة في بعـض المشـاهد والأحـداث.

هنـا لم نكتـف، باسـتعراض ممارسـات تلـك الشـخصيات عـلى المسـتوى النظـري، والتـي ربـما تثـير بعـض الاعتراضـات

(1) كلَّما تعلَّق الأمر بالرواية التأريخية.

حول حقائق تاريخية واردة باعتبارها غير دقيقة، بل حاولنا أن نعتمد مقاربة تفسيريّة، تعمل على توضيح إدراكات الفعل التاريخي، بين ثنايا النصوص والروايات التي قُدمت عنها.

مقاربة تُفهم في سياق تحليلي يعتمد المساءلة لفهم المعقولية التي كانت تجرى بها الأحداث، ولا سيما أن قوّة النصوص الدينية، وطرق الانتقال من النفي إلى الإثبات، ومن المكوِّن الأزلي للديني والرمزي والمقدس، داخل نصوص وروايات التاريخ التي اكتنزت على مجالات تأثير واسعة، لا متناهية، جعلت الكثير من الأفعال التي مارستها هذه الشخصيات ينظر لها من منظور ضيق محصور بين زاويتي (الحق أو الباطل)، (الخير أو الشر)، (العدالة أو الظلم)، (مع أو ضد).

ديني أم قبلي؟

قبل الوحي: الصراع بين الفُرس[1]، الروم[2]، وبكل توازناته كان يتخذ طابعًا سياسيًا[3] أكثر منه ديني، أما (الجزيرة العربية) بما تحمله من مدارات ثقل متشابك[4] فكان (في الغالب) الصراع قبليًا بشكل أنشط منه سياسيًّا... حتى هبط الوحي بأرض العرب[5].

(1) الحضارة الفارسية تنسب إلى آل ساسان الذين حكموها بعد البارثيين في القرن الثالث الميلادي، اشتهرت فارس بالمجوسية والزرادشتية قبل أن يدخلها الإسلام فيما بعد.

(2) روما سنة 753 ق.م في (321م) نقل كرسي الملك إلى بيزنطة، وانتقل إليها قسطنطين الكبير، وهي استانبول اليوم.

(3) المتفحص للصراع الطويل الذي دار بين فارس والروم يدرك أنه كانت له آثاره السلبية الكبيرة على النسيج الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والعسكري لهاتين القوتين اللتين كانتا تشرفان بحدودهما على الجزيرة العربية، راجع علا عبد العزيز أبو زيد، الدولة الأموية دولة الفتوحات (41هـ- 132هـ/ 661-750م)، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1417هـ- 1996م، ص 7.

(4) لثلاث ديانات (اليهودية، المسيحية، الوثنية).

(5) يفرض هنا العرب الغساسنة حضورًا ما، حيث استوطنت في الشمال الغربي للجزيرة العربية - الأردن وجنوب سوريا أشهر مَن ينتمي لها قبائل "الأزد" اليمنية التي هاجرت من اليمن (بعد انهيار سد مأرب) جنوب سوريا، دخل الغساسنة في المسيحية في "القرن الرابع" الميلادي، وتحالفوا مع "الروم"؛ إذْ كانت أشهر مدنهم "بصري"، كذلك المناذرة هاجرت بعض القبائل العربية من اليمن، واستوطنت في شمال شرقي الجزيرة العربية متخذين من الحيرة =

جاء الإسلام

التطور الطويل والمعقد للقرن الأول الهجري لم يُصور تصويرًا يعكس طبيعة تطوره بشكله المنطقي، لا سيما أن هذا التطور لم يكن مثاليًا على طول الخط، فبظهور الإسلام[1] ونزول الوحي دخل العرب[2] في لحظة "صفرية"، أو "غيبية"، لحظة غادرت مخلفةً وراءها صعيدًا جديدًا، صعيدًا بدأ يلوح منه مولد دين ودولة، بدءً بالمدينة المقدسة مكة التي احتضنت أول نزول للوحي وانتهاءً بالعاصمة الدينية

= عاصمة، وأشهر ملوكها النعمان بن المنذر (لذلك أطلقوا عليها "دولة المناذرة").

(1) أحدث ظهور الإسلام تحولاً جذريًّا في حياة الأمة العربية، ونقلها من طور التجزئة القبلية إلى طور التوحد في إطار أمة واحدة تدين بالإسلام، وتتخذ القرآن الكريم مثلًا أعلى، كما لا يمكن لأحد أن ينكر ما شهدته الأوضاع من تغيرات جوهرية ولا سيما على أصعدة الأوضاع الدينية والاجتماعية والثقافية والسياسية.

(2) يرى هشام جعيط أن العرب ولولا نزول الوحي على الرسول وقيام الدولة الإسلامية ما كان لهم أن يتوحدوا أو ينتظموا، ومن ثم ما كان يمكنهم الدخول في التاريخ، هشام جعيط، (الفتنة)، جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، ترجمة خليل أحمد خليل، بيروت دار الطليعة 1991م، ص13، ولا يخفي أن جعيط (مثله مثل أركون) اتكأ بشدة على التفاصيل ذات المشاهد عالية الارتفاع في الصراع بين المسلمين بعضهم البعض أو مع غيرهم، والتلميح أو الترميز والمقابلة بأن ذلك ربما كان امتداد لممارسات عتيقة قديمة مستمدة من التجذر القبلي والبنى القبلية لما قبل الإسلام.

الأولى لدولــة الإســلام (المدينــة المنــورة). هــذه الأيقونــة وبــما حوتــه مــن أماكــن وشــخصيات ورمــوز كانــت الحاضنــة للعهــد النبــوى وللخلافــة الراشــدة بعــده.

وبـكل الهـدوء النسـبي للصراعـات الداخليـة في عهـد أبي بكر[1] (11-13هــ/ 632 623-م) هـ الخليفة الأول، وبكل التوسـع الذي شـهدته الفتوحـات في عهـد عمر بـن الخطـاب (13-23هــ/ 634-644م) الخليفـة الثـاني. لم يظهـر الخـلاف والتشـظي مجـددًا سـوى في أواخـر عهـد الخليفـة الثالـث عثـمان بـن عفـان (23-35هــ/ 644-656م) عـلى الرغـم ممـا شـهدته السـنوات الأولى لحكمـه مـن إعـادة تثبيـت مراكـز الفتوحـات وتوسيـع رقعتهـا. لكــن، بمقتــل عثمان بـن عفــان[2] تدخـل الأمـة في نفـق الفتنــة[3]، ليجــد الخليفــة

(1)وإن لم نسـتثنِ مـن هـذه الفـترة حـروب الـردة ومـا آلـت إليـه الأوضـاع في ظـل هـذه الصدمـة المفاجئـة لدولـة الإسـلام.

(2)ربـما الطريقـة التـي قتـل بهـا الخليفـة الثالـث عثـمان بـن عفـان، ولا سـيما الغلـو مـن قبـل مَـن قامـوا بقتلـه خلقـت حالـة مـن التعاطـف التاريخـي فيـما بعـد مـع المطالبـين بالقصـاص لـه.

(3)يظـل صراع (الفتنـة) لاشـك البدايـة الحقيقيـة لمعظـم التحزبـات والفـرق المذهبيــة الرئيســية ذات التوجهــات السياســية المتباينــة والتفريغــات العقيديـة المختلفـة التـي عرفهـا الفكـر السـياسي الإسـلامي فيـما بعـد، انظـر عـلا عبـد العزيز أبـو زيـد، الدولـة الأمويـة دولـة الفتوحـات،ط1، المعهـد العالمـي للفكـر الإسـلامي،1996م، ص 8.

علي[1] (35-40هـ/ 656-661م) نفسه في مواجهة بالسيوف[2] ضد الصحابيان طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام[3]، بالإضافة إلى أم المؤمنين عائشة، وذلك في معركة الجمل (36 هـ/ 656 م). تلك المعركة التي يمكن القول أن الأمة خرجت منها أكثر انقسامًا وتفسخًا[4]، حيث الخلافات كانت تتسع بشكل سريع بين الجميع، سواء طرفا النزاع الأصليين (علي ومعاوية) أو بقية أطراف النزاع الآخرين.

وعليه انتقل الصراع وبسرعة من وعاء (الديني والسياسي) إلى وعاءٍ جديد، وعاء تم فيه استدعاء صورة الصراعات القديمة قبل الإسلام. وعاء كان من أبرز صوره بناء التحالفات وتنشيط العصبيات والزعامات وإحياء المصالح القبلية وغيرها من محركات الفعل السياسي التي

(1)ولا سيما أن بيعة علي لم يتوافر لها ما توافر لأسلافه (الثلاثة) من إجماع سياسي موسع.

(2)خاض عليٌّ ثلاثة صراعات مُهلِكة ضد خصومه ومعارضيه، كان أولها (الجمل)، تلتها (صفين) - ومن ثم صراعه مع الخوارج في (النهروان)، ثلاث معارك كبرى تمت فقط في النصف الأول من القرن الأول الهجري، راح في ساحاتها آلافُ المسلمين.

(3)وكانا قد طلبا من عليٍّ أن يعينهما واليين؛ ليجمعا له الجند، لكن لاحقًا انسحبا إلى مكة للمطالبة بدم عثمان.

(4)سميت بالجمل نسبة للجمل الذي تم حمل أم المؤمنين عائشة وهودجها عليه، انظر محمد الحسيني، تاريخ الصراع على السلطة، ص 60.

تستمد زخمها من ماضي العرب وأيامهم، خصوصًا أن الصراع لم ينحصر بين الخصمين القرشيين فقط... بل تعداهما، وتمدد إلى العالم القبلي القديم، فحضرت القبلية بثقلها في (المشهد) لاسيما رموزها وزعماتها.

تتسارع الأحداث بالنسبة للصراع لمستوى أشد مأساوية من الجمل، فتحت ظل حضور قبلي طاغ، وفي ضوء الانقسام الحاصل، لم يكن غريبًا أن ترتفع السيوف للمرة الثانية في حلقةً جديدةً، أشدَّ قسوةً وأكثرَ دمويةً[1]، حلقة تغلبت فيها وبسرعة شديدة حتمية المواجهة، فالتقي المسلمون ضد بعضهم بعضًا في "صفين 36-37هـ"، (صفين) الأزمة التاريخية ومعركة اللبوسات الايديولوجية التي أثارت أهم الانقسامات الكبرى في تاريخ الإسلام[2]. الحرب التي تم تحويل الصراع فيها من سياسي إلى ديني، حق وباطل، خير وشر.

---

(1) من الوقائع الدموية أيضًا في تاريخ الإسلام وقعة (الحرة) تلك التي قتل فيها ما يقارب من ثمانين من أصحاب النبي ﷺ، حتى إن أبا العرب التميمي ت333هـ يورد القول "لم يبقَ بعدها بدري" انظر: أبو العرب التميمي، المحن، تحقيق عمر سليمان العقيلي، ج1، دار العلوم، الرياض، 1984م، ص 185.

(2) صفين (الفتنة الكبرى) المعركة التي سيظل التوصُّل إلى الحقيقة يقينيّة فيما يخصّها في تاريخ الإسلام أمرًا محفوفًا بالمخاطر؟

(صفـين) المواجهـة التـي تـم الالتجـاء فيهـا إلى النصـوص والروايـات والأقـوال، سـواء (الصحيحـة أم الضعيفـة أم الموضوعـة) التـي ترجـح كفـة طـرف دون الآخـر، انتهـاءً بتحكيـم النـص المقـدَّس (القـرآن) بعـد رفـع المصاحـف.

(صفـين) هـذا القتـال الـذي بـدأ بحضـور قـوي، ومـن ثَـمَّ توقـف توقفًـا دراماتيكيًّـا، دون نـصر ودون هزيمـة، ليبقـي بعـده عـلي منكـسرًا في الكوفـة يلملـم شـتات جيشـه يطـارد مـع مـن بقـى معـه (مـن المقاتلـين) الفرقـة الجديـدة المارقـة (الخـوارج)[1] بعـد تمترسـها خلـف (لا حكـم إلا لله)[2]. أمـا معاويـة، فـراح بـدوره يحـاول لملمـة أنصـاره في دمشـق ومـا حولهـا، ويحشـد

(1)أحـد أقـدم الفـرق الإسـلامية التـي ظهـرت مبكـرًا في النصـف الأول مـن القـرن الأول الهجـري، والتـي كان مـن أهـم مـا عـرف عنهـا دعوتهـا إلى الخـروج عـلى الحاكـم في حـالات معينـة. علـمًا بـأن الخـوارج كانـت مـن شـيعة عـلى الذيـن نـاصروه في صراعـه مـع معاويـة، ثـم فارقـوه وخرجـوا عليـه وقاتلـوه واعتـبروه رافضًـا للعمـل بأحـكام الدين. كذلـك أهـم مـا قيـل عـن أصـل الخـوارج هـو أن حركتهـم قـد ارتبطـت ارتباطًـا وثيقًـا بجماعـات القـراء، وهـم الجماعـات التـي وصفـت بالأشـد شـغفًا بالقـرآن والإقبـال عـلى التعبـد والزهـد والمثاليـة إلى حـدٍّ وصـل في بعـض الأحيـان إلى تكفـير بعـض مـن انحـرف عـن مبـادئ الإسـلام وأحـكام القـرآن- انظـر: ريـاض عيسـى الحزبيـة السياسـية منـذ قيـام الإسـلام حتـى سـقوط الدولـة الأمويـة، ص76، رفيـق المهاينـي، تاريـخ الدولـة الأمويـة والعباسـية والـدول الإسـلامية والعصـور الوسـطى في أوروبـا، دار اليقظـة العربيـة، دمشـق، 1946م، ص 3.

(2)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج6، ص 31.

المزيـد مـن القيـادات والزعامـات القبليـة[1].

تحـت هـذه الظـروف (تفاجـئ) الأمـة بغيـاب الخليفـة عـلي (مغتـالًا) عـلى يـد أحـد الخـوارج[2]، في الوقـت الـذي كان ينتـشر أمـر شـيعته[3] لتصبـح بعـد ذلـك أحـد أهـم الفـرق الإسـلامية.

عـلى الجهـة المقابلـة يسـتطيع معاويـة[4] أن يحيـد أغلـب خصومـه (الأقويـاء). يسـاعده في ذلـك تكتـل القـوى (الأرسـتقراطية) بحضـور قَـوي خلفـه، ولم يكـن غريبًـا أن بعـض هـذه القـوى والزعامـات القبليـة نفسـها كانـت إلى جانـب عـلى في صفـين إذن في السياسـة والحـرب "لا صداقـة دائمـة ولا عـداوة دائمـة".

هنـا وبعـد أن جـرى تأمـين السـيطرة بالنسـبة لمعاويـة يفاجـأ المشـهد السـياسي الإسـلامي بتشـكل وخلـق إطـار سـلطوي

(1) في هـذا السـياق انظـر: عبـد الهـادي العجمـي "صفـين والتحكيـم بـين الأيديولوجيـة المذهبيـة والواقعيـة التاريخيـة"، حوليـة التاريـخ الإسـلامي الوسـيط، المجلـد العـاشر 2015–2016 دار الفكـر العـربي.

(2) عبد الرحمن بن ملجم.

(3) بعد تبينهم أن عليًّا هو وحده صاحب الحق الشرعي في الخلافة.

(4) سياسـيًّا مثلـت ظاهـرة تـولي معاويـة الخلافـة نقلـة نوعيـة، في طبيعـة الفعـل السـياسي الإسـلامي ولاسـيما بعـد أن اتخـذ منهجـه الحفـاظ عـلى الشـعرة التـي بينـه وبـين الرعيـة.

جديـد[1] (لمؤسسـة الخلافـة)، إذْ تأسـس للأمويـين أول الأسر الحاكمـة في تاريـخ دولـة الإسـلام، كل ذلـك في فـترة زمنيـة (ربـع قـرن) مـن مقتـل عثـمان بـن عفـان.

إذن لا يمكـن للـدارس أن يُسـلِّم بـأن كل هـذا الزخـم التاريخـي المتسـارع والانقـلاب الشـامل، الـذي حـدث في فـترة زمنيـة وجيـزة، حـدث، كـما تصـور لنـا كتـب التاريـخ فقـط بإيعـاز الرمـوز الدينيـة، أو التمحـور حـول شـخصيات بعينهـا (أبـو بكـر، عمـر، عائشـة، طلحـة، الزبـير، عثـمان، عـلى، معاويـة، عمـرو بـن العـاص، الحسـن والحسـين، وغيرهـم).

فلاشـك أن منابـع الفعـل والتغيـير السـياسي في عمـر دولـة الإسـلام كانـت تحركهـا دوافـع وعوامـل أخـرى، شـخصيات وقيـادات كانـت مدفوعـة بمرتكـزات وأبعـاد تتحـرك داخـل إطارهـا، وتخـدم تطلعاتهـا، قيـادات وشـخصيات تحركـت مـن منطـق واقعـي وليـس مثاليًّـا، شـخصيات وقيـادات حرصـت الرمـوز (الدينيـة) نفسـها عـلى الاسـتعانة بهـا، واسـتخدمتها،

---

(1)يعـرف البعـض السـلطة "بأنهـا القـدرة عـلى التأثـير، وهـي تأخـذ طابعًـا شرعيًّـا في إطـار الحيـاة الاجتماعيـة، والسـلطة هـي القـوة الطبيعيـة، أو الحـق الشرعـي في التـصرف، أو إصـدار الأوامـر في مجتمـع معـين، ويرتبط هـذا الشـكل مـن القـوة بمركـز اجتماعـي يقبلـه أعضـاء المجتمـع بوصفـه شرعيًّـا، ومـن ثَـمَّ يخضعـون لتوجيهاتـه وأوامـره وقراراتـه – راجـع أحمـد زكـي بـدوي: معجـم مصطلحـات العلـوم الاجتماعيـة، مكتبـة لبنـان، بـيروت، 1978.

بل إن كثيرًا من تلك الشخصيات والقيادات، وفي كثير من الأحيان عملت بوصفها مُمثِّلًا ومبعوثًا شخصيًّا لهذه الرموز (الدينية) التي ظلت ولا تزال لليوم تحظى بأعلى درجة من درجات الحماية - بسلطة الديني والمقدس - التي وفرها لها التاريخ وبتلقائية عالية لا تخلو هي أيضًا من عوامل ودوافع أيديولوجية تتكئ على مرتكزات ثقافية مستمدة من الحضور القبلي لتراث ما قبل الإسلام وامتداداته، إضافة للحضور والقداسة الدينية التي حازتها بعد الإسلام، وما أحدثه من تحولات شمولية شكلت بدورها صورة هذا التاريخ، (تاريخ) القرن الأول الهجري.

إدانة أم متطلبات للسرد التاريخي؟

هـدف التاريـخ: " هـو معرفـة مـا حـدث كـما حـدث بالفعـل "[1]

مَثَّل ظهـور الإسـلام منعطفًـا مهـمًّا في وعـي التاريـخ عنـد العـرب، فبعـد حيـاة شَّـتات كانـوا يعيشـونَهَا في ظـل عصبيـات قبليـة، فرضـت أن يكـون النمـط الثقـافي السَّـائد (ومـع نُـدرة التَّدويـن) معتمـدًا عـلى "الذَّاكـرة والحِفْـظ"، وجعلهـما بمثابـة الوعـاء الثقـافي السـائد، كـما جعلـت مـن "الشـعر"، و"الأيـام" و"الأنسـاب" و"الخـبر" و"القصـص الشـفاهي" موضوعـات متجـددة، ونمطًـا مخـبرًا للثقافـة الجاهليـة، ورتقًـا لفراغـات التاريـخ غـير المـدون لفـترة مـا قبـل الإسـلام عنـد العـرب، فمـع ظهـور الإسـلام أصبـح هنـاك طابعًـا جديـدًا غـير الأنـماط السـابقة، طابعًـا وجـه المضامـين نحـو واقـع التحـول الإسـلامي الحاصـل؛ إذْ أصبـح الحضـور التاريخـي منجذبًـا بصـورة مـا لـضرورة المقاربـة مـع النـص القـرآني والسـيرة النبويَّـة النموذجـين "الأهـم" بهـذا الوقـت في الكتابـة التَّاريخيَّـة الإسـلامية، وربـما يدفعنـا وجـود المؤثـرات التراثيـة بـما فيهـا مـن نصـوص وروايـات ومنقـولات للقـول بـأن عمليـة تدويـن التاريـخ الإسـلامي الجديـد في الظاهـر حدثـت بعـد سـقوط الدولـة الأمويـة عـام (132 هــ 750–م)، لكـن يقودنـا الفحـص الدقيـق ورصـد التطـور إلى أن العـصر العبـاسي

(1)ليوبولد فون رانكه - Leopold.von.Ranke (1795-886).

(132 – 656هـ/ 750 – 1258م)[1]، هـو عـصر الإنتـاج المكثـف والموسع للتاريـخ الإسـلامي وليـس بدايتـه. ففـي هـذا العـصر نضجـت الروايـة التاريخيـة بشـكلها الغزيـر، كـما ظهـر فيهـا تركيـز عـلى حقيقـة مُعطـى الإسـلام وأنـه المنبـع لأصـل التجربـة السياسـية الإسـلامية والمحـرك الرئيـسي للتغـيرات الحضاريـة التـي جـرت.

اعتـبر القائمـون عـلى تدويـن التاريـخ ورصـده أن مـا جـرى في القـرن الأول الهجـري، وتحديـدًا– منـذ نـزول الوحـي، وحتـى نهايـة فـترة الخلافـة الراشـدة – بمثابـة تغـير حـاد في المفاهيـم والمضامـين والموروثـات والأعـراف التقليديـة التـي كانت سـائدة، وأن مـا اسـتتبعه كان نتيجـة مبـاشرة لتغـير الوعـي والهويـة العربيـة بأثـر الإسـلام وتشريعاتـه وأعـمال الرسـول ﷺ وأقوالـه، وعليـه بـما أن التحـول قـد تحقـق، إذن تولـدت ضرورة دفعـت هـي الأخـرى نحـو ترسـيخ الاعتقـاد أن هـذا التغـير يعـود للديـن، الديـن (وحـده) بـكل أبعـاده ودلالاتـه، وجعلـه السـائد المتخيَّـل والجمعـي لتصـوُّر الإسـلام الأول.

وربـما كان ذلـك ضرورة وحتميـة – نفهـم مسـبباتها – ضرورة ولدتهـا متطلبـات السـرد التاريخـي العـام لهـذا العـصر، وولـدت بدورهـا إقـرارًا بـأن الفعـل التاريخـي الإسـلامي لم يتحقـق إلا في

(1) وهـذا لا يعنـي أنـه لم يكـن هنـاك مجهـود لجمـع المـادة وتدوينهـا في العصر الأمـوي، فـلا يمكـن أن نسـتثني العهـد الأمـوي ومـا فيـه مـن إخباريـين ورواة مـن عمليـات التدويـن في مؤلفـات تاريخيـة كـبرى.

إطار التجربة الدينية الحاصلة وطبيعتها، وما رافقها من تغيير جوهري اقترن بالتغيرات الاجتماعية والثقافية والأخلاقية، بل والاقتصادية أيضًا، كذلك جزء من متطلبات السرد التاريخي في العصر العباسي نفسها كانت تستدعي توظيف الديني في خدمة السياسي، وتفرض خلق واقع أيديولوجي - معين - واقع يتم فيه الحديث عن سياقات الماضي بطريقة تتوافق مع تاريخ دولة الأمة الجديدة، وبمعنى أدق التوسع في عمليات (التنصيص السياسي)[1].

من هذه الزاوية، قد يكون من البديهي فهم الكثافة في النصوص والروايات التي تستمد وتستوحى معظم السياقات الموجودة من القرآن وقصص السيرة والفتوحات والغزوات التي لم يعد الإخبار عنها في سياق سردي تاريخي محايدًا بقدر ما كان مرتبطًا بشكل مباشر بتجربة الأمة وثقافتها الدينية.

ومن المُلح وقبل استعراض الصفحات القادمة من الكتاب - القول: "إن ما بين دفتيه مبني على فرضيات فكرية - تاريخية" فرضيات تتلمس حقيقتها مباشرة من خلال "النصوص"، وفي "الأبعاد التاريخية لها" - وما يُرَى فيهما[2].

---

(1) انظر: عبد الجواد ياسين، السلطة في الإسلام العقل الفقهي السلفي بين النص والتاريخ، المركز الثقافي العربي، ط2، سنة 2000، ص 259.

(2) لم يغب - ونحن نعلم ما قد يثيره هذا المنحنى من اعتراضات =

لـذا فـإن ثمـة عـددًا مـن الأفـكار المثـارة، قـد لا يستسـيغها كثـيرون، والسَّـببُ أن القـراءة التـي نقدمهـا حـول أصـول النـص التاريخـي ومحـركات الفعـل ومنابـع التغيـير التـي جـرت في القـرن الأول الهجـري، ليسـت تلـك التـي يقبـل بهـا العقـل الجمعـي للأمـة، بـما يتبعـه مـن مثاليـة التجربـة الإنسـانية الإسـلامية، واختلاطهـا بسـلم القيـم والمثـل التـي رصدتهـا، أيضًـا لا لأنهـا تولـد تسـاؤلات تغـذي صـورة مختلفـة للـدور التاريخـي لأبطـال أدوا أدوارًا مؤثـرة في هـذا القـرن، سـواء كانـت أدوار عقائديـة أم أخلاقيـة أم سياسـية، بـل السـبب أن إعـادة قـراءة تلـك المشـاهد

=مقبولـة – حضـور وتماهـي بعـض المـواد مـن الـتراث اليهـودي والمسـيحي – عـلى اختـلاف أشـكالها في تـراث الجاهليـة، ومـا شـاع مـن تـراث قديـم لهـذه الأمـم، وتسربهـا – في حـالات بسـيطة – بداخـل الكتابـات الإسـلامية، تمازجـت هـذه المكونـات فيـما بينهـا، وتـم صهـر عناصرهـا في نسـيج احتياجـات الدولـة العباسـية التـي وجـد مدونوهـا أنفسـهم أمـام كـمٍّ هائـل مـن النصـوص والروايـات مرتبطـة بأحـداث القـرن الأول ووقائعـه، وذلـك عـلى يـد مـا عـرف بطبقـة المؤرخـين والـرواة والإخباريـين، أيضًـا كان تفسـير الوقائـع والأحـداث والمتغيرات التـي طـرأت تسـتلزم أن تخـدم المنحنـى الدينـي بـكل مـا لـه مـن دلالات، وأن تتـم قراءتهـا كمصـدر أو ممـر تنبـع منـه أحـداث وتحـولات الفعـل السـياسي التـي قادتـه العديـد مـن الشـخصيات والقيـادات الإسـلامية، وكانـت أهـم ركائـز ومنابـع التغيـير فيـه (ونقصـد بالإسـلامية هنـا كل السـياقات التـي شـكلت الفعـل السـياسي مـن خـلال كل الطبيعـة الإسـلامية وعلاقتهـا بالآخريـن (الفتوحـات، أهـل الذمـة، المـوالي) وغيرهـا مـن مشـاهد الامتـداد الدينـي والسـياسي للإسـلام).

التاريخية تقدمهم في دور يختلف عن ذاك الدور الذي أعطاه لهم المؤرخون والإخباريون الأوائل، دور يختلف عن صورتهم في المشهد الذي رُسم لهم في الزمن الجمعي الافتراضي للأمة، دور يكشف عن حقائق مخالفة لما ترسَّب في المخيال الديني أو إسلام الأصول.

فمن المحقق أننا اعتمدنا على ما كان يجب أن يظهر في جملة المشاهد والأدوار التي كانت تجري على أرض الواقع، متجاوزين التصورات والثوابت النظرية التي تدعمها القيم والأخلاق والمثاليات التقليدية ، بل حتى كثير من التفاسير والتعليقات - التي جرت لتحليل هذه المشاهد والأحداث - ربما يراها البعض غير مقبولة، لكن وفي الوقت نفسه سيجد الرافضون لها صعوبة في تقبل عدم معقوليتها...لأنها ببساطة وبعيدًا عن الاختلاف والاختلاق والجدل، تمثل التصور المنطقي لما كان يجري من أحداث، التصور المنطقي بعيدًا عن أيديولوجيا التقديس والمقدس ودلالاتهما، تلك الدلالات التي مورست، بل وربما تكون قد طغت على الكتابة التاريخية الإسلامية في القرنين الثاني والثالث الهجري بدرجة موسعة وشاملة إن صح التعبير.

كذلك لا تحاول صفحات الكتاب إدانة طبقة الإخباريين ولا المؤرخين الذين تعاملوا مع كمٍّ تراثي وروائي ضخم مما قدمه الرواة والمحدثون لهم، سواء مسندة أم غير مسندة، توزعت على قرنين كاملين (ليست تلك مهمة المؤرخ)، كما

لا ندعـي أنهـا محاولـة لكشـف مـا لُفِّـقَ مـن روايـاتٍ أو نصـوص تاريخيَّـةٍ حُسِـبَتْ عـلى الديـن والتاريـخ الإسـلامي.

لذلـك إن بـدا في أحـد زوايـا الكتـاب مـا يوحـي بمضامـين "هـذه الإدانـة" للمعطـى التاريخـي المتكـون والمنتـج أو تَزيِّـي بزيهـا، فـإن موقفنـا الحقيقـي هـو موقـف تفهمـي لدوافـع ودلالات وأسـباب هـذه المشـاهد. ففـي هـذه المرحلـة المبكـرة لم يتـأتَّ للمـؤرخ أن يكتـب التاريـخ دون أن يقـدم للمتلقـي فهـمًا يأخـذ بعـين الاعتبـار إطـار المنظـور الدينـي والمقـدس، ولم يتـح للمـؤرخ القـدرة عـلى كـسر حاجـز الديناميكيـة التاريخيـة المتعلقـة بطبيعـة هـذه الفـترة، أو بعيـدًا عـن دلالات ومضامـين الخـير والـشر، وقصـة الأمـة، وانتصـارات العـرب ودولـة الإسـلام، فهـذه المضامـين والـدلالات كانـت جـزءًا لا يتجـزأ مـن سرد (مثـالي)، سرد لـن يُتـاح للكتَّـاب المتأخريـن في عصـور مـا بعـد الـرواة إلا أن تقـرأ مـن خلالـه.

القرن الأول الهجري (بين هامش الحرية وزحزحة الأسطرة التاريخية)

كثير من المشاهد التاريخية الإسلامية في القرن الأول والبعيدة عن الواقعية أو المحتكرة لأنواع معينة من الشحن الديني والسياسي لشخصيات وزعامات وقيادات تُركت أخبارها دون تقرير من قبل المؤرخين[1] ، وربما كان تدخل المؤرخين والرواة والإخباريين التي جاءت في فترة متأخرة تحملنا على الاعتقاد أن مثل هذه الشخصيات كانت تمثل تجاوزًا للخطاب الإيديولوجي الملتفّ حول النص وتشكل متنفسًا وهامشًا للحرية (التاريخية) تلقت سهام النقد والانتقاد، هامشًا تم تحميله مساقات الفعل غير الديني، أو الفعل الذي لا يستند لأسس أخلاقية، أو تلك التي يكون "فك الارتباط" فيها أمرا متعذّرًا.

(1) محاولة تحديد واستيضاح أثر صنعة المؤرخين وتدخلهم في طبيعة المشهد المعطى والصورة المنتجة لهم، هو سبيل لكشف الصورة للفعل السياسي وطبيعة ممارساته الواقعية والمعقولة، وربما نذهب هنا للاتفاق في نقاط محددة مع رؤية البعض في "أن تصور موضوع ما، ما هو إلا تصور لما قد ينتج عن هذا الموضوع من آثار عملية، بل لربما يمكن اعتبار التاريخ نفسه وقدرة المؤرخين على استخلاص العظة والمبادئ والقيم الأخلاقية هي عملية براجماتية بالأساس؛ إذْ إن هذه الكتابة تقدم في النهاية – وبعيدًا عن الاعتبارات الأخرى – المنفعة المطلوبة من التدوين". ممن تبنو هذا التصور، وبشكل موسع تشارلز ساندرز بيرس (1839-1914)".

ولسنا في حاجة للقول إن النظر من المنظور الديني أو المثالي أو النموذجي (لحدث أو شخصية) لا يفيدا في استمرار المقاربات، ولا إدراك الحقائق، وأنه يحتاج إلى إعادة تقييم؛ لأنه واقع ولد أو على الأقل أسهم من خلال إسقاطاته ورواياته ونصوصه (الواسعة التداول اليوم) في جعل صورة التاريخ الإسلامي تاريخًا مجمدًا، تاريخًا طقوسيًّا، غير قابل للتحقق ولا الاستعادة.. تاريخ هو في الغالب امتداد للميتا - تاريخ النبوي، وتعبير عن الفترة الاستثنائية (فترة الخلافة الراشدة)، ولاسيما نموذجيها الأكثر مثالية (الخليفة أبو بكر، والخليفة عمر)، مرورًا بمرحلة (الحق الشرعي) ومعسكر الحق والباطل المتمثلة في فترة الصراع بين (علي ومعاوية)، وصولًا إلى الامتدادات الأخرى المتمثلة في محورة التاريخ وتوزيعه على خطأ وصواب الفرق والمذاهب والأحزاب، والحكم في أحقية السلالات (الأموية والعباسية) في السلطة من عدمها، حيث كانت صناعة الكتابة التاريخية الإسلامية، ولاتزال (في جزء موسع منها) منجذبة في إطار هذا الخط الدراماتيكي، بحيث كان على النص والرواية أن يكونا هما أيضًا بمثابة خطوط تدعم هذا النسق وتسير عليه.

إنها معضلة، مُعضِلة نشأة هذه الصورة الكلية، هذا المشهد المعقد والمتعدد التفاصيل والفسيفسائي بدرجة حادة، معضلة زحزحة الأسطرة عن شخصيات أخذت الجانب المقدس، وأفرغت الوقائع التاريخية من معقوليتها، وأنتجت أوديسا دينية مصطنعة، أوديسا ما زلنا نبحث عن أبطالها، أو ننتظر بعثهم من جديد.

البراجماتيون

فاعلية الحراك التاريخي

أم إسلام التاريخ؟

يَعُدُّ البعض البراجماتية بمثابة امتداد للفلسفات والمذاهب الوضعية والمادية، ومن ثَمَّ تتولد درجة عالية من الريبة حين يتم إطلاقها على أحد الشخصيات أو الزعامات الإسلامية لا سيما المبكرة منها، وربما يكون السؤال المنطقي، لماذا اختيار مصطلح البراجماتية (Pragmatism)؟ كتعبير عن سمة هذه الشخصيات التي أدارت عملية التغيير السياسي في هذه الفترة، فترة الإسلام المبكر أو فترة (إسلام الأصول)؟

إن الإجابة على هذا التساؤل يمكن أن يستجمعها القارئ على نحوٍ أو آخر في تطور طبيعة الأفعال والسياسات وعمليات التغيير التي كانت تجرى على يد هذه الشخصيات (المختارة)، فحينما نقول: "هذا الفعل براجماتي"، بالنسبة للشخصية فإننا نقصد أنه فعل لم يتقيد صاحبه بمنظومة أفكار ومبادئ أخلاقية أو سياسية ثابتة، أو بمعنى آخر لم تتقيد الشخصية بمنظومة أفكار (أيديولوجية) معينة، بل فقط التصرف وفق اللحظة، ووفق الظرف وطبيعة الواقع السياسي في تناقضاته المتعددة، وفق تصور واقعي تقوده خلفية المصالح المتحققة، أو وفق ما ينفع وما يضر الشخصية نفسها، أو ما ينفع ويضر المنظومة التي تعمل لأجلها سواء أكانت منظومة السلطة أم القبيلة أو الجماعة أم حتى منظومة المعارضة.

فالبرجماتيــة، بالنســبة لهــذه الشــخصيات، مثلــت منطلقًــا شــخصيًّا وليســت وحــدة قيــاس أو مصــدرًا ثابتًــا لإنتــاج المواقــف مــن الأحــداث، منطلــق يهــدف عمومًــا إلى العمــل الناجح بالنســبة لتصوراتهــم ويخــدم مصالحهــم.

براجماتيــة هــذه الشــخصيات هــي (توصيــف) لاختيــار نــوع الفعــل أو" العمــل النافــع، أو المزاولــة المجديــة التــي مــن خلالهــا تخــدم الشــخصية نفســها ومنظومتهــا". ولا نســتثني مــن ذلــك أيــة منظومــة أو حــراك تاريخــي بــما في ذلــك الجهــاد / الفتوحــات / الســلطة / القبيلــة / المعارضــة، ومــا يدخــل في إطارهــم.

وعــلى الرغــم مــن أننــا لا نمتلــك أدلــة حاســمة عــلى أنــه يمكــن توقــع دوافــع أخــرى ومحــركات فعــل (خفيــة) لهــذه الشــخصيات؛ لــذا فليــس مــن المســتغرب القــول إن هــذا المصطلــح " Pragmatism " اســتخدمه البراجماتيــون أنفســهم في كتاباتهــم بشــكل حــذر، حتــى إن أحــد روادهــم[1] كتــب يقــول "عــليَّ أن أعــترف أن مصطلــح البراجماتيــة بــكل مــا يقترحــه مــن أفعــال كان اختيــارًا ســيئًا"[2]. مضيفًــا[3] أن نظريتــه التــي ســماها

(1)وليم جيمس William James.

(2)انظر رواد الفلسفة البراجماتية، تشارلز موريس، ص 28-29

(3)تشــارلز ســاندرس بــيرس كاتــب أمريكــي مــن أوائــل مَــن أدرجــوا المصطلــح Pragmatism في الفلســفة المعــاصرة، وأول مَــن اســتخدم هــذا اللفــظ عــام 1878 وذلــك في مقــال نــشره – في مجلــة Popular Science Monthly عــدد ينايــر تحــت عنــوان "كيــف نوضــح أفكارنــا أو كيــف نجعــل أفكارنــا واضحــة". انظــر "رواد الفلســفة البراجماتيــة" تشــارلز موريــس، ص 5.

باسم Pragmaticism تعني "تحرر التصرف[1]".

إذن نتلمس من هذه العبارات أن الشخص الذي يتصرف وفق منطقية وواقعية يكون محور اهتمام بشكل خاص أكثر من غيره.

---

(1) ونتلمس هذا المعنى وبشكل واضح في أحد الصيغ التي وضعها تعريفًا للبراجماتية، والتي تدور حول أنه لكي يمكن التحقق من معنى التصور للتجربة، فيجب أن يتم تأمل النتائج العملية التي تنتج- إذْ إن هناك علاقة بين الفعل والخبرة.

نفس الوجوه

فأين الاختلاف؟!!!

ورد عن الطبري أن خالد بن الوليد قال: "لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إليه، ولو لم يكن إلا المعاش، لكان الرأي أن نقارع عليه[1]".

المستغرب عند النظر للنص التاريخي عمومًا في أغلب مصادر وكتب التراث الإسلامي أنه حين يتحول الصراع ليكون بين أفراد الأمة أو أقطابها ورموزها الدينية والسياسية، كما حدث في (الفتنة - الجمل - صفين- كربلاء - الحرة) مثلًا، يتحتم على المشهد التاريخي أن يتحول هو الأخر ليعطي صورة من مشاهد الصراع لمصلحة الأمة، أو صراع المخطئ والمصيب - صراع من له أجر ومن له أجران - وبذلك فلن يكون مستغربًا بالنسبة للشخصيات المشاركة في الأحداث ظهور نصوص ومشاهد حادة ومشحونة، يختفي وراء ضبابيتها وتماهيها وارتباك تركيباتها التاريخ نفسه الذي صنعها.

على أنه وحينما كان يتحول الصراع مع غير أفراد الأمة كما هو الحال في حروب الفتوحات والغزوات، التوسع وضم

(1) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج4، ص9، راجع أيضًا: عبد الحكيم الكعبي، الدولة العربية في صدر الإسلام 12 قبل الهجرة - 40 هـ / 610 - 660 م، ص 117.

مزيد من الأرض للدولة الإسلامية والدفاع عن المقدسات والقيم والأخلاق الإسلامية حينها يتحول النص أو الرواية لرسم مشهد مغاير، مشهد مرتبط هو الأخر بالمخيال الجمعي للإسلام نفسه، إذْ يتحول الجميع (شخصيات، قيادات عسكرية، زعامات قبلية، أو حتى الأفراد العاديون المشاركون)، إلى أفراد تحميهم سلطتهم الدينية، وسلطة المقدس، أفراد تغطيهم قداسة انخراطهم في مشروع الأمة وأهدافه الأخلاقية، بل لربما تم إلباس هذه الشخصيات سَمْتَ الخيال المفرط، الذي يتداخل فيه الذاتي بالموضوعي، بل وفي حالات كثيرة الغيبي والأسطوري.

بالمقابل ، كان استحضار التاريخ للشخصيات والرموز البراجماتية في أجزاء ومشاهد منتقاة يتم فقط – لتحميل المسؤولية والإعداد لتلقي سهام الانتقاد أو التجريح، من خلال التركيز على دورهم في السعي نحو المغانم والمصالح، وإعادة التمترس القبلي وإنتاج الزعامات والعصبيات القديمة... إذن هي نفس الوجوه ونفس الشخصيات، بل وفي نفس الصراعات، فما الذي اختلف!!!

خارج إطار التقديس

شبث بن ربعي التميمي

أبو الأعور السلمي

عبد الله بن خازم

المهلب بن أبي صفرة

صناعة الصورة المثالية عن الإسلام والمسلمين الأوائل بما تتطلبه من عرض القيم الدينية، والأخلاقية، والزهد، والورع، ومغالبة الأهواء، والإيثار، وغيرها لهذه الشخصيات التي تصنع عملية التغيير السياسي وتقوده. هل غيب الجانب المادي لتاريخ الأمة وخلق لنا فيما بعد أزمة (المثالية) بما يصحبها من وهم تحققها، الوضع الذي أضاع علينا فرصة التقييم والمقارنة والقدرة على التمييز بين الواقعي والموضوعي والمنطقي والمثالي والأخلاقي والنموذجي، وأتاح (في مرحلة لاحقة) توجيه مزيدٍ من الانتقاد والاتهام والتشكيك في التاريخ الإسلامي، بل وجعلنا نحن المؤرخين العرب وفي ظل تواجد أسئلة مثارة حول مصادر التاريخ الإسلامي ومدى مصداقيتها وسلامة نقولاتها، نتوقف فقط للدفاع ومحاولة البحث عن مزيد من المبررات التاريخية لتقديمها للآخر، سواء تبريرات ما التصق ببعض المشاهد من عدم المعقولية والمنطقية والواقعية، بل وربما في حالات كثيرة نتوقف لإثبات صحة وقوعها، وإثباته من الأساس.

إذن هل يقودنا الحفر التاريخي وراء هذه الشخصيات (الميتاتاريخية)[1] من القرن الأول الهجري - للكشف عن سوسيولوجيا الحراك السياسي المنطقي الذي كان يحدث وفق تشابك شموليته وتلونه بأبعاد (القبلي والسياسي والديني) وأطيافه، أم يكون استحضارهم بمثابة تكريس لهذا الانفصال وزيادة في تعميق هوة الأزمة بين المثالي والواقعي!

هل برجماتيتهم هذه قادرة على إزالة ضبابية كثير من المشاهد الكامنة في مصادر التاريخ الإسلامي، والإقناع أنهم كانوا منبع أصيلًا من منابع الفاعلية والتغيير السياسي المنطقي لدولة الإسلام ومحركًا للأحداث وصناعتها؟

وفيما يتصل بهذه المسألة، تُعدُّ المقاربة التي نحاول توسيع فضاءها من خلال القراءة اللاحقة للشخصيات المذكورة، هي محاولة - لا تخلو من الاجتهاد - لكنها في نفس الآن ضرورية؛ لأنها تسهم في فعل استرجاع حيوي من الإبستمولوجيات[2] الإسلامية وتحليل متغيرات المشهد لمكونات التطور التاريخي والقراءة المنطقية لشخصيات

(1) Metahistory / Meta بادئة معناها أعلى، مصطلح استخدمه هنري كوربان للتعبير عن مجموعة من الأحداث التاريخيّة المُخْتَزَلَة، التي لا تأخذ بعين الاعتبار تاريخ الشعوب؛ إذْ يخضع التاريخ لحتمية لا تاريخية، وللتدخل الغيبي، هذا التدخل الذي يرفع بعض الشخصيات ليجعلها في مكانه مقدسة.

(2) الإبستمولوجيا L'épistémologie علم يُعنى بشكل دقيق بدراسة مبادئ العلوم وفرضياتها دراسة نقدية تهدف إلى تبيِّن بناها ومنطقها.

وأحداث هذا القرن (القرن الأول الهجري)- فإعادة قراءة مثل هذه النماذج بشكل بعيد عن السياج وعن السياقات والمناهج التقليدية يسهم في فتح آفاق جديدة لفهم حقيقة ودوافع السيرورة التاريخية للمشهد النهائي الذي سجلته مصادر التاريخ المختلفة منذ القرن الأول، وحتى فترات تاريخية قريبة، لاسيما أن الاعتماد على الرؤية الكلاسيكية القديمة أصبحت قاصرة عن تقديم تفسيرات واقعية لأحداث ومشاهد مؤثرة في تاريخنا وتراثنا الإسلامي عمومًا، وزخم وتشابك أحداث القرن الأول خصوصًا، فالرضى والقبول بتقديم تاريخ الأمة وتراثها وخاصة ما يتعلق منه بالديني والأخلاقي وجعله وكأنه تجربة إنسانية (مستثناة) من التجربة البشرية لباقي الحضارات والأمم أصبح جدلية فاقدة لحيوية الحراك، وتكريسًا للانغلاق[1]، جدلية لن تخلق سوى قطيعة وعدم قدرة على التواصل مع الأخر، ففهم ما جرى من عميق التحولات السياسية الإسلامية في القرن الأول لن يكون فقط من خلال تصدير مشاهد الحق والخير، وحاكمية النص الديني وهالة المقدس والقداسة والعصمة، بل يجب فهمها من خلال منطقيتها التاريخية، منطقية تدفع للبحث عن مقاربة يمكن أن تُطرح وتُناقش في سياق الجدل التاريخي بين "طبيعة حدود النص الديني أو المثالي ودوافع، وأسباب تشكله وتأويله، وإعادة بناء المشهد الواقعي والمنطقي المقبول، وطبيعة التناقض بينهما".

(1)فضلًا عن العيش في عوالم الغيبيات والمعجزات، والخوارق.

الفصل

الأول

1

شبث بن ربعي التميمي

أم سلمة[1].. يا شبث... أيسب رسول الله ﷺ في ناديكم؟

شبث "إنا نقول شيئًا نريد عرض هذه الحياة الدنيا"[2].

(1) أم المؤمنين زوج النبي ﷺ.

(2) الرواية كما جاءت عند ابن عساكر في تاريخ دمشق، عن أبي إسحاق السبيعي قال: حججت أنا وغلام، فمررت بالمدينة، فرأيت الناس عنقًا واحدًا، فاتبعتهم فأتوا أم سلمة زوج النبي ﷺ، فسمعتها وهي تقول: يا شبث بن ربعي، فأجابها رجل جلف جاف لبيك يا أمة، فقالت: أيسب رسول الله ﷺ في ناديكم؟ فقال: إنا نقول شيئًا نريد عرض هذه الحياة الدنيا فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "مَن سب عليا فقد سبني ومَن سبني سب الله"، ج 42، ص 533.

شبث التميمي

حالة تاريخية مستقرة ... أم مشهد مصنوع؟

إلى جانب التدوين الانتقائيِّ لبعض الحوادث التاريخية، ظهرت وتشكلت في التراث التاريخي العربي الإسلامي شخصيات[1] اتسع بمرور الوقت إطارها لاستيعاب المواقف السياسية والدينية التي تأرجحت ما بين التبرير تارة، والشحن تارة أخرى؛ إذْ أصبح نقد المرويات الأصلية لمثل هذه النماذج وتفكيك بعض النصوص والمرويات التي علقت بها من ركام الخلط والانحياز تُشَكِّلُ ضرورة لفهم كيف كانت تتحرك وأسباب هذه الدوافع والتحركات، لا من منطلق التحول أو عدم الثقة... بل من أجل مزيدٍ من الفهم والخروج من دائرة التقديس والمثالية.

---

(1) وفي أحيان أخرى أضحت بعض النصوص المتعلقة بها بمرور الزمن (نصوص) راسخة يصعب خرقها.

تـبرز شـخصية "شـبث بن ربعـي التميمـي"، في كتـب التاريخ الإسـلامي في فـترة أعقَبـت البدايـات الأولى للعهـد النبـوي؛ لذلك ارتبطــت هــذه الشــخصية بقضايــا ومفاصــل محوريــة كصفــين، ظهــور الخــوارج، ومقتــل الحســين، وذلــك إلى حَــدٍّ يمكــن معــه اعتبــار هــذه الشــخصية مــن الشــخصيات التــي يمكــن القيــاس عليهــا في التاريــخ الإســلامي.

يقـول معاويـة بـن أبي سـفيان: "مـضر كاهـل العـرب، وتميـم كاهـل مـضر". وفي روايـة أن صعصعـة بـن ناجيـة التميمـي (جـد الفــرزدق) وفــد عــلى الرســول ﷺ فقــال لــه الرســول، كيــف علمــك في مــضر؟ قــال: يــا رســول الله، تميــم هامتهــا وكاهلهــا الشــديد الــذي يوثــق بــه ويحمــل عليــه. فقــال الرســول ﷺ: صدقـت.إذًا هـي تميـم القبيلـة العربيـة الكـبرى التـي تحتـل مركـزًا مهـــمًّا في التاريــخ العــربي قبــل الإســلام وبعــده.

فشـبث الــذي كان يعايــش – كــما ســنتبين ذلــك – الحــوادث والـصراعـات الكـبرى والتناقضـات في شـكل فـرص متتاليـة يمثل أنموذجًـا يعـزز تصوراتنـا حـول طبيعة هذه الشـخصيات، فشـبث – في واقــع الأمــر – مــن بــين القيــادات الإســلامية التــي كانــت تــرى في تحــدي الســلطة تــارة الطريــق الأمثــل لتحقيــق طموحهــا، وإن اســتطاعت الســلطة تقديــم مميــزات أفضــل فســيكون الــولاء إذًا ضرورة تقتضيهـا المصلحـة، وفي كلتـي الحالتـين يتأسـس الفعـل عــلى المصلحــة المتحققــة، وهــو اتجــاه ليــس مــن الصعــب تلمســه للكثــير مــن القيــادات والشــخصيات في هــذه الفــترة.

شَبَثُ بن ربعي؟

يحيط الغموض -خاصة قبل إسلامه- بكثير من حياة شبث بن ربعي التميمي، كما لم يُسجل التاريخ أيضًا وعلى نحو دقيق شيئًا عن شخص شبث قبل انخراطه في الصراعات؛ إذْ ترد في بعض المصادر الإشارات والجمل المنقطعة عن نسبه وكنيته دون توسع، يرد أنه كان يكنى أبا عبد القدوس وينسب إلى حصين بن يربوع بن حنظلة من بني تميم، ويذكر أنه كانت لوالده سيادة في قومه منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب[1].

يصفه ابن أعثم الكوفي في كتابه (الفتوح)" جاهليًّا إسلاميًّا وفارسًا من أشراف بني تميم"[2]، ويؤكد آخرون كالنيسابوري أن شبث رأي أم سلمة زوج الرسول ﷺ[3] "أما ابن عساكر فترد له رواية في سياق حديث يتناول النهي عن سب علي بن أبي طالب، إذْ يقول أن أم سلمة قالت: "يا شبث بن ربعي.... فأجابها رجل جلف جاف لبيك يا أمة فقالت: "أيسب رسول الله ﷺ في ناديكم؟" فقال: "...إنا نقول شيئًا نريد عرض هذه الحياة الدنيا".

---

(1) يروي الطبري أن أباه "ربعي" جاء عُمَرَ في أناس من بني حنظلة، فأمره عليهم ورأس بعده ابنه شبث. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 464.

(2) ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ص 266.

(3) الخركوشي، أبو سعد، شرف المصطفى، ج5، ص 503.

تستوقفنا هذه الرواية التي يشير مضمونها إلى أن شبثًا كان ضد عليٍّ في هذه المرحلة المبكرة، وأثناء الفتنة، وبفريق المطالبين بدم عثمان والاقتصاص من قتلته بمعنى أخر هو ينتمي لفريق (طلحة والزبير والسيدة عائشة رضى الله عنهم)، ذلك النص أو المشهد الذي يقرر معه صورة هذا الشخص وطبيعته يصف نفسه بدون مواربة "إنا نقول شيئًا نريد عرض هذه الحياة الدنيا" عبارة تنزع معها كل تبرير لدوره، باستثناء ما تدفعه إليه مصلحته الشخصية في هذه المرحلة.

لا تتناقض المصادر الأخرى مع ما سبق، فالذهبي يقول عن شبث في (سير أعلام النبلاء): "أَحَدُ الأَشْرَافِ والفرسان، وسيد بني تميم" لكنه يلحق هذا النص بقوله: " خَرَجَ عَلَى عَلِيٍّ، وَأَنْكَرَ التَّحْكِيْمَ، ثُمَّ تَابَ"[1] "قد يبدو في ثنايا رواية الذهبي هذه بعض التشدد؛ لأنه يمكن فهمها على أن الخروج على علي لا تعالجه سوى التوبة وهو ما يشير له بالقول: "ثم تاب" تاركًا لنا الوقوف مقابل تناقضات ومفارقات النصوص والروايات التي تجعل الخليفة معاوية نفسه مع عدد من كبار الصحابة ضد الخليفة علي!

أما أنساب الأشراف للبلاذري فنرصد لشبث فيه وصفًا شعوبيًّا – إذْ يقول عنه البلاذري "العلوي[2] الفارس

(1)هو والأحنف – الذهبي، سير أعلام النبلاء، ص79.

(2)البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، ج2، ص 340.

الناسـك"[1]، كـما يـرد خـبر عـن زوجتـه أن" الأبـيرد بـن المعـذر الشـاعر، كان يتعـرض لهـا، الأمـر الـذي جعـل أهلهـا (بنـو عجـل) يتوعـدون الأبـيرد إن أتاهـا أو تحـدث إليهـا"[2]، روايـة طريفـة تدفعنـا للتسـاؤل عـن وجـه الأهميـة لربـط صـورة زوجتـه بمشـهد كهـذا، وهـو مشـهد لا يتناسـب مـع طبيعـة المجتمـع القبـلي والعصبـي ولا القيـم الأخلاقيـة بفضاءاتهـا المتعـددة، فهـل كان ذلـك جـزءًا مـن السـياق التاريخـي، أم أنـه مشـهد انتقائـي أُريـد بـه تشـكيل ورسـم صـورة مـا للشـخصية؟

ينقـل ابـن حجـر رأي العجـلي في تاريـخ الثقـات[3] أن شـبثًا كان أول مَـن أعـان عـلى قتـل عثـمان[4].

تبـدو هـذه الروايـة أيضًـا مبالغًـا فيهـا ولم نجـد مـا يوافقهـا في مصـادر أخـرى، ولعلهـا لا تصمـد أمـام مزيـد مـن البحـث والتدقيـق - ولا سـيما أن شـبثًا وإن جـاء ضمـن شـخصيات أخـرى تلطـخ اسـمها بهـذا الحـدث " كمحمـد بـن أبي بكـر الصديـق، وعـروة بـن البيـاع المـصري، ومحمـد بـن أبي حذيفـة،

---

(1)البلاذري، المصدر نفسه، ج12، ص162.

(2)لقـد أوعـدت بالعقـر عجـل مطيتـي... وقـد علمـوا أن ليـس يفلـح عاقـره، انظـر القصيـدة التـي رد بهـا الأبـيرد عـلى ذلـك، البـلاذري، جمـل مـن أنسـاب الأشراف، ج12، ص 156.

(3)ذكـر العجـلي "شـبث بـن ربعـي مـن تميـم، كان أول مَـن أعـان عـلى قتـل عثـمان". العجـلي، تاريـخ الثقـات، ص 214.

(4)ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج3، ص 303.

وعمـير بـن ضابـئ، وحكيـم بـن جبلـة العبـدي، وكنانـة بـن بـشر، وعبـد الرحمـن بـن عديـس، وصعصعـة بـن صـوان، وعبـد الله بـن سـبأ، وزيـد بـن صوحـان، وكميـل بـن زيـاد، وكعـب بـن ذي الحبكـة، وجنـدب بـن زهـير، ومالـك بـن الحـارث الأشـتر النخعـي، وعـروة بـن الجعـد، وخالـد بـن ملجـم، والغافقـي بـن حـرب، وعبـد الله بـن بديـل، وعبـد الرحمـن بـن بديـل، وعمـرو بـن الجمـق "إلا أن ذلـك لا ينهـضُ دليـلًا عـلى أنـه كان أولهـم في التحريـض عـلى مقتـل عثـمان بـن عفـان[1].

هنـا يُطـرح السـؤال: كيـف لهـذا النـص أن يتوافـق إذًا مع هذه المواجهـات الدينيـة التـي سـيكون شـبث نفسـه طرفًـا فيهـا لاحقًا، فهـذا النـص الفائـق الخطـورة، والـذي يصفـه بأنـه مـن رؤوس الفتنـة، بـل ويحـدد أنـه أول مَـن أعـان عـلى قتـل عثـمان..... يضعنـا مبـاشرة أمـام تسـاؤلات صعبـة؛ لأنـه في حـال كان هـذا صحيحًـا فـإن ذلـك يجعـل كل مَـن اسـتخدم شـبثًا بعـد مقتـل الخليفـة عثـمان في موقـف صعـب، كيـف وهـم المطالبـون بـدم عثـمان (طلحـة والزبـير)، وكيـف وهـو أحـد قـادة (الخليفـة عـلي) المطَالـب الرئيـس لأخـذ القصـاص مـن قتلـة الخليفـة عثـمان! هنالـك إذًا ضرورة لفهـم السـياق التاريخـي لأسـباب مـرور هـذا الاتهـام بالنسـبة لشـبث تلـك الجريمـة التـي قـادت فيـما بعـد لأشـد معطيـات الفـوضى في دولـة الخلافـة الراشـدة... لمـاذا!!

ويبـدو أن ابـن حجـر كان مهتـمًّا بشـخص شـبث ؛ إذْ حـاول

(1)عثمان الذي يمثل سلطة الدولة في مواجهة معارضة تمثل سلطة الجماعة.

في كتابه (تقريب التهذيب) أن يرصد مختلف فترات حياته – وإن كان باختصار في النصوص؛ فذكر أن شبثًا أدرك الجاهلية، وأنه أسلم، ثم أصبح مؤذنًا لسجاح التميمية[1]، صحب عليًّا، ثم صار من الخوارج، ثم تاب، حضر قتل الحسين، طلب بدمه مع المختار الثقفي، ولي شرط الكوفة[2] وكان أحد رؤسائها[3]، وحضر قتل المختار، ومات بالكوفة[4]. ومضات وإن بدت شحيحة في ألفاظها ونصوصها إلا إنها موسعة في مضمونها الذي يشي بشخصية تاريخية فاعلة عبر تاريخها.

وربما تقود الملاحظة إلى أنه ومنذ صراع الفتنة سيتضخم دور شبث، ويتكثف حضوره في مشاهد كثيرة، يكون طرفًا فيها، لذا كان المؤرخون مدفوعون للبحث له عن سيرة ما قبل هذه الحوادث، تعالج الظهور والزخم الواضحين له في هذه المشاهد التاريخية المفصلية (الفتنة – صفين- مقتل الحسين).

لكن، واستنادًا لما هو مرصود، فالواقع يقول إن المعلومات التاريخية عن تطور الشخصية ظلت لا تناسب حراكها ودورها في الصراعات، قياسًا أيضًا بحضورها القوي في الأحداث اللاحقة.

---

(1)وقد أسلمت هي أيضًا أيام عمر بن الخطاب، فحسن إسلامها، ابن كثير، السيرة النبوية، 4ج، 97ص.

(2)البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، ج7، ص9.

(3)الدينوري، الأخبار الطوال، ص 229.

(4)ابن حجر، تقريب التهذيب، ج1، ص263؛ ج4، ص304.

شبث وسجاح

ترميز ومقابلة

لم يخلُ التاريخ الإسلامي من الحرص عند تناوله لشخصية مؤثرة أو صانعة لحدث ما بانتقاء واستعادة الخبر الذي يخدم ويبرز دور هذه الشخصية... يتعلق ذلك بشكل خاص بالشخصيات المحسوبة على معسكر الخير ومرتكزاتها التاريخية.

حيث كان المؤرخون أو الرواة يتعاملون مع هذه الروايات بحرص وحذر، لكن يبدو الأمر مختلف في حالة شبث، فأمام شبث لا نصوص أو روايات تتعلق بالنشأة أو البدايات الأولى وطفولته، أيضًا تم ربطه مبكرًا بشخصيةٍ نموذجيةٍ بالنسبة لصناعة الشر (سجاح التميمية) التي قدمت نفسها هي الأخرى في الوسط القبلي من باب الدين (ادعاء النبوة)، حيث يقول البلاذري: "يقال إن شبثًا كان مؤذنًا لسجاح قبل رسوخه فِي الإسلام[1]" فهل كان الربط يوحي بأنَّ ثمَّة تشابهًا في المصالح والدوافع والأهداف سيقوم بين الطرفين؟

ربما في هذا المستوى تحديدًا يتكشف الظهور الأكثر إثارة لشبث في سياق مسببات القدرة على الفعل السياسي، فسجاح زوجة مسيلمة (كذاب ربيعة الذي لم يكتفِ بتقديم نفسه من باب النبوة، بل وأيضًا كقائد حربي) هو أحد رموز الشر المطلق في الرواية التاريخية الإسلامية - وفي واقع الحال

(1) البَلاذُري، جمل من أنساب الأشراف، ج12، ص 162.

تبدو مقابلة ارتباط صورة (شبث) بصورة سجاح من قبيل المقابلة الذاتية للشخصيتين، (ترميز تاريخي مغلف)، تظهر من خلالها محاولة لتسجيل عملية توافق بين الشخصيتين. فالرواية المرتبطة بذهن القارئ ستفترض حتمًا أن مَن سيقف مع سجاح هو طرف مغاير للحق ناقد للعهد متسم بالشر ومنحاز له؛ لذلك لم تأخذ الرواية هنا زاوية المبررات المنطقية وبقايا البنى التّقليديّة للاصطفاف القبلي، تلك التي يمكن فهمها منطقيا أو واقعيًّا من قبل شبث؛ إذ أن شبث من بني تميم (أبناء عمومة)[1] وأحد زعمائها، بما تتيحه هذه الحركية من امتداد نخبوي منسوج لتاريخ الآباء والأجداد غير البعيد، هناك أيضًا معطى آخر يتصل بمحاولة شبث (مثله مثل كثير من الزعامات القبلية في هذا الوقت) بالتحرر السياسي والاستقلال عن سلطة مركزية رأى أنها اهتزت بموت الرسول - ونقصد بها سلطة دولة المدينة وخلافة أبي بكر - وما أحاط بها في البدايات الأولى من ارتداد قبلي واسع النطاق، فشبث في هذه المرحلة - ومع طبيعة التكوين الفكري والثقافي لمثل هذه القيادات القبيلة - كان عليه تسويق نفسه سياسيًّا، وربما أيضًا تطوير مواقفه مما يجري من أحداث تعيد رسم وجه الجزيرة العربية من جديد.

---

(1) بنو رياح: كان منهم شبث بن ربعي بن حصين بن عميم بن ربيعة بن زيد ابن رياح كما يذكر ابن خلدون في: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومَن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، م2، ج2، ص379.

حتى وإن بدا لنا أن شبثًا هنا لم يكن يفكر بمنطلق أعلى من كونه زعيمًا قبليًّا داخل قبيلته وسيدًا من أسيادها، فالسؤال المطروح هل بعد ارتداد تميم وكثير من القبائل الأخرى في الجزيرة العربية كان من المقبول أن يفوت شبث على نفسه فرصة إعادة التموقع بوصفه زعامة فاعلة في عملية التغيير السياسي التي جرت على مستوى القبيلة حتى وإن اقترنت بمحدد أقوى زخمًا وحراكًا منه وهو سجاح ابنة عمومته؟

لا نرى طريقًا لتبرير موقف شبث دون اعتبار طبيعة تناحر المصالح وواقعه الذي اكتسى به الصراع في هذه الفترة، وظاهرة "عودة القبيلة" إلى حقل الفعل السياسي والاجتماعي، والتي استطاعت أن تكون لنفسها رافدًا قويًّا ومتناغمًا مع بقية المحددات الأخرى التي صاغتها ظروف الارتباك السياسي الحاصل بعد وفاة الرسول ﷺ. ولاسيما أن وفاة الرسول ﷺ طرحت وعلى نحو مباشر على الجميع حقيقة ربما كانت غائبة، وهي مسألة الحفاظ على الدين والدولة تلك المسألة التي لو تم تجاهلها، فلربما اندثر كل شيء.

كذلك لا يمكن فهم هذا الموقف سوى في سياق النظر إلى سلطة سجاح التميمية، التي كانت تمثل بالنسبة لشبث غطاءً مقنعًا بالنسبة له وللكثيرين من أمثاله، غطاء يختفي خلفه (وهم) استنساخ مشروع المدينة النبوية الناجح - نبوة ومن ثَمَّ سلطة، مشاريع توسعية وفتوحات، سلطات، أكبر ومزيد من القدرة على الفعل والتغيير السياسي.

إن هــذه المرحلــة الانتقاليــة بالــذات، ربــما تكــون بــدت لشــبث أحــد الثغــرات والفــرص المثاليــة التــي يمكــن النفــاذ منهــا سياســيًّا، وذلــك عــبر تســويق زعامتــه والالتحــاق بتجربــة دينيــة منطلقــة مــن قبيلتــه نفســها، فســجاح هــي الانبعــاث الجديــد وتجربــة التدويــر القبــلي لرمزيــة المدينــة ومكــة اللتــين احتضنتــا العهــد النبــوي، وبمــوت الرســول ﷺ كان عــلى الســاعين لســلطة اتخــاذ الخطــوات نفســها إن أرادوا استنســاخ ســلطة كســلطة المدينــة الناجحــة وتوظيــف هــذا المعطــى عــلى ضــوء مــا تــمّ صياغتــه فيهــا.

بــل ويبــدو للمراقــب أن تمظهــرات الحــراك في الخطــاب والمواقــف والــذي اتخــذ لبوســات عديــدة، مارســتها كثــير مــن القيــادات والزعامــات القبليــة كانــت تســير هــي الأخــرى في نفــس الاتجــاه، حتــى إن مقولــة كمقولــة "كــذاب ربيعــة أحــب إلينــا مــن صــادق مــضر[1]" نفســها، وعــلى الرغــم مــن ورودهــا بتوســع في بعــض الروايــات، ومحاولــة ربطهــا وفهمهــا تاريخيًّــا في الســياق القبــلي، لا تخــرج عــن كونهــا شــكلًا مــن أشــكال التغييــب التاريخــي لبراجماتيــة النــص، تغييــب غايتــه تجــاوز الواقــع والمنطق،

(1)عــن عمــير بــن طلحــة النمــري، عــن أبيــه، أنــه جــاء اليمامــة، فقــال: أيــن مســيلمة؟ قالــوا: مــه رســول الله! فقــال: لا، حتــى أراه، فلــما جــاءه، قــال: أنــت مســيلمة؟ قــال: نعــم، قــال: مَــن يأتيــك؟ قــال: رحمــن، قــال: أفي نــور أم في ظلمــة؟ فقــال: في ظلمــة، فقــال: أشــهد أنــك كــذاب وأن محمدًا صــادق، ولكــن كــذاب ربيعــة أحــب إلينــا مــن صــادق مــضر، فقتــل معــه يــوم عقربــاء. انظــر: الطــبري، تاريــخ الرســل والملــوك، ج3، ص 286.

فكاذب ربيعة أو نموذج (مسيلمة بتعبير أدق) لو نجح – في أي قبيلة أو منطقة – فإن ذلك سيعود على قبيلته بمكاسب مادية وسياسية واسعة، في المقابل، فإن صادق مضر بمقاييس الربح والخسارة (القبيلة) هو لمضر لا ربيعة.

إن محاولة فهم لماذا لجأ شبث لدعم سجاح التميمية وارتباطه بها، بل وكان كما يرد في الروايات والنصوص "مؤذنًا لها" كما جاء في رواية الطبري من أن مسيلمة قال لها: "مَن مؤذنك؟ قالت: شبث بن ربعي، قال: عليَّ به، فجاء فقال: نادِ في أصحابك أن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد: صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر".

سياق لا يمكن فصله عن حقيقة معطى قائم وهو أن شبثًا كان يعي أن سجاحًا في تلك الفترة هي المشروع المناسب القادر على منحه – وفي ظل هذا الزخم الهائل من القيادات والشخصيات والزعامات الدينية والقبلية – غطاءً سياسيًّا يستطيع به الاستمرار في طبيعة وضعه المستمد من نخبويتيه[1] (ابن لسيد قومه)[2] ولاسيما اجتماع جزء كبير من قبائل تميم على أمر سجاح كما يشير أبو المعالي البغدادي[3]،

(1) فالحفاظ على هذا الوضع النخبويِّ لاشك مرتبط بأن يدور في فلك سلطة معينة (سياسية أودينية).

(2) الدينوري، المعارف، ط2، ج1، ص 405.

(3) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ج7، ص349.

فتموقع شبث في هذا الدور البارز سيشكل له وفي أية فرصة لاحقه أرضية يمكن الاستناد إليها، بل وعلى أسوأ الظروف وإن تعذر تحديد المنافع والمصالح، فإن ارتباطه بسجاح من شأنه أن يضعه في مشهد مؤثر وقريب من دوائر صناعة القرار والمشاركة فيها، وهو تكَيُّف إن جرت قراءته بمنأى عن التأويل الديني يبدو لنا تَكَيُّفًا مقبولًا، تَكَيُفًا يعكس قدرة على التأقلم والبناء اعتمادًا على خبرة في نسج شبكة تحالفات وخلق الفرص.

(الاهتياج التاريخي)

للصراع على السلطة

لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نغفل أثر التكوينات القبلية التي شكّلت ثقافة كثير من الزعماء القبليين منذ ظهور الإسلام وبعده، فلقد قادت الأوضاع الملتهبة- التي تعززت بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان، واستمرت طوال ولاية الخليفة علي، أن أصبح الصراع على السلطة مؤثرًا وحاكمًا في الأحداث والمواقف وبقية الهياكل الأخرى، فمع أفول العهد النبوي بوفاة الرسول ﷺ، وبدء القيادات القبلية بالبحث عن سلطة سياسية/ دينية تعوض فقد نموذجها المثالي، وفي ظل السعي للمحافظة على المواقع النخبوية للبعض، كان يمكن بسهولة إدراك أن هذا التحول لن يكتمل إلا إذا دار بالضرورة في فلك سلطة مركزية قوية، بل لم يكن الخليفة الأول والخليفة الثاني أبو بكر وعمر[1] يجهلان التململ الكامن بين هذه القيادات القبلية والصراعات التي اتخذت منحًى سياسيًّا/ قبليًّا مرات عديدة، خصوصًا أن القبيلة في هذه المرحلة استطاعت الحفاظ على كيانها كبنية مؤثرة في تأطير الأفراد والجماعات المنتمية لها لاسيما في مناطق الصراع، فقد كرَّست تلك التجاذبات هذا النمط، وقادت إليه على نحو متسارع، فعلى الرغم من أن شيئًا لم يظهر كمشارك في معارك

---

(1) رغم مرحلة الهدوء في خلافة أبي بكر - باستثناء حروب الردة التي أخمدها.

الفتوحات، ولا الصراعات التي جرت بعد وفاة الرسول، ولم يظهر تاريخيًّا بدور مؤثر باستثناء ما قام به في محيط سجاح، إلا إن المتمعن في تطور الحراك للشخصية يستطيع أن يستشف أنها كانت ترى في التمترس حول قبليتها وعصبيتها ملاذًا آمنًا لاستمرار الزعامة التي ورثتها في قومها، حيث نتبين من خلال إحدى الروايات التي ذكرها (المزي) كيف كانت ردة فعله على الوليد بن عقبة لما حيل بين عَبْد الرَّحْمَنِ بْن حُبَيْشٍ الأَسَدِيّ، قائد شُرْطَةِ الوليد وبين المتهم بقتل أحد السحرة، تقول الرواية: "قَامَ مِخْنَفُ بْنُ سُلَيْم فِي رِجَالٍ مِنَ الأَزْدِ، فَقَالُوا: أَيُقْتَلُ صَاحِبُنَا بِعِلْجِ سَاحِرٍ، لاَ يَكُونُ هَذَا، حينها قال الْوَلِيدُ: عَلَيَّ بِمُضَرَ؛ ليعاجله شَبَثُ بالقول: "لم تدعُ مضر! تُرِيدُ أَنْ تَسْتَعِينَ بمضر على قوم منعوا أخاهم منك أن تقتله بعلج ساحر كافر من أهل السَّواد! لا تجيبك والله مضر إلى الباطل، ولا إلى ما لا يحل!"[1]. ردة فعل عصبية بامتياز من قيادة قبلية لازالت ترى نفسها في موقف الزعامة حتى وإن جرى تهميشها وتحييد طبيعة دورها السياسي.

كذلك ربما يكون النص الواصل لنا بواسطة سيف بن عمر في كتابه (الفتنة ووقعة الجمل)، من أقدم النصوص التي أشارت لدور شبث في الصراع بعد مقتل عثمان، إذْ يرد "أن أحدهم أقبل ووقف بباب المسجد، ومعه كتابان من عائشة رضي الله عنها، حيث كان رد أحدهم لما تليت الكُتب بالقول:

(1)المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ج5، ص146.

"أمـرت أن تقـر في بيتهـا، وأمرنـا أن نقاتـل حتـى لا تكـون فتنـة، فأمرتنـا بـما أمـرت وركبـت مـا أمرنـا". حينهـا قـام إليـه شـبث بـن ربعـي قائـلًا: يـا عـماني مـا أمـرت إلا بـما أمـر الله[1].

إن هــذا التحــول السريــع في موقــف شــبث، والــذي كان ســابقًا ضــد سياســات عثــمان وولاتــه، وليصبــح لاحقًــا مــع السيدة عائشــة، لا يمكــن فهــم طبيعــة تطــوره مــن خــلال الدوافع الدينيــة المجــردة التــي لا يمكــن تحقيقهــا أو الحصــول بواســطتها عــلى فائــدة فوريــة بــأرض الواقــع، بــل إن مخاطبــة شــبث للعــماني الــذي رد عــلى كتــابي عائشــة لم يكــن منفصــلًا عــن واقــع الخطــاب العــام المــبرر لهــذه التوجهــات الجديــدة للكثــير مــن القبائــل والزعامــات تلــك التــي أصبحــت تــرى في الفتنــة فرصــة مناســبة للــبروز مــن جديــد، وشــبث بــما لديــه مــن رصيــد ســياسي لــن يكــون منفصــلًا عــما يجــري مــن أحــداث. فرؤيتــه لهــذا التحالــف القائــم بــين عائشــة وطلحــة والزبــير بالإضافــة لمعاويــة القــوي في بــلاد الشــام. وهــذا الزخــم والاحتشــاد العصبــي والقبــلي والدينــي والســياسي وتمثيلاتــه التطبيقيــة والنفعيــة التــي لا تنفصــل عــن هــذا الــصراع، كل هــذا جعلــه يــدرك ضرورة صياغــة توجــه جديــد لهــذه المرحلــة.

(1) سيف بن عمر الأسدي التَّمِيمي، الفتنة ووقعة الجمل، ص141.

وعليه بعد هزيمة طلحة والزبير في الجمل[1] لم يكن من المستغرب أن ينضم شبث للمعسكر المنتصر، وحين بروز دوره في مناوشات صفين[2] هو يمثل أحد المبعوثين الذين كلفهم علي بن أبي طالب[3]، بالتوجه إلى معاوية بن أبي سفيان؛ إذْ يقول الطبري: "أن عليًّا دعا شبثًا مع آخرين؛ للذهاب لمعاوية ودعوته للطاعة"، هنا تحديدًا تظهر المصادر – وبدون قصد من أصحابها- درجة عالية من البراجماتية السياسية التي ميزت شبثًا؛ إذْ يجيب شبث الخليفة علي قائلًا:"يا أمير المؤمنين، ألا تطمعه في سلطان توليه إياه، ومنزلة يكون له بها أثرة عندك إن بايعك[4]؟

هكذا إذن تلجأ النخب السياسية لتهدئة الصراع عبر ممر المصالح (الصراع المتوازن)، ففي سعيه لإرساء عنوان نموذجي لتنهيج طبيعة دوره البراجماتي الذي يتحرك من خلاله أدرك شبث أنه وفي ظل مستوى التحولات السياسية

---

(1) يرى البعض أن شبثًا كان مع علي في الجمل، وهو قول يتعارض ويتصادم مع كثير من النصوص التي لا تثبت له دورًا في معركة الجمل والمشاركة العسكرية فيها؛ إذْ يقول البري: "شَهدَ جدُّهُ شبث مع عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الجمل وصفِّينَ ثم فارقه حين التَّحكيم". انظر الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة، البُرِّي، ص 177.

(2) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج4، ص 573- ج5، ص5.

(3) ابن أعثم الكوفي، الفتوح ج3، ص5/ 20.

(4) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج 4، ص 573، أيضًا، ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص 636.

الخطـيرة التـي تجـري، فـإن ذلـك يسـتدعي ضرورة ربـط الحلـول والمسـاومات التـي تقـدم بتطبيقـات عمليـة، تطبيقـات يـرى معهـا أن الذهــاب لمعاويــة ودعوتــه بالدخــول في الطاعــة دون مزايـا وعـروض أمـر غـير مقبـول منطقيًّـا، وعليـه فلابـد مـن جعـل المفاوضـات التـي سـيكون هـو طرفًـا أصيـلًا فيهـا مخلوطـة بمصالـح ترتقـي لمسـتوى القبـول والإقنـاع.

ترصـد المصـادر لقـاء شـبث العاصـف مـع معاويـة الـذي "تكلـم متهـمًا فيـه معاويـة...، لـيرد الأخـير... واصفًـا إيـاه بالأعـرابي الجلـف الجـاف... ومـن ثَـمَّ يـصرف الوفـد في موقـف هـو أقـرب للطـرد؛ إذْ يخـرج شـبث مهـددًا ومتوعـدًا بالقـول: "أقسـم بـالله ليعجلـن بهـا إليـك"[1] وفي روايـة لابـن أعثـم الكـوفي يقـول شـبث: "يـا معاويـة! لقـد أتينـاك فيـما يصلحنـا وإيـاك، فـصرت تـضرب لنـا الأمثـال التـي لا ينتفـع بهـا أحـد".

إن المفارقـة هنـا ليسـت في وصـف شـبث بأنـه أعـرابي جلـف مـن قبـل معاويـة، فبعـد روايـة ابـن عسـاكر لشـبث مـع أُمِّ سَـلَمَةَ

---

(1) الطـبري، تاريـخ الرسـل والملـوك، ج4، ص 575، وربـما مـن الجديـر بالذكـر هنـا أن نـورد النـص الـذي رد بـه معاويـة عـلى رسـل عـليٍّ بـن أبي طالـب؛ إذْ جـاء عنـد الطـبري أن معاويـة قال: "أمـا الطاعـة لصاحبكم فإنـا لا نراهـا، إن صاحبكـم قتـل خليفتنـا، وفـرق جماعتنـا، وآوى ثأرنـا وقتلتنـا، وصاحبكـم يزعـم أنـه لم يقتلـه، فنحـن لا نـرد ذلـك عليـه، أرأيتـم قتلـة صاحبنـا؟ ألسـتم تعلمـون أنهـم أصحـاب صاحبكـم؟ فليدفعهـم إلينـا، فلنقتلهـم بـه، ثـم نحـن نجيبكـم إلى الطاعـة والجماعـة". الطـبري، تاريـخ الرسـل والملـوك، ج5، ص 5.

زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ ووصفه بأنه "جلف جاف"، يأتي نفس الوصف أيضًا عند الطبري بأنه "أعرابي جلف".

تتمثل المفارقة في أن شبثًا الذي جعلته المصادر ناطقًا باسم الخليفة علي، مع كل الدور الذي حظي به في هذه المرحلة، أصبح يتكلم بمستوى عالٍ من الواقعية والنفعية السياسية، ففي رواية ابن أعثم الكوفي كان جوابه: "أتيناك فيما يصلحنا وإياك، فصرت تضرب لنا الأمثال التي لا ينتفع بها أحد". وفي رواية أكثر حدة وتأخر ترد عند ابن خلدون يُرى فيها تلميح يرقى ليكون اتهام صريحًا من شبث لمعاوية بأنه أبطأ المسير لنجدة عثمان بن عفان؛ إذْ يقول: "يا معاوية إنما طلبت دم عثمان تستميل به هؤلاء السفهاء العظام إلى طاعتك، ولقد علمنا أنك أبطأت على عثمان بالنصر لطلب هذه المنزلة فاتق الله ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله. فأجابه معاوية... انصرفوا فليس بيني وبينكم إلّا السيف"[1] ونستكمل بقية المشهد من خلال ما رواه الطبري من قول شبث لمعاوية: "أقسم بالله ليعجلن بها إليك"، لا صعوبة في أن نلحظ المشهد الحاد والارتفاع في سقف الاتهام بين الطرفين، والحسم في التكاتف مع الخليفة عليٍّ وتأييده لأبعد مدى، والذي يتمثل في الاقتتال.

---

(1) تاريخ ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومَن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، أمر صفين، الجزء 2، ص 627.

إن المنطقية والواقعية العالية التي تميز بها النصف الأول من رواية الطبري والتي قدم فيها شبث ممارسة سياسية مقبولة، وسعى من خلالها إلى تغليب العقلانية والواقع على لغة المثالية وشعوره بضرورة أن تكون هناك عروض ومكاسب نفعية من قبل الخليفة علي لمعاوية... نراها تنتهي على نحو حادٍّ بقسم تأكيدي للحرب.

ولكي نفهم الفرق بين هذا التناقض وبين ما طرحه شبث على الخليفة علي من وجوب تقديم عروض، وبين ما نفذه على أرض الواقع نسجل الآتي:

في الحالة الأولى (ونقصد رواية الطبري) يقدم شبث استشارة لعلها تنفع القيادة السياسية، ولكن حين رفضت القيادة السياسية ذلك، وأرادت أن تقدم صورة حازمة، وإظهارًا لقوتها كسلطة مركزية؛ اندفع شبث من نفس منطلق السلطة ليمثل في رده على معاوية وتهديده بالحرب رؤية السلطة ذاتها، ولا غرو في أن هذا الموقف الذي يعكس موقف السلطة نفسها؛ إذْ عبر شبث بأنه قادر على امتلاك نفس تصورها وتمثيلها أفضل تمثيل.

(بعد صفين)

تمرد بطعم الانتصار!!

بعـد الأحـداث المتسـارعة والتداعيـات "المأسـاوية"، التـي شـهدتها الأمـة في الملحمـة الكـبرى التـي مثلتهـا معركـة صفـين[1] ومـع غيـاب نـصر حاسـم لطـرف عـلى الآخـر[2] أسـهم هذا بشـكل مبـاشر في جعـل التحـولات لاحقًـا لصالـح ظهـور مـد سـياسي اقتصـادي اجتماعـي، فمـع ظهـور عوامـل تبـدل في المصالـح المتناميـة الجديـدة لـكل الأطـراف، وتشـكل فئـات العقائديـين الجـدد (الخـوارج) قبـل حتـى أن يبـدأ التحكيـم، يُضَـاف إلى كل

(1) كان القتـال عـلى شـكل كتائـب صغـيرة، وكان أغلـب مَـن يخـرج مـن أمـراء الكتائـب في جيـش عـليٍّ: الأشـتر النخعـي، وحجـر بـن عـدي، وهاشـم بـن عتبـة، وشـبث بـن ربعـي، وخالـد بـن المعتمـر، ومعقـل بـن يسـار الرياحـي، في المقابـل مـن جيـش معاويـة كان هنـاك حبيـب بـن مسـلمة، وشرحبيـل بـن السـمط، وعبـد الرحمـن بـن خالـد بـن الوليـد، وأبـو الأعـور السـلمي، وهكـذا كانـت البدايـات الأولى للمعركـة، التـي يمكـن أن نطلـق عليهـا اسـتعراض القـوة قبـل الاشـتباك الـكلي.

(2) يذكـر ابـن أعثـم "دعـا عـليٌّ بشـبث بـن ربعـي الرياحـي وصعصعـة بـن صوحـان العبـدي فقـال لهـما: انطلقـا إلى معاويـة فقـولا لـه: إن خيلـك قـد حالـت بيننـا وبـين المـاء، فـإن شـئت فخـلّ عـن المـاء حتـى نسـتوي فيـه نحـن وأنـت، وإن شـئت قاتلنـاك عليـه حتـى يكـون لمـن غلـب وتركنـا مـا جئنـا لـه مـن الحرب،أقبـل شـبث فقـال: يـا معاويـة! إنـك لسـت بأحـق بهـذا المـاء منـا فخـلِّ عـن المـاء، فإننـا لا نمـوت عطشـا وسـيوفنا عـلى عواتقنـا– ابـن أعثـم الكـوفي، الفتـوح، ج3، ص 5.

هـذا أصحـاب المصالـح التقليديـون. في خضـم كل هـذه التحولات كان مـن المحتـم أن تختلـط الأوراق بـل وتتداخـل الحـدود.

أمـا شـبث فقـد كان مضطـرًّا هـو الأخـر لإعـادة تقييـم طبيعـة وضعـه ودورة الجديـد، فمـن خـلال النظـر إلى النتائـج العمليـة الموجـودة بعـد المعركـة، (التـي سنسـتعرض لاحقًـا وعـلى نحـوٍ موسـع بعضًـا مـن تفاصيلهـا)، إلا أن مـا يعنينـا هنـا هـو التأكيـد عـلى أن شـبثًا قـد أعلـن عـن موقفـة مبكـرًا بعـد وقـف القتـال... أنـه... ضـد الخليفـة عـلي.

ويبـدو أن المصالـح المشـتركة لشـبث – والتـي سـبق وأن ولَّدها انتصـار الخليفـة عـلي في الجمـل – ومـن ثـم ومـع غيابهـا بعـد صفين التـي خـرج منهـا الخليفـة بواقـع أقـرب للخسـارة ربـما تكـون قـد قلَّصـت المصالـح المشـتركة بـين الطرفـين وبددتهـا، حيـث يـرد عنـد ابـن خيـاط(ت240 هــ) أنـه بعـد المعركـة "خرج أهـل حـروراء فِي عشْريـن ألفًـا عَلَيْهِـم شـبث بـن ربعـي... وأن شـبث فيـما بعـد كان يقـول متفاخـرًا " أَنـا أول مـن حـرر الحروريـة"[1] .

تـشي هـذه الحادثـة عـلى نحـوٍ واضـح باسـتنفاذ شـبث لـدورة مـع الخليفـة عـلي بعـد صفـين، التـي لم يقـر فيهـا واقـع جديـد

---

(1)خليفـة بـن خيـاط، تاريـخ خليفـة بـن خيـاط،، تحقيـق د. أكـرم ضيـاء العمــري، دار القلـم، مؤسسـة الرسـالة، دمشـق، ط2، 1397 هــ، ص192، والحروريـة هـم فئـة مـن الخـوارج سـمُّوا بالحروريـة نسـبة إلى حـروراء وهـي قريـة مـن قـرى الكوفـة وهـي البلـد التـي اجتمـع الخـوارج فيهـا أول أمرهـم.

سـوى تفـكك وضبابيـة المشـهد بالنسـبة للإمـام عـليٍّ وشـيعته (وهـو أمـر لم يتناسـب مـع طمـوح شـبث في هـذه المرحلـة).

فمـع أول بـروز لـدور جديـد مـن خـلال تيـار سـياسي عقائـدي يتمثـل في الخـوارج أو الحروريـة - مـا المانـع- أمـام شـبث؟ خصوصًـا وقـد ظهـر أن البنيـات التقليديـة (القبيلـة والعصبيـة) لا زالـت مؤثـرًا فاعـلًا في وجهـة الحـوادث وتبدلهـا مـن طـرف لآخـر، إنـه اتفـاق منطقـي لطبيعـة الشـخصية التـي تصنـع قيمتهـا السياسـية مـن خـلال قدرتهـا عـلى الفعـل وإنتـاج التغيـير. فشـبث وكـما يـورد الطـبري بعـد النـزول بحـروراء وجـد نفسـه عـلى إثنـي عـشر ألفًـا يأتمـرون بأمـره[1]، ومـع سـابق علـم شـبث بمـدى تهالـك جيـش الخليفـة عـلي والصراعـات التـي تـدور داخلـه والانشـقاقات التـي طالتـه، إضافـةً لواقـع الأمـة الممزقـة بـين شـام وعـراق (كوفـة ودمشـق) فالتحـول إلى فريـق آخـر لـن يكـون - مـن وجهـة نظـره - معيبًـا في ظـل تطـورات متلاحقـة بـدت لـه متسـقة مـع الأفـق الـذي يرجـوه.

وإن تمـت مقارنـة هـذا الواقـع السـياسي الجديـد المتشـكِّل بعد معركـة صفـين فالكفـة سـتميل حتـمًا جهـة اختيـاره الاسـتمرار في الخـروج بهـذا الجيـش الكبـير، لكـن... ومـع تنامـي أنبـاء تفيـد ببحـث (الخـوارج) عـن قائـد جديـد وترددهـم بـين "سـعد بـن وائـل التميمـي" وعَبْـد الله بْـن وهـب الراسـبي[2]، وفي ظـل

(1)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص 63.
(2)ابن حبان، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، ج2، ص545.

رهـان غـير مضمـون بالبقـاء مـع الخـوارج[1] فـإن شـبث ربـما يكـون تراسـل وتفـاوض مـع الخليفـة عـليٍّ للعـودة مـن جديـد

(1) والقصة كما أشار لها ابن حبان في كتابة السيرة النبوية وأخبار الخلفاء وردت على النحو التالي" انصرف عليٌّ بمن معه من أهل العراق، وانصرف معاوية بمن معه إلى الشام، فقال عبد الله بن وهب الحرمي – وكان من أصحاب عليٍّ: لا حكم إلا لله، فقال عليٌّ: هذه كلمة حق أُريد بها باطل. فلما دخل عليٌّ الكوفة خرج من كان يقول: لا حكم إلا لله، ونزلوا بحروراء، وهم قريب من اثني عشر ألفًا، فسموا الحرورية، ومناديهم ينادي: أمير القتال شبث بن ربعي التميمي، والأمر بعد الفتح شورى، والبيعة لله. .فخرج عليٌّ من صفين، وولى عليٌّ سهل بن حنيف فارس، فأخرجه أهل فارس، فوجه زيادًا فرضوا وصالحوه وأدوا إليه الخراج. ثم إن الخوارج اجتمعت على زيد بن حصين وقالوا له: أنت سيدنا وشيخنا وعامل عمر بن الخطاب على الكوفة، تول أمرنا، وجهروا به فقال: ما كنت لأفعلها، فلما أبى عليهم ذلك ذهبوا إلى يزيد بن عاصم المحاربي فعرضوا عليه أمرهم فأبى عليهم ذلك، ثم ذهبوا إلى سعد بن وائل التميمي فأبى عليهم، فأتوا عبد الله بن وهب الراسبي واجتمعوا عنده بقرب النهروان، وخرج إليهم عليٌّ في جمعية، فلما أتاهم حمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنكم أيها القوم قد علمتم وعلم الله أني كنت للحكومة كارها حتى أشرتم عليّ بها وغلبتموني عليها والله بيني وبينكم شهيد! ثم كتبنا بيننا وبينهم كتابا وأنتم على ذلك من الشاهدين، فقالت طائفة من القوم: صدقت- ورجعوا إلى الجماعة، وبقيت طائفة منهم على قولهم، فقال عليٌّ: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾، [سورة الكهف، 103/ 104] منهم أهل النهروان ورب الكعبة" –ابن حبان، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، ج2، ص545 – 546.

(وإن غابت الدلائل التاريخية أو شواهدها في مصادر التاريخ)، ويغلب على الظن أنه وُعِدَ بمنصب قيادي أعلى مما كان عليه في صفين. لاسيما أن هناك سابقة بالفعل (للمفاوضة)، حيث ذكر الطبري أن علي ابن أبي طالب أرسل وفدًا لمحاولة إثناء شبث والخوارج حيث يرد " أن شبث بن ربعي وابن الكواء كانا واقفان متوركان على دابتيهما، وعندهما رسل علي وهم يناشدونهما الله لما رجعا بالناس[1]".

حتى الآن هذا ما كان ثابتًا لشبث وهو أن قيادته للخوارج أصبحت غير مضمونة، ودون هذا لا يمكننا فهم تراجعه من جديد وعودته لمعسكر الخليفة علي. تراجع منطقي ليس بمعزل عن مسيرة التحالفات التي كانت تجري سواءً على مستوى جبهة الخليفة علي ومحاولة لململة شتات جيشه، أو على مستوى جبهة الشام ومحاولة معاوية الاستئثار بمزيد من الفاعلين السياسيين، لاسيما وهو يستمد قوة وجوده في الشام من فاعلية هذه القيادات القبلية المنضوية تحت فلك سلطته لاسيما وأن معاوية ومن معه يلتقيان في نظرتهم لما حدث للخليفة عثمان بن عفان، وهو ما أتاح لمعاوية فرصة إضافية لمحاولة إيجاد معادل موضوعي لأخطر أطراف المعادلة وهو المعادل القبلي/ العصبي في هذا الوقت.

فمع الإشارات الواردة الدالة على تصميم الخليفة عليٍّ على قتال الخوارج كان استمرار شبث ووجوده في معسكر

(1)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري (ج5 / 91ص).

الخوارج ستجعله حتمًا هدفًا مؤكدًا لسيوف الخليفة إن استمر على موقفه، لذلك تكون عودة شبث قرارًا مستندًا لأسس منطقية ونفعية، قرار يعود به إلى موقع أكثر قربًا من الخليفة حيث تم بالفعل[1] تنصيبه قائدًا لميسرة جيش الإمام.

ومن ثم – هنا تحديدًا– كان على شبث إثبات أنه يستحق موقعه الجديد، حيث انطلق مقاتلًا الخوارج – الذين كان حتى وقت قريب – أميرًا عليهم ومن كبار قادتهم ومؤسسي حركتهم[2]، بل وعلى نحو لافت يثير الانتباه شارك بنفسه في قتل عبدالله الراسبي قائدهم، كما يشير البلاذري حيث يقول: "إن شبث بن ربعي شارك في قتله (ويقصد عبد الله بن وهب الراسبي)، وكان شبث على ميسرة علي، وكان فيمن رجع عن التحكيم بعد محاججَة ابن عباس المحكمة"[3].

في ظل غموض متوقع، بعد مقتل الخليفة عليٍّ أواخر العام 40 هـ، طويت آخر صفحة في الحكم والرئاسة لعصر الخلفاء الراشدين (المغتال منهم ثلاثة من إجمالي أربعة)، ومع قدرة معاوية على فرض الاستقرار، وبعد أن غيب الموت أو القتل كثيرًا من الخصوم السياسيين والقيادات والزعامات القبلية كـ" حجر بن عدي الكندي وعمرو

(1)بعد التراجع عن موقفه.

(2)للمزيد انظر: ابن خياط، تاريخ خليفة، ص-192 كذلك: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج11، ص-665 العجلي، الثقات، ص214.

(3)البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، ج2، ص 362.

بـن الحمـق الخزاعـي، ومالـك الأشـتر وسـعد بـن أبي وقـاص وغيرهـم، وبتقلـص الممارسـات العنيفـة إبـان حكـم معاويـة ومـع غيـاب أيـة أخبـار أو مشـاهد مؤثـرة لشـبث باسـتثناء مـا ذكـره البـلاذري "حمـل زيـاد حجـرًا وأصحابـه إلى معاويـة في السلاسـل عـلى جمـال اكتراهـا لهـم صعابًـا، ووجـه معهـم شـبث بـن ربعـي الرياحـي[1]"، يمكـن القـول أن شـبث وَالَى معاويـة وخضـع لـه، وأنـه مـع الاسـتقرار السـياسي الموسَّـع الـذي شـهدته الدولـة الإسـلامية، لم تسـتطع الشـخصيات القبليـة مـن أمثـال شـبث أن تشـكل تهديـدًا حقيقيًّـا للسـلطة - القويـة- بعـد أن عمـل معاويـة عـلى فـرض نفسـه خليفـة وتنازل الحسـن 41هــ عن الخلافـة. كل ذلـك دعـم تقليـص إمكانيـة الحركـة لهـذه الشـخصيات لتتوجـه فقـط نحـو خلـق فـرص ترقـي اجتماعـي والاسـتحواذ عـلى المزيـد مـن المغانـم النفعيـة لهـا ولمنظومتهـا، بـل إنـه ومـع روايـة وحيـدة لشـبث في عهـد معاويـة يمكـن ملاحظـة المرونـة العاليـة لـه في العمـل مـع السـلطة الجديـدة[2]، معاويـة الـذي وقـف شـبث مـن قبـل مهـددًا ومتوعـدًا لـه بالحـرب، لكـن معاويـة اليـوم هـو الخليفـة هـو مـن يأتمـر بأمـره كثـير مـن الشـخصيات والقيـادات التـي كانـت محسـوبة مـن قبـل عـلى معسـكر الخليفـة وإدماجهـا وصهرهـا في بوتقـة الدولـة.

---

(1)البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، ج5، ص 256.

(2)أي الممثلة في معاوية.

لا أظـن أننـا بحاجـة للقـول بـأن موقـف شـبث في هـذه المرحلـة أيضًـا (متوقعًـا)، خاصـة وأن الإعـلان عنـه ارتبـط بالتغـيرات التـي عصفـت بأغلـب القيـادات والشـخصيات والرمـوز الدينيـة التـي كانـت مـن قبـل مـع الخليفـة عـلي، لكـن بعـد حادثـة اغتيـال الأخـير وتنـازل الابـن الحسـن، فهـل سـيؤمِّن الاسـتمرار في الموقـف القديـم مـن معاويـة لـه أيـة مكاسـب؟ بـل هـل الاسـتمرار في معـاداة معاويـة سـيؤمن لشـبث حياتـه نفسـها؟

صراع اعتيادي

قتال الحسين ...

طلب الثأر للحسين!!!!!

عقب وفاة معاوية بن أبي سفيان وتولى ابنه يزيد الخلافة، أظهرت شخصيات إسلامية مهمة رفضها لعملية التوريث التي جرت وأعلن بعضها عدم الإقرار بخلافته، أيضًا أخذ كثير من الزعامات القبلية في العراق يكتبون للحسين ويدعونه للقدوم مؤكدين "أنهم حبسوا أنفسهم على بيعته ومستعدون للموت من أجله"... فماذا كان موقف شبث؟

احتفظ لنا ابن مسكوية في كتابة تجارب الأمم وتعاقب الهمم بجزء من نص خطاب لشبث يدعوا فيه الحسين للقدوم وأنه بجانبه تقول الرسالة " من شبث بن ربعيٍّ،... أمّا بعد، فقد اخضرَّ الجناب، وأينعت الثمار، وطمّت الجمام، فإذا شئت فاقدم على جنود مجنَّدة لك، والسلام[1].

إذًا ربما تحددت بتلك الرسالة مشاهد الخيارات الجديدة لشبث، والتي توحي بمحاولة جديدة لاستعادة دوره الحيوي في المشهد السياسي، وضمان الديمومة لهذا الدور، فقدوم الحسين يعني إحياء تحالفات كان شبث يأمل دون شك في قيادتها بنفسه، بما يعنيه ذلك أيضًا من غايات وطموحات

(1)مسكويه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج2، ص 40. كذلك – البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، ج3، ص 158.

شبث، فعودة منظومة الخليفة علي (الحليف القديم) على يد ابنه - الطامح لتولِّي منصب الخلافة - الحسين. ومع احتدم تنازع الولاءات والعصبيات، وفي ظل وضع الاختلاف على شرعية الخليفة يزيد، حَمَلَ كل ذلك في طياته الأمل في استحقاقات ونتائج جديدة تلوح وشيكة في الأفق إذا استطاع الحسين حسم الأمر لصالحه.

لا يمكن أيضًا أن نستبعد أن يكون الدافع لدعوة الحسين والوقوف بجانبه أنه يأتي كممر جديد يعتقد شبث وأمثاله أنه سيؤمن لهم قدرة على استعادة ما خسروه سابقًا في ظل قيادة وسلطة مركزية قوية زمن معاوية.

ففي الوقت الذي كان الحسين يتحرك فيه نحو الكوفة معتمدًا على التطمينات التي أتت من قيادات ورموز مؤثرة نقلها له مسلم بن عقيل، حيث وصلت بعدد المبايعين كما يورد ابن قتيبة في (الإمامة والسياسة) لنحوِ الثلاثين ألفًا[1]، وثمانية عشر في روايات أخرى رصدها الدينوري والطبري جاء فيها" أما بعد فإن الرائد لا يكذب أهله وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفًا، فعجل الإقبال حين يأتيك كتابي، فإن الناس كلهم معك[2]".

وعليه كان يزيد قد بدأ هو الآخر بالفعل التحرك

(1)ابن قتيبة الإمامة والسياسة، ج2، ص 4.

(2)الدينوري، الأخبار الطوال، ص243، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص 264.

المضـاد، هـذا التحـرك أودى في طريقـة بمسـلم بـن عقيـل نفسـه، وهـاني بـن عـروة[1] أهـم ممثـلي الحسـين بالكوفـة.

لا جديـد إذن بالنسـبة للسـلطة المركزيـة، ففـي تاريخنـا، لم ينـج لقـب الخليفـة (مثلـه مثـل كثـير مـن المفاهيـم الدينيـة) مـن اسـتخدامه مطيـة سياسـية، لـذا كانـت الدعـوة الصريحـة بالقـدوم والمسـاندة – التـي تـم إعدادهـا ليقودهـا الحسـين – قـد بـدأت تـذوب وتتـوارى، خلـف الحـدة التـي أبدتهـا مؤسسـة الخلافـة في مقابلـة تحـرك الحسـين، فيزيـد – الـذي ورث عـن والـده دولـة القـوة والسـلطة المركزيـة تبسـط نفوذهـا عـلى أهـم مراكـز التأثـير باسـتثناء الاضطـراب الحاصـل بـ(مكـة والمدينـة) كان يملـك بالفعـل معطيـات التحـول لصالحـه، فمـع الإربـاك الحاصـل والخطـير في بعـض الحـالات التـي وصلـت لحـد التمـرد، وفي ظـل ضآلـة ملحوظـة في عمليـة تقبـل الاحتشـاد والمواجهـة لـدى كثـير مـن الزعامـات والقيـادات، أرْسَـل يزيـد بأوامـره لابـن زيـاد عاملـه عـلى الكوفـة، لوضـع حـدٍّ لأمـر الحسـين والتصـدي لـه، وبالفعـل يصـدر ابـن زيـاد أوامـره هـو الآخـر لمحمد بن الأشـعث ليخـرج فيمـن أطاعـه مـن كنـده وحضرمـوت اسـتعدادًا للمعركـة (الأوديسـه) كربـلاء 61هــ/ 680م، تلـك الملحمة المصنوعـة التي فتحـت بـاب التناحـر المذهبـي والسـياسي لاحقًـا عـلى مصراعيـه حتـى اليـوم، كذلـك تـم الاسـتعانة بالوجـوه والزعـمات كـ القعقـاع بـن شـور الذهـلي، وحجـار بـن أبجـر العجـلي، وشـمر

(1) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج6، ص 213.

بـن ذي الجوشـن العامـري[1]، وأيضًـا شـبث بـن ربعـي التميمـي.

لقـد كان مـن المنطقـي مـع الحسـم والشـدة التـي أظهرهـا يزيـد ومـع الإجـراءات السريعـة التـي اتخذهـا بعيـدًا عـن سياسـات التأجيـل والإرجـاء، أن تعيـد شـخصية مثـل شـبث قـراءة موقفهـا وفـق تحسّـس دقيـق سـمته الرئيسـة والفارقـة هـي المـأزق، لاسـيما موقفـه العسـكري، فتتـالي الضغـوط والتهديـدات الصريحـة للخـروج لمقاتلـة الحسـين لم تـترك معهـا خيـارًا، فإمـا السـلطة والخليفـة (يزيـد)، وإمـا المعارضـة (المتهاويـة) الممثلـة في الحسـين.....إذن....... (ليـس ثَـمَّ خيـارٌ وسـط).

في النهايـة جـاء حسـم شـبث أمـره... إنـه مـع الطـرف العسـكري المفـترض فيـه كسـب المعركـة إن خاضهـا... وهـو جيـش الخليفـة يزيـد[2].

وربـما تـشي لنـا محاولـة شـبث التعلـل بالمـرض كنـوع مـن تلمـس العـذر لعـدم الخـروج، كمحاولـة منـه لحفـظ مـاء الوجـه، تلـك المحاولـة التـي كان رد السـلطة عليهـا عنيفًـا وحـادًّا، (تهديـد صريـح لـه إن لم يخـرج للقتـال)، تهديـد لم يكشـف معـه حجـم الضغـوط التـي مورسـت عـلى شـبث فحسـب، بـل وأيضًـا ضـد كثـير مـن الزعامـات الأخـرى.

---

(1)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج6، ص 291.

(2)الطبري، نفسه، ج5، ص422.

يذكـر البـلاذري " تمـارض[1] شَـبَث بـن رَبْعِـيّ فبعـث إِلَيْـهِ أن يشـخص إِلَى الْحُسَـيْن فِي ألـف ففعـل[2]".

وبهـذا تخطَّـى شـبث مرحلـة أخـرى مـن مراحـل تقلـب الـولاء، لكنهـا مرحلـة أشـد حرجًـا، مرحلـة لم تهـدد حياتـه هـو فحسـب، بـل طالـت معـه زعامـات ورمـوز دينيـة عـلى رأسـها الحسـين الـذي نـادي في خضـم الانـدفـاع (وقبـل تلاقـي السـيوف في المعركـة) عـلى شـبث معاتبًـا عـلى لـه الخـذلان وقـد كان وقتهـا أحـد الرؤسـاء في الكوفـة[3]، فيقـول البـلاذري مسـتحضًرا المشـهد " نـادى الحسـين: يـا شـبث بـن ربعـي يـا حجـار بـن أبجـر، يـا قيـس بـن الأشـعث يـا يزيـد بـن الحـرث ألم تكتبـوا إلي أن قـد أينعـت الثـمار؟! واخـضر الجنـاب وطمـت الجـمام وإنـما تقـدم عـلى جنـد لـك مجنـد؟!!... قالـوا: لم نفعـل!!!"[4].

وفـق مـا تـم تسـجيله تاريخيًّا وأحـاط بمعركـة كربـلاء يمكن القـول إن هـذه المعركـة كانـت بالنسـبة لشـبث بمثابـة مقاربـة بـين

(1)يقـول الدينـوري في الأخبـار الطـوال " قـال لـه ابـن زيـاد: أتتـمارض؟ إن كنـت في طاعتنـا فاخـرج إلى قتـال عدونـا" الأخبـار الطـوال، ج1، ص 254.

(2)البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، ج3، ص178.

(3)الدينوري، الأخبار الطوال، ج1، ص229.

(4)انظـر البـلاذري، جمـل مـن أنسـاب الأشراف، ج3، ص 188، وجـاء في الطـبري " قـال: سـبحان الله! بـلى والله، لقـد فعلتـم، ثـم قـال: أيهـا النـاس، إذ كرهتمـوني فدعـوني أنـصرف عنكـم إلى مأمنـي مـن الأرض" الطـبري، تاريـخ الرسـل والملـوك، ج5، ص 425.

الواقعية والمنطقية مقابل بقية القيم الأخرى، مقابلة ومقاربة انتصرت فيها الواقعية في إزاحة القيم الأخرى[1].

فالمشهد بالنسبة لشبث في كربلاء تحول لجملة من التحديات والمتغيرات، تحديات وتحولات لا يتطلب فك رموزها بالنسبة لشبث سوى نظرة بسيطة على طبيعة الوضع (الحسين بلا قوات[2] تستطيع الصمود أو المجابهة، الحشد العسكري ليزيد ذو ثقل عددي واضح يفقد الحسين أي أملٍ في الانتصار، السلطة المركزية متحفزة ومصرة على تصفية هذا الوضع مهما كلف الأمر)، الحسين دون وسائل ضغط يمتلكها أو يستطيع أن يفاوض بها لا سياسية أو عسكرية وليس هناك أية دلائل تشير لتغيُّر قريب في الوضع على نحوٍ جذري، إذًا الحديث عن خذلان الحسين يجب ألا يحجب عنا هذه الحقائق.

---

(1) جاء عند الطبري أن الحسين - وحين احتدم الأمر وأدرك أنها النهاية - قال لمن حوله "لاخير في الحياة بعدكم" انظر الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص 322، كذلك المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص 70.

(2) على الرغم من الرسائل المشجعة التي كانت تصل للحسين إذ وصلت بالمبايعين في إحدى الروايات إلى ثلاثين ألفًا وفي رواية ثمانية عشر ألفًا - انظر: ابن قتيبة الإمامة والسياسة، ج2، ص 4، كذلك ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج4، ص 33، في حين يرى ابن حجر (في تهذيب التهذيب) أن الأعداد وصلت لحوالي اثني عشر ألفا من المبايعين، ابن حجر تهذيب التهذيب ج2، ص 349.

وإذا كان الحسين قد قتل، فهل يموت ما يرمز إليه، وتنتهي القصة؟

عمومًا – وكعادة الملاحم وفي مشهد درامي أو ربما رمزي– احتفظت بعض مصادر التاريخ بصورته، تمثل في أنه ومع اقتراب الحسين من خسارة هذه المواجهة غير المتكافئة، ومع محاولة من شمر بن ذي الجوشن حرق بيوت نساء الحسين، يُقْبِلُ شبث معاتبًا شمر بالقول[1]: ما رأيت أقبح من فعلك وموقفك، أتريد أن ترعب النساء؟....(مشهد زئبقي بامتياز)، فهل كان ذلك أيضًا حفظًا لماء الوجه وأسفًا وتبرئةً من دم الحسين؟ أم استمرار لتناقض تاريخي منتج للنص والرواية ولأهداف ما، مهما كان الأمر سنجد في المرحلة اللاحقة أن شبث نفسه يطالب بالثأر للحسين وينضم لحركة المختار بن عبيد الثقفي سنة 67 هـ[2].....لا إجابة تاريخية تسعفنا!

ولا غرابة في أن يفصح نص[3] ابن كثير، وابن الأثير: "أن شبث – وحين دعي للقتال – قال مستعجبًا " شيخ مضر وأهل المصر عامة يبعث في الرماة، ألم يكن لهذا غيري![4]، إن

---

(1)كما أشار البلاذري " قال شبث بن ربعي (لشمر): يَا سبحان اللهَّ مَا رأيت موقفًا أسوأ من موقفك"، البلاذري، جمل من أنساب الإشراف، ج3، ص194.

(2)ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج4، ص 211– 278.

(3)ابن كثير، البداية والنهاية، ج8، ص 189.

(4)ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج3، ص 175.

هـذه الروايـة الأخـيرة بالـذات ربـما تكـون أكثـر تعاطيًـا وإيجابيـه مـع موقـف شـبث مـن الحسـين في كربـلاء، فهـي تعالـج ارتبـاك المشـهد والمصـادر في التعامـل مـع قضيـة رغبتـه في القتـال مـن عدمهـا، حيـث تـشي روايـة ابـن الأثـير أن احتجـاج شـبث عـلى الخـروج لقتـال الحسـين ربـما يـأتي مـن منطلـق اعتبـار ذلـك تقليـل مـن شـأنه، لجعلـه يقـود فرقـة الرمـاة، وبهـذا المعنـى يكفـى أن نلاحـظ أن الاعـتراض عـلى كونـه قـاد الرمـاة حيـث لا يبـدو ذلـك – في تصـور شـبث – مناسـبًا.

وانسـجامًا مـع ضرورات المرونـة في التعامـل التـي أبداهـا شـبث وأظهـر مـن خلالهـا مسـتوى عـالٍ مـن الحفـاظ عـلى مـشروع السـلطة القائـم ليزيـد، إلا أن ذلـك وفي نفـس الوقـت لا يجعلنـا نتناسـى أن شـبث في نهايـة الامـر زعامـة قبليـة، وشـخص نخبـوي ينتمـي لقبيلـة ذات ثقـل، ألا وهـي (تميـم).

كذلـك في سـياق أدبيـات السـرد التاريخـي حـول موقـف شـبث مـن الحسـين في كربـلاء قـد يأخذنـا نمـط القـراءة لجانـب المثاليـة المرتبطـة بخـذلان الخـير وفعـل الخيانـة والوقـوف مـع الـشر. لكـن الواقـع عـلى الأرض لا يقبـل هـذا بسـهولة، أن دعـوة شـبث للحسـين كانـت في ضـوء تصـور مـن الأول يقـضي بـأنَّ الحسـين قـادر عـلى تحـدي الأمويـين وإنتـاج شرعيـة جديـدة، شرعيـة وسـلطة قـادرة عـلى تقديـم مغانـم وخلـق مصالـح وانتـماءات للمتعاونـين والحلفـاء والقـوى المتنفـذة التـي ستنشـأ، لكـن الحسـين مـع وصولـه بـدون قـوات عسـكرية، وبـدون

احتشـاد قبـلي حقيقـي منتظـرا مـددا مـن الكوفـة وغيرهـا مـن المناطـق والقبائـل التـي وعـدت بالمسـاعدة والدعـم، أصبـح موقفـه العسـكري بـل والقـدرة عـلى المفاوضـة شـبه منعـدم، فالوقـوف مـع الحسـين يعنـي في هـذه الظـروف القضـاء عـلى أي فـرص سياسـية بالنسـبة لـه، بـل وربـما مقامـرة بحياتـه نفسـها وحيـاة مـن معـه في ظـل إصرار السـلطة عـلى حسـم الموقـف، وتتـالي حشـدها لذلـك[1].

مـن الواضـح أن دعـوى الانضـمام للحسـين والقتـال معـه كانـت، مشروطـة، ومـن الطبيعـي ألا يـرد ذكـر هـذه الـشروط في المصـادر التاريخيـة[2]، إن كان هنـاك أمـل في الانتصـار، أمـا القتـال في ظـل موقـف عسـكري مثـل الـذي كان عليـه الحسـين، فـلا يمكـن أن يـؤدي لنـصر.

كانـت وفـاة يزيـد بـن معاويـة هـي الأخـرى مـؤشرًا للانفجـار المرتقـب، فمـع الاضطـراب الحاصـل في صفـوف الأمويـيِّن كان لزامًـا التحـرك السريـع من قبـل قياداتهـم ورموزهـم

---

(1)ولمزيـد مـن التناقـض التاريخـي والاستفسـار عـن الأسـباب الحقيقيـة التـي دفعـت يزيـد فيـما بعـد لتغيـير موقفـه مـن الحسـين ربـما علينـا أن نسـجل شـهادة البـلاذري حيـث يقـول ان ابـن الحنفيـة قـدم لزيـارة يزيـد بدمشـق بعـد مقتـل الحسـين فقـال لـه: "لـو أني أنـا الـذي وليـت أمـره، ثـم لم اسـتطع دفـع المـوت عنـه إلا بجـز أصابعـي، أو بذهـاب نواظـري، لفديتـه بذلـك" البـلاذري، جمـل مـن أنسـاب الأشراف،ج3،ص 276- 277.

(2)كما لا ندعي أيضًا الإحاطة بجزئياتها.

لاستدراك الأمر وإنقاذ العرش الأموي من الزوال، فكان "مؤتمر الجابية" لمبايعة مروان بن الحكم[1]، ويبدو أن مروان بن الحكم كان يدرك طبيعة ومستوى الأزمات والصراعات الموجودة، لا سيما داخل البيت الأموي نفسه، يؤكد ذلك أسلوبه وقراره تفويض ولاية العهد لابنه، إذن باتت الدولة الإسلامية ظاهريًّا أكثر توحدًا، ولو أنه في المستوى العملي كانت تخترقها ثغرتان مهمتان:

- الأولى: ترأس عبد الله بن الزبير معارضة مركزها مكة.
- الثانية: إحراز المختار بن أبي عبيد الثقفي - الذي جمع من حوله شيعة الخليفة على - بعض الانتصارات في الكوفة.

في ظلِّ هذه الظروف يصبح الطريق مفتوحًا أمام أمثال شبث للانقلاب على الأمويين، فهو ليس أقل طموحًا أو تطلعا من المختار، ذلك الساعي لمكاسب سياسية وعسكرية، إذًا فرضية التحالف مع المختار بن أبي عبيد الثقفي وفي ضوء المستجدات التي يبشر بها ما أحرزه الأخير من انتصارات عسكرية تصبح فرضية مقبولة، بل ربما ضرورة استثنائية ملحة في هذا الوقت، حيث يقول ابن أعثم " أقبل شبث ودخل على المختار، فقال له المختار: أرضيكم وأغنيكم من كل ما تكرهون على أن تقاتلون معي بني أمية وعبد الله بن

(1)الذي عهد بالخلافة لابنه "عبد الملك 65-86هـ/ 684-705م" ومن بعده لابنه " عبد العزيز".

الزبـير"، وإن كان لا يـرد في الروايـة ردًا واضحًـا مـن شـبث انتظارًا لاستشـفاف رأي قومـه، الذيـن رفضـوا بعـد ذلـك وقالـوا: نقاتلـه وننقـض عليـه بيعتـه[1]. لكـن ابـن مسـكويه يـرد عنـده مـا يشـير قبـول شـبث للعـرض حيـث يذكـر" أن شـبث بعـث للمختـار ابنـه عبـد المؤمـن ليقـول لـه إنـما نحـن عشـيرتك وكـف يمينـك لا نقاتلـك فثـق بذلـك[2].

ثمَّةُ روايـة أخـرى أيضًـا عنـد الطـبري مفادهـا أن شـبث بـن ربعـي تصـدى لجيش المختـار الثقفـي سـنة 66هــ، بـل واسـتطاع هزيمـة جـزء مـن جيشـه، وقائـد جيـش المختـار سـعر بـن سـعر الحنفــي، الــذي وبــخ شــبث قائــلًا (ويحـك أردت اتبــاع هــذه السـبئية، قبَّـح الله رأيـك[3].

هكــذا إذًا مــن أحــد قــادة الجيــوش المشــاركة في معركــة كربــلاء ضــد الحســين إلى معــارض للمختــار ومتهــم بدعــم السـبئية والانتـماء لهـم، إلى حلـف مـع المختـار ودعوتـه (التوابـين) للمطالبـة بالثـأر لـدم الحسـين!!!!

عـلى المسـتوى العمـلي: تعامـل المختـار نفسـه مـع شـبث بإيجابيـة عاليـة وسـعى لضمـه لتحالفـه، إذن الجميـع هنـا منخـرط في مـشروع سـياسي جديـد، منظومـة مـن الحسـابات والمصالـح

(1)ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج6، ص 232.

(2)()- ابن مسكوية، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج2، ص 171.

(3)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 442-443 .

والسياسية، للمختار شعارها (الثأر لآل البيت وحقهم). ورغم ارتفاع سقف الشعارات التي استخدمها المختار في دعوته إلا أن وجود شخصية مثل شبث في صفه يمثل مكسبًا، لكن ما قدر لهذا التحالف أن يدوم، إذ ومع ظهور بوادر المواجهة بين مصعب بن الزبير والمختار انتقل شبث للبصرة واتصل بمصعب لاستعدائه على المختار!!! حيث يذكر الدينوري أنه بلغ المختار أن شبث بن ربعي، وعمرو بن الحجاج، ومحمد بن الأشعث مع عمر بن سعد قد أخذوا طريق البصرة في أُناس معهم من أشراف الكوفة، فأرسل في طلبهم لقتلهم[1]".

إنها المصالح التي لا حدود لها، الشخصيات الطامحة، الزعامات المتوثبة، لتحقيق مغانم، زعامات قبلية لن تقبل إنهاء طموحها وآمالها حتى وإن بدا ذلك لها في أنصاف فرص وليس فُرصًا مكتملةً، إنه المعطى الأكثر حضورًا على مستوى السياسة وبناء التحالفات ومقاييس المكسب والخسارة، فشبث والمختار يتسابقان في الاتجاه نفسه إن انتصر أحدهم يخسر الآخر حتمًا، وبالفعل كان رهان شبث ناجحًا حيث توجه مصعب بقواته وحاصر الكوفة ثم دخلها، وقتل المختار سنة 67هـ/ 686م.

(1)()الدينوري، الأخبار الطوال، ج1، ص301.

شبث وعبد الملك بن مروان

تطلعات معطلة تحت سقف الخلافة

بمقتل مصعب ابن الزبير وتصفيه أخيه عبد الله بمكة قد يكون عبد الملك بن مروان أنهى حرية كثير من الزعامات القبلية في الحركة والاختيار، وأعاد مرة أخرى للسلطة مركزيتها السياسية[1]، لاسيما أن المراهنة من أية قوى على إسقاط عبد الملك وخلافته أصبح أمرًا شديد الصعوبة، حيث أفصح عبد الملك بخطبته في المدينة إثر مقتل عبد الله بن الزبير، متوعدًا مخالفيه بالقول "والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه". ومن الطبيعي ربما في

(1)يعد عبد الملك بن مروان - بدوره - نموذجًا من نماذج التناقض التاريخي الواضح لاسيما أن ترافق وجود شخصية الحجاج وولاية الأخير على العراق، ونواحي خرسان تلك المناطق متقلبة الأهواء دائمة الثورة صبغ فترة حكم عبد الملك بن مروان - بعض الشيء- بمسحة من التناقض التاريخي مابين (القسوة والقداسة)، فمثلا عند الطبري أن عبد الملك عزل الحجاج عن الحجاز بسبب شكوى أحد الأشراف وهو عيسى بن طلحة بن عبيد الله. انظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص 615، في حين تتناول إحدى الدراسات الحديثة حمدي شاهين، الدولة الأموية المفترى عليها، دراسة الشبهات ورد المفتريات، ط1، دار القاهرة للكتاب، 2001، ص 13 بالقول "عبد الملك بن مروان هو الكريم الذي يلقب برشح الحجر لبخله، وهو الفقيه العالم الذي يغلق المصحف ويقول هذا آخر العهد بك".

عـدم إشـارة النصـوص إلى أن هنـاك أحـداث مهمـة كان شـبث أحـد أطرافهـا إبـان فـترة حكـم عبـد الملـك بـن مـروان وأبيـه مـن قبلـه، فقـط أكَّـد البـلاذري أن شـبث حتـى ولايـة عبـد الملـك بـن مـروان كان لايـزال عـلى قيـد الحيـاة، وينفـي موتـه في وقعـة الجبانـة سـنة 66 هــ[1].

ويبـدو أن معالجـة عبـد الملـك بـن مـروان مشـكلة السـيطرة عـلى زعـماء المعارضـة، واسـتمالته لهـم سـاهمت في تغييـب أي دور مؤثـر هنـا لشـبث حيـث لا تظهـر النصـوص والروايـات أنـه كان ممـن استمالهم عبـد الملـك بـن مـروان، خصوصًـا وأن بعـض الزعامـات القبليـة مـن تميـم في تلـك الفـترة بقيـت خارجـة عـن الطاعـة، بـل ومثلـت للأمويـين مُشـكلات فهنـاك نافـع بـن الأزرق التميمـي، (64هــ / 684م) وقَطَـري بـن الفُجـاءة المـازني التميمـي الـذي تـولى قيـادة الخـوارج الأزارقـة، وكذلـك صالـح بـن مسرّح التميمـي، كـما لا تشـير المصـادر أو تؤكـد دورًا لشـبث في الـصراع الـذي دار بـين عبـد الملـك بـن مـروان وبـين خصومـه مـن هـذه القيـادات والزعامـات، فاسـتنادًا إلى مـا ذكـره البـلاذري

---

(1) البـلاذري، جمـل مـن أنسـاب الأشراف، ج6، ص 402، وورد عند الكتاني، في "التراتيـب الإداريـة – نظـام الحكومـة النبويـة"، ج2، ص 107، أنـه حـين مـات شـبث بـن ربعـي أقامـوا العبيـد عـلى حـدة والجـواري عـلى حـدة، والخيـل عـلى حـدة، والبخـت عـلى حـدة، والنـوق عـلى حـدة، وهـذا يعكـس طبيعـة مـا كانـت عليـه الشـخصية مـن ثقـل قبـلي أتـاح لهـا هـذا المشـهد التقديـري.

"من أن شبث عاش تسعين خريفًا[1]" يمكن القول إنه وبتمكن عبد الملك من بسط سيطرته على العراق ونواحيها انتهت على نحوٍ كبير تطلعات شبث بن ربعي، وربما كانت قدرة عبد الملك في القضاء على خصومه السياسيين وإدارة الدولة وتنظيمها، واستعانته بنخبة من رجال وقادة في الإدارة والسياسة مثل الحجاج بن يوسف والمهلب[2] وغيرهم كان له دخل، يضاف لكل ذلك تغلب العنصر اليماني المدعوم من الأمويين على نحوٍ واضح على العنصر المضري، أسهم كل ذلك في انحسار وزوال المعطيات والفرص أمام شبث للقيام بأدوار سياسية أو قبلية تتعارض مع السياسة الجديدة للسلطة التي ربما كان يرى له فيها مكانًا أو دورًا يليق به.

هكذا إذن، ومع استعراض تطور شخصية شبث ومشاركته في عملية التغيير والحراك السياسي الذي كان جاريًا طوال سنوات من القرن الأول يتكشف لنا أن هذه القيادات السياسية كانت تتحرك من منطق داخلي (براجماتي بالأساس)، وأن مسألة القناعات الدينية وحضور المقدس في هذه المسائل والمواقف أمرًا بعيدًا عن الواقع والمنطق، فشبث قد لا يخرج عن كونه سياسي إسلامي عمل مبكرًا - وباستمرار - من اجل تحقيق مصالحه ومصالح منظومته، وكانت شخصيته

(1)البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، ج2، ص341.

(2)سنتعرض لاحقًا للصراع والتصادم الذي جرى بين المهلب والحجاج والذي كان هو الآخر متوقعًا.

تتطـور وفـق مـا يفيـد هـذه الغايـات التـي يعمـل مـن أجلهـا فمـرات يكـون مـع منظومـة السـلطة ومـرات المعارضـة ومـرات يتسـتر ومـرات أخـرى يُغلِّـب مصالـح منظومـة القبيلـة والمطامـح الشـخصية نفسـها، إن منابـع التغيـير والفعـل السـياسي والأدوار التـي مارسـها شـبث لم تكـن مـن منطلـق أيديولوجـي متعلـق بالمقـدس والدينـي/ الحـق والباطـل/ الخـير والـشر، وأظـن أيضًـا أننـا جميعًـا قبـل هـذا كلـه نـدرك مـن أي ثقافـة جـاء شـبث بـن ربعـي التميمـي؟ وفي أي بيئـة اجتماعيـة وسياسـية وثقافيـة نشـأ، لقـد كان شـبث يتحـرك في ثنايـا المشـاهد التاريخيـة مـن منطلـق واقعـي، ومنطقـي فرضتـه الظـروف والدوافـع، وربـما تكـون النصـوص والمصـادر قـد غيبـت لنـا هـذه الدوافـع والمقاربـات وصـدرت أو سـاقت بـدلًا منهـا تصويـرًا أقـرب للوصـف بالخيانـة والخـذلان والبحـث عـن مطامـح ومغانـم لا أخلاقيـة، بـل يعـز القـول أن المشـهد التاريخـي المرسـوم بالنسـبة لشـبث فشـل أن يقـدم صـورة منطقيـة تـبرر مسـاقات الدوافع والأسـباب للفعـل التاريخـي، ومـا ترتـب عليـه مـن تغـيرات سياسـية بـل وعسـكرية، فشـل المشـهد التاريخـي أن يقـدم فهـمًا أعمـق لطبيعـة محـركات الفعـل السـياسي لشـبث ومحفزاتـه، بـل والأغـرب أن بعـض الروايـات والنصـوص كانـت أكثـر إيجابيـة وديناميكيـة مـن المؤرخـين أنفسـهم (الذيـن امتلكـوا سـلطة النـص)، فهـا هـي الروايـات والنصـوص تؤكـد اسـتعانة عـليّ بشـبث عـلى الرغـم مـن أنـه كان متهـمًا بأنـه أول مـن أعـان عـلى قتـل عثـمان، كـما رصـدت، ومـن ثـم بعـد خروجـه في صفـين يعـود الخليفـة

فيجعلـه في منصـبٍ أعـلى، بـل إن معاويـة نفسـه الـذي تصـادم مـع شـبث وجهـا لـوجـه وهـدده الأخـير بالحـرب، تشـهد العلاقـة بـين الطرفـين تعاونًـا وانضمامًـا لمنظومـة السـلطة الأمويـة.

فـماذا نتوقـع مـن شـخصية كشـخصية شـبث، شـخصية كانت تجـد في الصراعـات والحـوادث فرصـة لمزيـد مـن التطلعـات، خاصـة وأن الاسـتقرار السـياسي الـذي شـهدته بعـض الفـترات، واختفـاء شـبث منهـا يفصـح أن الترقـي القبـلي والسـياسي والقـدرة البراجماتيـة لمثـل هـذه الشـخصيات كانـت المحـددات الأبـرز التـي صنعـت مسـاحات واسـعة في التاريـخ الإسـلامي، وأنهـا قـادت وبعمـق عمليـات التغيـير السـياسي التـي كانـت تحـدث في القـرن الأول الإسـلامي وبدرجـة عاليـة مـن الواقعيـة والحـراك المبنـي عـلى قـراءة منطقيـة للمواقـف والحـوادث، وأن حاكميـة الدينـي بالنسـبة لهـا كانـت لا تشـكل هـذا القـدر الـذي تصـدره المصـادر - أو ربـما كانـت هـذه الحاكميـة تتحـرك في حيـز ضيـق عـما كان يصـدر بالنسـبة للسـرد - خصوصًـا إذا مـا تعلـق الأمـر بالتطلعـات والمصالـح السياسـية والقبيلـة.

تحـرك شـبث في أغلـب مراحلـه تحـركًا تجـاوز في مـرات سـقف الخيـال السـياسي المعـارض والحاكـم معًـا، تحـرك لا نبالـغ في تضخيمـه ولا نتجاهلـه، تحـركًا منطقيًّـا فرضتـه المصالـح والظـروف، إلا أن قـدرة المصـادر عـلى ترجمـة ذلـك ظـل حكـرًا عـلى منظـور الخيريـة والحـق والباطـل والخـداع والخـذلان (الابتعـاد والعـودة) منظـور تجاهـل المفـردات والدوافـع التـي

انطلقت منها مثل هذه النخب وصنعت عبرها السياق المنطقي لعلمية التغيير السياسي لما كان يجري من حوادث في هذا القرن، و كانت هي نفسها أهم منابع التغيير السياسي التي جرت.

إن التساؤل الذي يُطرح في نهاية استعراض دور هذه الشخصية في عملية التغيير السياسي التي كانت تجري آنذاك: هل استطاعت النصوص والروايات والمشاهد المنتجة عنها أن تغيب أو تلغي حقيقة أن الرموز الدينية والشخصيات المقدسة التي لطالما حرصت النصوص والروايات على حمايتها وإحاطتها بالقداسة الدينية، في أن تكون هي نفسها من استخدم تلك الشخصيات واستفاد منها وتعاون معها. وأن شبث تحت ظل قيادة هذه الرموز وغيرها استطاع أن ينتج تغيرًا في منابع الفعل السياسي لكثير من الحوادث والوقائع التي شارك فيها وبقدرة عالية؟

الفصل

الثاني

2

أبو الأعور السّلمِي

«يا معـــــاوية! إنـك لتحملنـــــا
على أمر لو تركته لحملناك عليه»

شماعة الخطيئة

عـن الرؤيـة المتعلقـة بالسـلطة يقـول ابـن تيميـة - ليعتـدل الأمـر - "إذا كان المتـولي الكبـير يميـل إلى اللـين فينبغـي أن يكـون نائبـه يميـل للشـدة؛ وإذا كان يميـل إلى الشـدة فينبغـي أن يكـون نائبـه يميـل إلى اللـين".

البراجماتيـون أو بمعنـى أدق الواقعيـون والمنطقيـون الفاعلـون في التاريـخ الإسـلامي كانـوا في الغالـب شـماعات للخطيئـة، وهـم فرصـة مناسـبة للمـؤرخ لإلباسـهم المشـهد الـذي يريـد، في مقابـل إمـا تبرئـة أطـراف المعادلـة الآخريـن، أو خلـق بريـق أخلاقـي أكثـر تعاطيًـا مـع الحـوادث لعنـاصر المنظومـات الأخـرى.

إن مـا نحتاجـه هنـا ونحـن نقيـم شـخصية أخـرى - كأبي الأعـور السـلمي - شـخصية اسـتطاعت أن تكـون عنـصرًا مـن عنـاصر الفعـل والتحريـك السـياسي للأحـداث في القـرن الهجـري الأول، أن نكـون أكثـر مرونـة في تقبـل انتقـاد النصـوص، حتـى يمكـن تفكيـك الصـورة المركبـة في المصـادر المختلفـة وفهـم أسـباب هـذا التركيـب.

أبـو الأعـور شـخصية احتاجـت منـذ البدايـة أن تصنـف في قالـب واحـد، قالـب ظلـت مسـتفيدة منـه حتـى النهايـة، كان أبـو الأعـور أحـد الزعـمات التـي وجـدت أن الترقـي في منظومـة الدولـة وتحقيـق الإنجـازات يرتبـط بقـدرة السـلطة دومًـا عـلى تقديـم مصالـح تغطـي تكاليـف أن يكـون محسـوبًا عليهـا، سـاعد عـلى ذلـك تفهـم القيـادات التـي اسـتخدمته وقدرتهـا عـلى تقديـم مميـزات ومكتسـبات مقابـل أن تكـون الشـخصية مواليـة لهـا.

ظـل أبـو الأعـور مرتبطًـا بالخلافـة في بـلاد الشـام التـي يمثلهـا (معاويـة بـن أبي سـفيان) والـذي ربـما وجـد أبـا الأعـور مـن خلالـه القـدرة عـلى تقـدم معطيـات وأدوات أكثـر ملائمـة وواقعيـة لمـا كان سـيرفض تقديمـه المعسـكر المنافـس - معسـكر الخليفـة عـليٍّ - فكيـف تعاملـت سـلطة الكتابـة مـع أبي الأعـور السـلمي وقرئتـه، وكيـف تشـكلت صورتـه في المصـادر، وكيـف فَـسَّرت تحركـه - ذلـك التحـرك المنطقـي المشرعـن تحـت ظـل سـلطة قويـه بغـض النظـر عـن المقاصـد.

شخصية أصيلة ... أم... استقراء مفتعل

من المحقق إن شخصية أبا الأعور التي نعالج طبيعة دورها في عملية صناعة التغيير السياسي ومنابع التغيير في ما دار من حوادث للقرن الأول الهجري هي شخصية أصيلة، شخصية مستوحاة من ثنايا النصوص والروايات الأصيلة، وربما هذا ما يسهل مهمتنا خصوصًا وأنها تمتَّعت بحماية أقل من غيرها في النصوص والروايات. فاختيارنا لأبي الأعور بالذات بعد شبث، جاء في جزئه الأكبر بسبب أنه صالح بدرجة عالية للقياس والدلالة على عمليات الانحياز والتبرير السياسي والأيديولوجي الذي يخترق أجزاء موسعة من الرواية العربية الإسلامية، ومن ثَمَّ ينأى بها عن الواقعية والمنطقية التاريخية، - بجانب التغييب لمنطلقات ودوافع وأسباب تحركها في المشهد السياسي الإسلامي المبكر.

يلفت الانتباه أن هذه الشخصية التي ذكرتها مصادر التاريخ السُّرياني[1]، ووسمتها بأنها شخصية محورية في الفتوحات الإسلامية المبكرة، نراها تغلف وتوضع في مصادر التاريخ الإسلامي في صورة عكسية.

(1) محمد جميل بلال، الإسلام المبكر في التواريخ السريانية: دراسة مقارنة بين تاريخ الطبري وتاريخ ميخائيل الكبير. انظر كذلك المؤلف نفسه، ميخائيل الكبير (595 هجرية - 1199 م)، تاريخ ميخائيل الكبير، ترجمه من السريانية الى العربية في أقدم الترجمات (شمعون صليبا).

لاشك أن المصادر السريانية ربما تأتي أهميتها هنا في أنها توفر لنا عن أبي الأعور رواية (حيادية) إلى حد ما، رواية ليس لها مصلحة في الانحياز والتبرير على الأقل. واستطاعت هذه المصادر السريانية أن تقدم له صورة أكثر ديناميكية ومنطقية من الصورة التي ترسمها مصادرنا؟

فأبو الأعور في التاريخ السُّرياني قائِدٌ لعملية فتح قبرص، وقائدًا لعملية فتح جزيرتي رودس وكريت، وأيضًا قائدًا لحملة على القسطنطينية عام 655م، التي انتصر فيها على قوات الروم.

إذ انطلقنا من هذه المشاهد الإيجابية لأبي الأعور في المصادر السريانية، وحاولنا متابعة أدوراه في مصادرنا التاريخية الإسلامية، نراه في صوره أقل إيجابية وبطولة، صورة من أهم مكوناتها أو أبرز ما يتلقاه القارئ منها أنه أحد رؤوس الفتنة وأحد رموز الشر.

بغاية تجاوز - أو لِنقُل - اختراق ملامح هذه الصورة التي وُسِمت بها الشخصية، وحتى نتجاوز معطياتها ونصل للسيرة التاريخية الأقرب منطقية لهذا الرجل الذي كان من أبرز القيادات المؤثرة في جيش الشام ورجالات معاوية،كان لا بد لنا أن نأخذ في الاعتبار المسببات والدوافع التي أدت لتشكيل صورة هذه الشخصية المغضوب عليها تاريخيًّا، أو بمعنى أدق (شماعة الخطيئة) لكثير من الأحداث والمشاهد المحرضة على الثأر والقتال.

أبو الأعور السلمي:

نلحظُ وجود العديد من الاختلالات الهيكلية التي قد تحول دون معرفة طبيعة دور أبي الأعور السلمي في البدايات الأولى للإسلام (العهد النبوي/ أبو بكر/ عمر/ عثمان) – باستثناء التوهج والظهور في حوادث الفتنة،– فكيف تحركت هذه الشخصية، ومن أي منطلق؟

أبو الأعور السلمي هو عمرو بن سفيان بن عبد شمس، ولقبه أبو الأعور، يتواتر اسمه في روايات واسعة، إبان الفتنة، فمعظم ما وصلنا من أخباره يتعلق بهذه المرحلة.

وللإحاطة حاولنا الاستفادة من أغلب المصادر والمصنفات التي تتوزع بين القرن الثاني حتى الثامن الهجري، ويمكننا مبدئيا القول أن أبا الأعور السلمي ينتمي إلى إحدى القبائل المؤثرة وهي قبيلة سُليم[1]. بدأ ظهوره على مسرح الأحداث إبان الصراع الذي حدث بعد مقتل عثمان، والمناداة بالقصاص من قتلته (لا جديد)، فهو أحد قادة معاوية بن أبي سفيان، ومن كبار أنصاره. تمامًا مثل شبث بن ربعي. نلحظُ أن الأخبار قليلة عن أبي الأعور في مراحل حياته الأولى. في هذا السياق يثير الانتباه ويستدعي التأمل أن الرواية التراثية التي احتفظت لنا بها كتب التاريخ والمتعلقة بزوجته تكاد تتماثل في دلالاتها مع الرواية المتعلقة

(1) السمعاني، الأنساب، ص181.

بزوجة شبث بن ربعي (الاستهداف العاطفي) أو وجود معنى يوحي بتوافر خلل ما يحمل القارئ على استشعاره، حيث يشير السهيلي (ت 581هـ)، أن "الْحَجاجِ بْنِ عِلَاطٍ السّلَمِي" أتى الشَّامَ، فَنَزَلَ عَلَى أَبِي الأعور السّلَمِيّ فَهَوِيَتْهُ امْرَأَتُهُ، ومَاتَ كَلَفًا بِهَا"[1]، وفي خبر مكمل يقول ابن عياش "إن أم أبي الأعور نصرانية، وهو من أبناء النصرانيات[2]". أما عن لقبه (أبي الأعور) فلا خبر عن أسبابه وليس هناك ما يفسر (بدقة) تكنيتهِ بأبي الأعور.

---

(1)) السهيلي، الرَّوْض الأْنف، ص 121.

(2)يعقب ابن عساكر على الرواية بالنفي حيث يقول "وهم في ذلك".

شيطنة... أبي الأعور

في سياق درجة عالية من اللوم ترد بعض الأخبار عن أبي الأعور عند البخاري، إذ تثير إحدى الروايات اسمه في مسألة اللعن، فيرد " لَمَّا بَايَعَ أَهْلُ العِرَاقِ لِلحَسَنِ قال الحسن لمعاوية " أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ الله لَعَنَ يَوْمَ الأَحْزَابِ صَاحِبَ مُقَدِّمَتِهِم وصَاحب ساقتهم، وَصَاحب مجنبتيهم،.... وَكَانَ عَلَى أَبِي الأعور اثْنَتَانِ لَعَنَهُ وَلَعَنَ قَوْمَهُ[1]، إن هذه اللعنة التي تقاسمها أبو الأعور (الابن) مع أبي الأعور (الأب)، تبدو من خلال استعراض أقوال المؤرخين وكأنها أمر مُفتعل، فالأب لا توجد عنه روايات دقيقة ولأسباب تبقى في حاجة إلى تحقيق، وكأن حياته اقتصرت على محاربة النبي، ليُلعن بسبب ذلك، في انتظار أن يظهر الابن أبو الأعور مع معاوية من جديد ليُلعن من قبل الخليفة عليٍّ، بهذا الشكل يكون البخاري - بكل أهميته كمرجع للتشريع - قد وضع الشخصية في سياق قالب من الصعب الخروج عنه (قالب سلبي). كل هذا رغم بعض الخلل في الرواية لأنه من المفترض - بمقاييس الزمن - أن يكون الأب هو المعاصر للنبيِّ ﷺ. إلا أن رواية البخاري تتعلق بأبي الأعور الابن، وهو الذي يتحدث عنه الحسن، وكأن اللعنة قد انتقلت من الأب إلى الابن وتحمّل تبعاتها حتى وإن لم يكن في حقيقة الأمر المقصود الفعلي بها. إن مثل هذه الروايات لا شك تجسيد تام لدور المؤرخين في الانجراف نحو

(1)البخاري، التاريخ الأوسط، ج1، ص98.

تجريـح أيديولوجـي يـكاد يوحـي بوجـود نيـة في الاسـتهداف[1].
فمـن شـخصية حاربـت الرسـول في المـاضي، وصـولًا إلى دور أبي الأعـور الابـن ضـد الخليفـة عـلي ومحاربتـه أيضًـا، كل هـذا يجعـل القـارئ عـلى اسـتعداد لقبـول الأمـر. إنهـا عمليـة شـيطنة لسـياسي وقائـد مـن غـير المنتظمـين في المسـاقات الإيجابيـة للروايـة التاريخيـة الإسـلامية، ويبـدو لنـا أن في الأمـر أكثـر مـن هـذا؛ لأن شـخصيات أخـرى مؤثـرة كانـت انخرطـت قبـل إسـلامها في محاربـة الرسـول، ولم تلقـى المصـير نفسـه. مـا الجديـد!

ويـكاد ابـن عسـاكر (مـع ابـن أعثـم) مـن المؤرخـين المهتمـين الذيـن بينـوا أن أبـا الأعـور السـلمي قابـل الخليفـة أبـا بكـر الصديـق إذ يـرد "أن أبـا الأعـور جـاء إلى أبي بكـر، فدخـل عليـه قائـلًا: " إن شـئت وجهتنا إلى عـدوك " إن هذه الروايـة على اقتضابها والتـي لم يقـدر لهـا أن تأخـذ أكثـر مـن الجملـة التـي وصفـت بهـا لو أمعنـا النظـر لهـا سنكتشـف معهـا فكـر هـذه الشـخصية، فـإذا كان أبـو الأعـور جـاء إلى الخليفـة أبـو بكـر الصديـق لعـرض نفسـه كقيـادة عسـكرية فـإن ذلـك يـدل عـلى سـعيٍ واثـق للعـب دور مـا في الحـوادث الجاريـة عـلى السـاحة بـكل مـا فيهـا مـن تغيـيرات سياسـية وعسـكرية عميقـة، خاصـةً مـع حـروب الـردة وإعـادة توزيـع الأدوار السياسـية عـلى فضـاء الجزيـرة العربيـة الواسـع.

(1) حتـماً لانقصـد روايـة البخـاري (أو غـيره) بـل نقصـد تحديـدًا الخلـل المـتروك دون تقريـر وجعـل عمليـة (اللعـن) بهـذا الشـكل المتماهـي بـين الأب والابـن.

فتح القُدس... حضور تاريخي مرفوض!!

ذكر أبو الربيع (ت 634هـ)[1]، أن عمر بن الخطاب خرج من الجابية إلى إيلياء، فخرج إليه المسلمون يستقبلونه، فأتاه رجال فيهم أبي الأعور السلمى، وقد لبسوا لباس الروم، وتشبهوا بهم في هيئتهم، فقال عمر: احثوا في وجوههم التراب، حتى يرجعوا إلى هيئتنا وسنتنا ولباسنا[2].

الواقع أنها رواية (أيديولوجية بامتياز)، فها هو أبو الأعور، وفي أحد أهم الأحداث التاريخية المفصلية في عمر دولة الإسلام النامية والمتوسعة شرقًا وغربًا، ورغم أنه مشارك في أحد أهم مراحل التغيير والفعل السياسي في هذا الوقت، وفي خضم الفتوحات وما يجري بها من حوادث متسارعة، لم يكن ليسلم من التقريع والذم والرفض لحضوره التاريخي في هذا المشهد المهم (فتح بيت المقدس).

فحتى الرواية التي حاولت إظهار دور ما له في عملية الفتح جعلته هدفًا لتقريع الخليفة عمر بن الخطاب ، بل والغريب أن عددًا من كبار الشخصيات الإسلامية التي كانت مع أبي الأعور في نفس الأحداث تم تجاهل نقدها ، فقط أبو الأعور يُذكر بالاسم.

---

(1) صاحب كتاب الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله.

(2) الكلاعي، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ، ج2، ص 305.

إن هـذا النـص يكشـف بوضـوح أن الروايـة التاريخيـة – في الكثـير مـن المناسـبات – كانـت تنتقـي مـا يخـدم السـياق الأيديولوجـي. فبـدلًا مـن إضفـاء نـوع مـن المُباركـة والقبـول واعتبـار الشـخصية إحـدى القيـادات الإسـلامية المشـاركة في عمليـة فتـح القـدس، إلا أنهـا هنـا تـبرر الـذم بـمسوغ "لبـاس الـروم"، وتحولـه إلى فرصـة لتُخـرج أبـا الأعـور مـن دائـرة الخـير المتمثـل في الجهـاد وتُلحقـه بدائـرة المذمـة والانتقـاص.

قيـادة سياسـية وعسـكرية، يجـري تشـويهها براويـة تفقدهـا هـذا الـدرع، لكـي يصبـح مـن الممكـن في مرحلـة ثانيـة فتـح بـاب الانتقـاد والتجريـح.

يمكننـا أيضًـا أن نبحـث عـلى نحـوٍ أعمـق في رمزيـة هـذه الروايـة مـن حيـث رسـم الصـورة السياسـية لأبي الأعـور. فلباس الـروم يعطـي عـن أبي الأعـور إيحـاءات إخفاقيـة أو (سـلبية)، وكأننـا في الواقـع أمـام رسـالة رمزيـة تقـول بـأن هـذا الصنـف مـن السياسـيين صنـف لا ينتمـي للصـورة الإسـلامية، بـل يـكاد يشـكل مثـال أقـرب إلى صـورة ولبـاس أعدائهـم.

أحجار على رقعة الصراع

الصحيفة المزورة

رفض سقي الماء

خدعة رفع المصاحف

مـرة أخـرى يُلْقَـى أبـو الأعـور في أتـون أزمـات أخلاقيـة تسـتوجب الإدانـة، منهـا قضيـة الصحيفـة المـزورة المنسـوبة لعثـمان بـن عفـان ، حيـث يقـول الطـبرى: إن مـن حمـل الصحيفـة المنسـوبة لعثـمان والتـي تحـرض عـلى المحتجـين هـو أبو الأعـور[1].

هكـذا بـكل بسـاطة، يحمـل أبـو الأعـور خطابًـا مصيريًـا، ويتـم العثـور لاحقًـا عليـه وهـو يحملـه لوجهـة (مـا)، ومـن ثـم (لم يُقتـل أو يعاقـب)، بـل يـتْرَك!!!

الغريـب أن أحـدًا بعـد هـذا الحـدث لا يذكـر أبـو الأعـور فيـما تبقـى مـن حـوادث فتنـة صحيفـة عثـمان (اختفـي تاريخيًّـا)، أو تعمـدت المصـادر ذلـك.

بالنسـبة لأبي الأعـور يبقـى أن اغتيـال الخليفـة الثالث سـيلقي بظلالـه عـلى جميـع الأطـراف، قـد يتأكـد ذلـك بالنسـبة لـه في هـذه المرحلـة أو لاحقًـا. لكـن يظـل السـؤال، هـل بمـوت عثـمان عـلى هـذا النحـو سـيلغي أو ينهـي قصـة الكتـاب المزعـوم وحمـل أبـو الأعـور لـه شـخصيًا؟

(1)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج 4، ص 367.

فحتـى في النقاشـات حـول هـذا الكتـاب، الـذي تحـول - كـما هـو معـروف - إلى مـبرر لقتـل وخلـع عثـمان، لا يُذكَـر أبـو الأعـور، بـل تـرد فقـط إشـارات إلى مسـألة الكتـاب دون ذكـر حاملـه.

أمـا مسـألة سـقي المـاء ومنـع أبي الأعـور جيـش عـلي، فمـن اليسـير علينـا أن نفـرق بـين هـذه الروايـات التـي تصـدر عـن وقائـع تاريخيـة منطقيـة فيهـا درجـة عاليـة مـن القابليـة للحدوث، وبـين روايـات تنبـع مـن الحـرص عـلى تشـكيل صـورة أخلاقيـة معينـة. فـلا شـك أن مسـألة منعـه المـاء عـن جيـش الخليفـة عـلي يمثـل قضيـة ذات بعـد أخلاقـي.

مثـلا يـرد في تاريـخ الطـبري: " أَنَّ عليًّـا مَـرَّ عَـلَى جَمَاعَـةٍ مِـنْ أَهْـلِ الشـام يَشْـتُمُونَهُ، فَقَـالَ: والله لأَقْـرَبُ قَـوْم مِـنَ الْجَهْـلِ، قَائِدُهُـمْ وَمُؤَذِّنُهُـمْ مُعَاوِيَـةُ وَابْـنُ النَّابِغَـةِ، وَأَبُـو الأعـور السُّـلَمِيُّ "[1]. ثَمَّـة أشـكال أخـرى عـلى النمـط نفسـه مـن هـذه الروايـة لكـن مـن شـأنها أن تخفـف الذنـب عـلى أبي الأعـور. فالمقـدسي يذكـر أن معاويـة كان مـع أبي الأعـور عـلى المـاء فيقـول: " جـاء معاويـة وأمـر أبـا الأعـور السـلمي أن يمنـع أصحـاب عليٍّ المـاء"[2]، لكـن هـذا الشـكل لا يـتردد كثـيًرا لأن مجمـل الروايـات المتعلقـة بحادثـة منـع المـاء تجعـل أبـا الأعـور هـو المنفـرد بهـذا الفعـل المُـراد لـه أن يكـون جريمـة لا أخلاقيـة.

(1)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص 45.

(2)المطهر بن طاهر المقدسي ، البدء والتاريخ، ص 217.

يقـول ابـن العديـم أن أبـا الأعـور السـلمي بـادر للـماء فصـف خيلـه ومنـع أصحـاب عـليٍّ، وأن معاويـة بعـث إلى أبي الأعـور لكـي يتخـلى لهـم عـن المـاء، فرفـض أبـو الأعـور وقـال" والله لا شربـوا منـه شربـةً"[1]. ودون الخـوض في حقيقـة رفـض أبي الأعـور طاعـة معاويـة[2] نسـتطيع أن نتلمـس أن الإصرار كبـير عـلى جعـل أبي الأعـور موغـلًا في نزعـة الـشر. فحتـى الروايـات التـي بـرَّأت معاويـة كان عليهـا أن تجـد مـن يتحمـل هـذا الـوزر الأخلاقـي. كان أبـو الأعـور هـو مـن تلقـى التبعـات، وأُلقـى عليـه اللـوم، فابتعـدت المسـؤولية عـن معاويـة وأسـندت إلى أبي الأعـور.

أمـا إذا أردنـا أن نقـوم بفحـص منطقـي مُبسَّـطٍ للواقعـة فيمكننـا أن نلحـظَ أن هنـاك جيشـان يسـتعدان للقتـال، كل منهـما يسـعى لكسـب مواقـع اسـتراتيجية اسـتعدادًا للنـزال. فهـل مـن المقبـول أن يـترك قائـد عسـكري مكانـه- حتـى وان لم تكـن المعـارك قـد بـدأت - للطـرف الآخـر أو لقيـادة أخـرى؟ هـل مـن المقبـول في السياسـة أو العمـل العسـكري أن يتنـازل قائـد أو يـترك لأخـر موقعًـا بهـذه الأهميـة لمجـرد أن في هـذا الفعـل مسـألة أخلاقيـة؟ فكيـف الحـال والجيشـان عـلى بعـد خطـوات مـن رفـع السـيوف عـلى بعضهـم بعضًـا. إن أي قيـادة أخـرى، وفقـط مـن منطلـق الأبعـاد السياسـية والعسـكرية، مـا كان لهـا أن تُـلام عـلى

(1)ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، ص 316.

(2)وإن أكدها ابن عساكر في أحد رواياته.

هـذا الفعـل. بـل لـو حاولنـا أن نذهـب لمـا هـو أبعـد مـن ذلـك، هـل سـيقل عـدد ضحايـا المعركـة (المنتظـرة) وضحاياهـا بعـد قليـل حـين يتلاقـى الجيشـان في حـال تـرك أبـو الأعـور مكانـه ليسـقي جيـش عـليٍّ وليظهـر هـذا الفعـل الأخلاقـي!

روى الطـبري: "كان رسـول الله ﷺ يتخـبر عـن بـدر، فلـما بلغـه أن المشركـين قـد أقبلـوا سـار رسـول الله إلى بـدر- وبـدر بئـر- فسـبقنا المشركـين إليهـا([1])" بـل إن الحبـاب ابـن المنـذر - ومـن نفـس المنطـق (العسـكري) سـأل الرسـول ﷺ كـما أورد ابـن هشـام في سـيرته: "يارسـول الله أرأيـت هـذا المنـزل؟ أمنـزلا أنزلكـه الله ليـس لنـا أن نتقدمـه، ولا نتأخـر عنـه، أم هـو الـرأي والحـرب والمكيـدة؟ قـال: "بـل هـو الـرأي والحـرب والمكيـدة". فقـال: "يـا رسـول الله، فـإن هـذا ليـس بمنـزل، فانهـض بالنـاس حتـى نـأتي أدنـى مـاء مـن القـوم، فننزلـه، ثـم نغـور مـا وراءه مـن القلـب، ثـم نبنـي عليـه حوضـا فنملـؤه مـاء"، ثـم نقاتـل القـوم، فنـشرب ولا يشربـون، فقـال رسـول الله ﷺ: "لقـد أشرت بالـرأي".

قـد يعـترض البعـض عـلى إيـراد هـذا التشـبيه، وهـو اعـتراض مـردود، لأن الحديـث يتعلـق ببنيـة السـياق المنطقـي الـذي ورد فيـه النـص بعيـدًا عـن مسـألة (الدينـي والمقـدس).

إذًا الـذي لـوَّن الروايـة (لأبـى الأعـور) البعـد الأخلاقـي

(1)الطبري، تاريخ الرسل والملوك،ج2، ص 424.

والدينـي. فالأخـير لم يتحـرك فيـما يبـدو لنـا سـوى مـن منطلـق منطقـي، منطلـق أظهـر فيـه قـدرًا مـن الواقعيـة (المقبولـة عسـكريًا) بـما أنـه مسـيطر عـلى موقـع يمثـل أحـد أدوات الانتصـار ويسـتحوذ عليـه، ومـن غـير المـبرر تـرك المـكان والتخـلي عنـه، كذلـك يجـب الأخـذ في الاعتبـار أن الفريقـين لم يكونـا يتقاتـلان عـلى كسـب غنائـم أو أرض بـل عـلى (النفـوذ وفرضـه). هـذه الحقيقـة (المجـردة) لم تكن لتشـغل الـرواة، بـل كان الحـرص أكـبر عـلى أن تخـرج الشـخصية في النهايـة مُتحمِّلـةً لكامـل المسـئولية عـن منـع سـقاية المـاء.

هنـا تحديـدًا ربـما نتعجـل إرفـاق مشـهد أخلاقـي آخـر وعرضـه، مشـهد نسـتحضر فيـه المهلـب بـن أبي صفـرة حيـث يـورد الطـبري خـبر حصـار مصعـب للمختـار في القـصر، ومحاولتـه التضييـق عليـه،إلا أن الطعـام كان يصـل إليـه عـن طريـق النسـاء. فلـما علـم مصعـب بذلـك استشـار المهلـب، فقـال لـه المهلـب: اجعـل عليهـم دروبـا حتـى تمنـع مـن يأتيهـم مـن أهليهـم وأبنائهـم، وتدعهـم في حصنهـم حتـى يموتـوا فيـه" التفكـير العسـكري نفسـه لقـادةٍ يمتلكـون أدوات يمكـن بهـا كسـب المعركـة فهـل مـن المنطقـي التنـازل عـن هـذه الأدوات بسـبب عـدم الرغبـة في التجريـم الأخلاقـي، بـل ربـما تبـدوا المفارقـة الأكثـر غرابـة هنـا أن مـا أشـار بـه المهلـب مَـرَّ (أخلاقيًـا) مـن تحـت سـلطة النـص، لكـن تـزول الدهشـة حـين النظـر للجهـة التـي تعلـق بهـا هـذا الأمـر ففـي حالـة أبي الأعـور المسـتهدف مـن منـع سـقي المـاء هـم جنـد ومعسـكر الخليفـة عـليٍّ، لكـن في حالـة المهلـب فالمسـتهدف هـم طائفـة لم تـزل

سـهام الاتهـام تاريخيًّـا توجـه لهـم ولقادتهـم!

لا غرابـة بعـد هـذا أن نجـد أبـا الأعـور في روايـة أخـرى في دور شـاهد زور. حيـث يشـير بـن الأثـير أن أبـا الأعـور كان أحد الشـهود الـزور الذيـن أعدهـم معاويـة للشـهادة أمـام شرحبيـل ابـن السـمط [1]. هـذه الروايـة التـي تحتـاج لمزيـد مـن التحقيـق والتحليـل – فيـما يبـدو لنـا – إلا أنهـا حققـت هدفًـا دعائيـا آخـر حـول معسـكر معاويـة وقياداتـه المعاديـة لعـليٍّ، روايـة توبيخيـة توحـي بـأن معسـكر معاويـة يخلـو مـن أي التـزام أخلاقـي. لكـن مـا يبـدو أن المشـهد لـن يكتمـل إلا بجعـل أبي الأعـور – هـو المُجَـرَّم أخلاقيًـا، مجرمًـا لأنـه وافـق عـلى الشـهادة، بـل وليكتمـل المشـهد تـأتي كذلـك قضيـة رفـع المصاحـف – المتهـم بهـا أبـو الأعـور – حيـث يقـول الدينـوري وابـن الأعثـم الكـوفي أن أبي الأعـور السـلمى أقبـل عـلى بـرذون[2]، وعـلى رأسـه مصحـف، ينـادى: يـا أهـل العـراق، هـذا كتـاب الله حكـمًا بيننـا وبينكـم[3]. بهـذا تتحـول مسـألة رفـع المصاحـف والخـداع إلى قضيـة جديـدة لربـط الشـخصية بانعـدام الأمانـة. لم يتحـول أبـو الأعـور إلى شـخصية مخادعـة فحسـب، بـل أيضًـا متلاعبـة بـما هـو دينـي ومقـدس، ومُدنَّسـة بهـذا العمـل لمـا هـو في وعـي المسـلمين أصـل القداسـة (المصحـف)، ويتحـول أبـو الأعـور لا إلى رجـل

---

(1)ابـن الأثـير، أسـد الغابـة في معرفـة الصحابـة، ج2، ص-621 كذلـك القرطبـي، الاسـتيعاب في معرفـة الأصحـاب، ج2، ص 700.

(2)(بغل).

(3)الدينوري ، الأخبار الطوال، ص 189.

سياسة وحرب فحسب، بل إلى مستهتر وغاش للأمة باستعمال المصاحف في خدعة كما صورتها معظم مصادر وكتب التاريخ الإسلامي التي تناولتها.

إنَّ تصوير المصادر لأبي الأعور وهو يقوم برفع المصحف تبدو وكأنها خدعة بالنسبة لفريقه الذي حاول تصويره وكأنه (المتحدث بلسان الإسلام)، وعليه يستطيع القارئ استشفاف ما توحي به الروايات من أن هذا الفعل - الذي قام به في حقيقته - بمثابة بديل عنه، خدعة لن يكشفها سوى أن مفاهيم لغة الأيديولوجية المغلفة بها لن تظهر إلا لاحقًا بعد أن يكون من قام بها قد أحرز نجاحًا ما على خصوم سياسيين في الأصل.

إن الصفة الظاهرة إذًا لما قام به أبو الأعور في عملية رفع المصاحف أنها أتاحت له (وفريقه) منفذا طارئًا هم في أشد الحاجة له، ممر وحصن لا يمكن اختراقه وهو النص القرآني، وعليه يكون فريق أبي الأعور وضع عليًّا - في ظروف هذا التناقض - أمام خيارين:

- الأول الامتثال (لكنه امتثال بطعم الهزيمة).
- الثاني مصادرة النص القرآني وإيجاد نص شرعي بديل (لكنه ليس القرآن) وهذا لن يكون مقبولًا، وعليه تم الالتجاء والقبول بالأمر الأول.

كالعادة إذًا النصوص التي جعلت دور أبي الأعور دورًا تحريضيًا بامتياز في الفتنة نجحت مرة أخرى في تعبئة المناخ

لقبـول كل مذمـة ونقيصـة ترتبـط بـه فيـما بعـد، حتـى وإن كان تصرفـه قـد أمـلاه الواقـع السـياسي وفرضتـه عليـه الأحـداث. إنهـا قضيـة ربـط التاريخـي بالأخلاقـي وبالدينـي، التـي نجـح الـرواة والمؤرخـون في رسـمها في شـكل مشـاهد، وجعلـت قـارئ النصـوص يسـلم بـما يقـرأ ويعتـبره إخبـارًا تاريخيًـا حقيقيًـا. فهـذا ابـن أَعْثَـم الكـوفي يذكـر أن معاويـة قـام في النـاس خطيبًـا:" أنتـم أهـل الحـق، وقـد قـام بأمـور النـاس أبغـض النـاس إلي عـليّ بـن أبي طالـب، ولنخوضـن إليـه حومـات المـوت[1]..."، وأكمـل كلامًـا ومـن ثـم قـام أبـو الأعـور فقـال " يـا معاويـة! إنـك والله مـا تسـتطيع أن تـضرب النـاس بمثـل مـا يضربهـم عـليٌّ بـن أبي طالـب! ولا يرجعـون مـن أمـرك إلى مـا يرجعـون إليـه مـن عـليّ، وإنـك لتحملنـا عـلى أمـر لـو تركتـه لحملنـاك عليـه، ونحـن معـك عليـه "[2]. دعنـا ممـا تحملـه الروايـة مـن عبـارات تحريضيـة بامتيـاز، لكـن هـل مـن المقبـول الإصرار عـلى الحشـد العـالي لعبـارات الشـحن التـي تجعـل أبـا الأعـور هـو المـصر الرئيـس عـلى المـضي قدمًـا في الـصراع أيًّـا كانـت النتائـج والتبعـات، بـل والرافـض وعـلى نحـوٍ قاطـع لأي فرصـة مـن فـرص السـلام.

نـراه (ابـن أعثـم الكـوفي) يتنـاول في موضـع آخـر قـول أبي الأعـور: "يـا معاويـة! إننـا لـو شـهدنا مقتـل عثـمان وعرفنـا مـن قتلـه بأعيانهـم لمـا دخلنـا في ذلـك الشـك، ولكننـا نصدقـك عـلى

(1)ابن أعثم الكوفي ، الفتوح، ج2، ص532.

(2)ابن أعثم الكوفي ، نفسه ، ج 2، ص532.

ما غاب- والسلام"[1]. يظهر الإصرار على إظهار أبي الأعور في كلا المشهدين بصورة تحريضية (لا أخلاقية)، ففي هذه المواضع (الفتنة) لا يأتي ذكره - في أغلب الأحيان - إلا وهو يتخذ أشد المواقف تجاه (عليّ) ويمارس الحيل.

الغريب أن نكتشف لاحقًا - بعد انتهاء صفين والتحكيم ومع استعراض الروايات - أن أبا الأعور لم يكن له حضور في الاتفاقيات التي جرت وترتبت على وقف القتال، إذ لا ذكر تاريخي له في الاجتماع الذي تم الاتفاق فيه على حضور الحكمين والمُعين في رمضان عام 37هـ، بعد ثمانية أشهر من القتال[2]. يبدو كذلك أن دور المصلح الذي أسنده ابن أعثم الكوفي لأبي الأعور في الدعوة للحكم بالقرآن لا يتسق مع صورته التي رسمها له هو ذاته (صورة الغش واستغلال أو التلاعب بالنص القرآني). فقط إذًا تتلون دعواه للسلم والإصلاح بلون الدعوة إلى الغش (لا أكثر).

هكذا حالت معظم هذه الحوادث دون ظهور أي أمل لتحسين صورة أبي الأعور لاحقًا في القراءة التاريخية.

بغض النظر عن تقويم الأفكار، والأسباب التي انتهجها معاوية، ومدى توافقها مع سياقات المسار التاريخي لإدارة الصراع في مشهد الصراع الملحمي الأول بين المسلمين،

---

(1)نفسه ، ج2، ص565.

(2)الطبري، تاريخ الرسل والملوك ، ج5، ص 53 54-.

فإن تلك المعطيات ربما تعطي تصورًا أكثر نضجا لمسببات التغيير والفعل التي اتخذتها مثل هذه الشخصيات الإسلامية، معطيات ومسببات كانت خطوة متقدمة تاريخيًا نحو شكل من أشكال التحول الكيفي الذي هيأ لمرحلة التغيير السياسي. لقد استطاعت تلك المعطيات والمواقف التي اتُخذت أن تكون فيما بعد الأسس للإطر السياسية المناسبة لمنظومة السلطة، التي استخدمتها وكانت أحد أهم أدوات الاستقرار والتمكين في الحكم بالنسبة لها.

إن انخراط أبي الأعور في أية مبادرة يقدمها جيش معاوية كان انخراطًا طبيعيًا ومنطقيًا، فالدعوة مثلًا للمفاوضات ووقف القتال كانت دعوة نموذجية منطقيًّا لوقف الخسائر لكلًا من الطرفين، نقول ذلك دون أن نُهمل أن مصادر التاريخ ربما حاولت الإيحاء أو تحقيق الربط بقضية الولاءات والتحالفات، ونقصد الحلف القديم بين (القرشية وبني سُلَيْم). فهما الحليفان الرئيسان ضد النبي ﷺ، فبني سُلَيْم كان لهم يد في موقعة بئر معونة والرجيع[1]، حيث يذكر البلاذري

(1) الكدر، ماء من مياه بني سليم، ففي السنة الثانية بعد الهجرة تواترت أنباء عن أن بني سليم تحشد لغزو المدينة، الأمر الذي استدعى تحرك قوات لمواجهة هذا التهديد. وقد باغتهم الرسول ﷺ بالفعل في موضع الكُدر – وهو ماء لبني سليم يقع في طريق مكة والشام، وانسحب بنو سليم وتركوا خلفهم بعض الغنائم، وأقام النبي ﷺ في ديارهم ثلاثة أيام، ثم رجع إلى المدينة. – ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص46، (غزوة بنى سليم بالكدر).

أنـه في العـام الثالـث الهجـري خـرج الرسـول ﷺ إليهـم " لكنهـم كانـوا قـد تفرقـوا فانـصرف عنهـم[1]. إذًا هـل كان للغـدرِ ببعثـة الرسـول ﷺ مـن بعـض بنـي سـليم في بئـر معونـة والتـي اتهـم فيهـا (الأب) سـابقًا دورٌ مـا في اسـتمرار ملاحقـة (الابـن) أبي الأعـور تاريخيًـا وتجريمـه[2].

أحسـب أن الإجابـة ليسـت فيـما تـم حشـده مـن مشـاهد لا أخلاقيـة كان أبـو الأعـور حـاضرًا فيهـا. الإجابـة الحقيقيـة تصبـح كاذبـةً لـو تجاهلـت حقيقـة الـدور الـذي كان يلعبـة، ولـو تجاهلـت أيضًـا طبيعـة الصراعـات التـي كانـت تـدور ويصنعهـا مـن خـلال منظومـة - كان هـو نفسـه - أحـد الفاعلـين فيهـا، نزعـم أن أبـا الأعـور السـلمي لم يكـن لـه حضـور قـوى في بعـض المواقـع الاجتماعيـة، عكـس حضـوره العسـكري، الـذي وقـف نفسـه مـن خلالـه لخدمـة معسـكر معاويـة بـن أبي سـفيان، وسـخر قوَّتـه في توطيـد أركان خلافـة بنـي أميـة، وحراسـتها، وحمايـة سـلطانها، لكـن هـذا الزعـم قـد ينقضـه مـا جـاء "أَنَّ عُمَـرَ بْـنَ الْخَطَّـابِ كَتَـبَ ابْعَثُـوا إِلَيَّ مِـنْ كُلِّ بَلَـدٍ بِأَفْضَلِهِـمْ، فجـاء أبـو الأعـور واحـدًا منهـم"[3].

(1) البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، ج1، ص 311.
(2) البلاذري، المصدر نفسه، ج1، ص 375.
(3) ابن عساكر، تاريخ دمشق ، ج3، ص 107.

ملامح الانبعاث الأيديولوجي

أبو الأعور - البداية والنهاية

إنَّ المسألة التي شكلت أساسًا لطرح نفسها في نظرنا أن معظم الروايات التاريخية التي تناولت أبا الأعور السلمي، وعلى الرغم من كل ما أثقلها من تجريح وانتقاد، أثبت ليس إغفال أن هذه الشخصية تم استهدافها فقط، إنما أثبت غياب تناولها على نحوٍ منطقي، شكل يعيد قراءة أبجديتها في مصادر التاريخ من منطلق بعيد عن الاستهداف والاتهام، أبو الأعور قيادة عسكرية، قيادة سياسية ، قيادة امتلكت مناط الصراع من أجل البقاء في إطار تحديات لها خصوصيتها، سواء من جهة خصوصيتها الزمانية أو المكانية، إن مختلف الروايات، المتقدمة منها والمتأخرة، تتفق على أن أبا الأعور السلمي طرح نفسه في الصراع الدائر، كقائد حرب وسياسي من دون أدلجة، واستطاع أن ينال ثقة أعلى سلطة، تلك التي كان يمثلها معاوية بن أبي سفيان منفردًا في الشام. في المقابل نجد أن الرواية التاريخية حاولت الانتصار الأدبي لمعسكر الخليفة عليّ (ابن عم النبي وصهره)، دون اللجوء لتشويه وتسفيه شخص معاوية (كاتب الوحي السابق والصحابي الجليل)، فلجأت إلى إلصاق عمليات اللعن والتشويه والتسفيه بالقيادات التي حوله، والتي كان من بينها أبو الأعور السلمي وغيره، كعمرو بن العاص مثلًا، ووصفتهم بالطامعين والطامحين للمكاسب السياسية والاقتصادية والمفتقرين للمبادئ الدينية.

فحينما نفحص واقع اللعن هذا نكتشف أنه لا يظهر بقوة إلا حين يكون أبو الأعور في معسكر معاوية. نلاحظ كذلك أن المؤرخين لم يحاولوا فك الالتباس والخلط بين(الأب) و(الابن)، مما يعطي الدليل على عدم رغبتهم في ذلك. دون هذا لا يمكننا أن نفهم وجود أبي الأعور - وهو من لعنه الرسول - كقائد في اليرموك على كردوس من كراديسها وقائد في الفتوحات البحرية ، كما تؤكد ذلك المصادر غير الإسلامية[1].

في ضوء هذا النسيج الإخباري لا يمكننا أن نفهم رضا الخليفة عُمر أن يكون أبو الأعور أحد قادة جيوش أبي عبيدة بن الجراح، في عمليات الفتوح وإخضاع أهل الشام وما حولها لاسيما لو كان على علم بمسألة اللعن هذه، وما كان أبو الأعور أن يكون قائدًا لجيش المسلمين في غزو قبرص سنة 27 هـ، وغزوهم عمورية قبل ذلك. فحتى قصة الخطاب المنسوب لعثمان والذي تقول الرواية أن أبا الأعور حمله، فهو يرتدي أيضًا كساءً قصصيًا، ويطرح في حقيقة الأمر مسألة أخرى وإن كانت ثانوية.

فهذا الخطاب سواء أكان موضوعًا أم لا كأنه أتى ليُحمل معاوية - لاحقًا - جزءًا من المسئولية المباشرة عن مقتل عثمان، وذلك لأن أبا الأعور السلمي (المتهم بحمله) ارتبط بقوة بمعسكر معاوية. في هذا السياق تأتي رواية سرقة كتاب

(1)أبو الأعور القائد العسكري في كتابات غير المسلمين.

مـن أبي الأعـور حـين بعثـه معاويـة لمـصر كـوالٍ لها بعـد إمسـاك عمـرو بـن العـاص لخراجهـا فقـد أشـار ابـن عسـاكر " إنَّ عمـرًا بـن العـاص احتجـز خـراج مـصر فعزلـه معاويـة واسـتعمل أبـا الأعـور السـلمي، فبلـغ عمـرو أن أبـا الأعـور سـيقدم ومعـه كتـاب العـزل فصنـع طعامًـا، فلـما قَـدِمَ أبـو الأعـور السـلمي وأخـرج كتـاب معاويـة قـال عمـرو، دع الكتـاب وكُل، فوضعـه وجعـل يـأكل، فاسـتدار وردان - وزيـر عمـرو بـن العـاص - فأخـذ الكتـاب فلـما فـرغ أبـو الأعـور طلـب الكتـاب فلـم يـر شـيئًا، فقـال لـه عمـرو أليـس إنـما جئتنـا زائـرًا لنحسـن إليـك ونكرمـك، قـال اسـتعملني أمـير المؤمنـين وعزلـك، قـال مهـلًا لا تظهـرنَّ هـذا، نحـن نصلـك ونحسـن جائزتـك، وبلـغ معاويـة الخـبر فضحـك وأقـر عمـرا عـلى مـصر "[1]، إن مـا يميـز هـذه الروايـة أنهـا تشـكل صراعًـا بـين ثلاثـة أطـراف ورمـوز (الدهـاء المنسـوب لعمـرو بـن العـاص يتضـح مـرة أخـرى ولكـن هـذه المـرة يسـتخدم ضـد معسـكر معاويـة بذاتـه وضـد رجالاتـه، كـما أن المتأمـل في القصـة يجـد أنهـا أشـبه بالـسرد المتطـور لإثبـات الصفـات الشـخصية لعمـرو بـن العـاص مقابـل معاويـة. وأن اسـتخدام أبي الأعـور قـد وُظِّـف في النـص لاسـتكمال القصـة على نحـوٍ غـير مبـاشر، واسـتكمالًا للحبكـة القصصية.وعـلى الرغـم مـن البسـاطة التـي يتسـم بهـا نسـيجها يمكـن الاعتقـاد أنهـا قـد تكـون وضعـت لتؤسـس لمغـزى أعمـق، وتدلـل عـلى الـصراع

(1)ابن عساكر، تاريخ دمشق ، ج 62، ص 432.

الدائـر بـين قـادة معـارك الفتنـة الكـبرى في معسـكر معاويـة عـلى تقاسـم الغنائـم، وجعلهـم مجـرد أصحـاب مطامـح شـخصية[1].

يُنسـب كذلـك لأبي الأعـور قـول الشـعر، ثـم تلبسـه لبـاس الفخـر الجاهـلي المذمـوم. يذكـر ابـن الأعثـم الكـوفي أنـه – وبعـد أن طعـن الأشـعث شرحبيـل – قـال أبـو الأعـور: " يـا شرحبيـل طعنـك الأشـعث بـن قيس، فقـال: نعـم وهـو سـيد في قومـه وأنـا سـيد في قومـي، فـإن كنـت صادقًـا فاخـرج إليـه فخـرج أبـو الأعـور وجعـل يرتجـز: أنـا أبـو الأعـور واسـمي عمـرو... ثـم حمـل عليـه الأشـعث فطعنـه طعنـةً كادت أن تـأتي عـلى نفسـه، فـولى عنـه أبـو الأعـور جريحًـا[2] (بالرغـم مـن أن أغلـب الروايـات لا تتحـدث عـن إصابـة مُنـي بهـا أبـو الأعـور في الصراعـات التـي كانـت تـدور في صفـين، خاصـة وابـن الأعثـم يقـول كادت تـأتي عـلى نفسـه)، وأن أبـا الأعـور طـوال الحـرب والـصراع كانـت تصـوره الروايـات بكامـل قدرتـه الجسـدية والعقليـة ولم يغـب عـن السـاحة في أي وقت مـن الأوقـات، بـل أن ابـن أعثـم الكـوفي بذاتـه يعطـي أبـا الأعـور دورًا كبـيرًا في نهايـة المعركـة، وبعـد ذلـك بوقـت قصـير يتـولى حمـل المصاحـف منهيًـا الـصراع بالخدعـة والدعـوة إلى التحكيـم.

إن القــراءة المُحايــدة، وتفكيــك الروايــات والنصــوص المتعلقــة بــأبي الأعــور والمســار المقبــول لهــا منطقيًــا يدلــل عــلى

(1) انظر خالد كشك – المقدمة.
The Historians' Muawiya: The Depiction of Muawiya in the Early Islamic Sources- VDM Verlag Dr. Müller (2008)

(2) ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج3، ص 18.

أنه امتلك هذه الصفات والخصائص التي أهلته ليكون من خاصة قادة معاوية وقرينًا لعمرو بن العاص وأحد صناع القرار والمقربين من دوائر الحكم (أحد الرؤساء القبليين ومن زعاماتها). أبو الأعور لايعدو كونه (مقاتلًا فاعلًا وسياسيًّا ماهرًا وقائدًا شارك بكثافة وأسهم في التغيير السياسي في القرن الأول الهجري). كان من كبار قادة الفتوح الإسلامية وكان له دور في فتح طبرية"[1] والتي ربما يكون بلاؤه في المعارك أحد أسباب تسلمه مهمة قيادة الجيش المتوجه لها[2]. فقد استُخْلِفَ أبو الأعور عَلَى الأُرْدُنِّ[3] وهو أحد قيادات معاوية المؤثرين الموكَّل رأسًا من قبله لحجز وصد جيش الخليفة عليّ وإيقاف تقدمه. وكان أحد أهم من استشارهم معاوية وأخذ برأيهم في تدعيم سلطته بمصر بعد توقف القتال، حيث يذكر أن معاوية جمع - بعد أن سلم أهل الشام له بالخلافة بدومة الجندل - أُمَرَاءَهُ - وكان منهم أبو الأعور وعَمْرَو بْن الْعَاصِ - فاستشارهم في المسير إلى مِصْرَ[4].

إن استعراض الأدوار التاريخية التي شارك فيها أبو الأعور وتحرك من خلالها في بداية القرن الهجري الأول توحي أنه كان

---

(1)ابن كثير، البداية والنهاية، ص31.

(2)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص444.

(3)ابن كثير، نفسه، ج7، ص 54 (نقلاً عن وداد القاضي).
Population census and land surveys under the Umayyads (41-132/661-750) der Islam, 2006/ Vol.83.

(4)ابن كثير، نفسه، ج7، ص 347.

يتحـرك مـن منطلقـات سياسـية واقعيـة سـاهم بهـا في التغيـير. كان أبـو الأعـور فيـما يبـدو لنـا يتحـرك بعـد تقييـم الأوضـاع والحـوادث الجاريـة فعـلًا، أمـا الأهـداف الدينيـة والأيديولوجيـة المستوحاة مـن قبـل الـرواة والمؤرخـين فهـي لا تصمـد كثـيرًا إذا مـا نظرنـا إلى أعمالـه مـن منظـورٍ خـارج دائـرة هـذا التوظيـف.

إذًا يمكننـا أن نتفهـم أن هنـاك عوامـل دفعـت الـرواة أن يلبسـوه كسـاء السياسـة والانحيـاز، فالدوافـع (الأبـرز) تتمثـل في الـصراع السـياسي والتصـارع السـلطوي الـذي كان يجـري بـين أطـراف النـزاع (عـلي ومعاويـة). فقـد جـاءت أغلـب الأدوار التاريخيـة في النصـوص والروايـات التـي تتنـاول شـخصيته - سـواء مـا كان هـو صانعًـا للحـدث نفسـه، أو مـا كان مُنغمِسًـا في خضمـه واسـتتبعه - لتبـدو لنـا - إذا مـا جُـردت ممـا علـق بهـا - عاكسـة للحالـة السياسـية الطبيعيـة التـي صبغـت الأحـداث في تلـك الفـترة. فأبـو الأعـور وأمثالـه يتحركـون مـن منطلقـات القـدرة عـلى تحقيـق التحالفـات مـع الأطـراف التـي تسـتطيع أن تقـدم مكتسـبات ومصالـح. فالخـير في هـذه الفـترة خـير نسـبي، لا يتطابـق مـع مفهـوم الخـير كـما يتبلـور عنـد الـرواة حـين يدينـون الأطـراف المناهضـة لمـا اعتـبروه مُقَدَّسًـا. فأبـو الأعـور شـخصية وزعامـة قبليـة وقيـادة سياسـية وعسـكرية كانـت تتحـرك وفـق مصالـح ومبـدأ المكسـب والخسـارة وبعيـدًا عـن دلالات الدينـي وإسـقاطاته التـي ألبسـتها لـه كتـب التاريـخ. لكـن، لأسـباب ودوافـع كثـيرة ومعقـدة تمـت إعـادة صناعـة هـذه النصـوص

والمرويـات فيـما بعـد وفـق رؤى المصالـح والتوجهـات المطلوبـة. وربـما تكمـن هنـا أصـل إشـكالية أبي الأعـور السُّـلمي في مصـادر التاريـخ.

إن طبيعـة الفعـل السـياسي لأبي الأعـور هـي طبيعـة صادقـة لتمثيـل السياسـيين في ذلـك العـصر، إنـه ببسـاطة أحـد زعـماء القبائـل الفاعلـين بقـوة. فـكل فعـل سـياسي غالبًـا كان مكلـلًا بالنجـاح، فقـط صناعـة التاريـخ بأحكامهـا المسـبقة لم تنظـر إليـه سـوى مـن زاويـة مثاليـة وألقـت عليـه وزر الذنـب بأنـه لم يكـن الشـخص النموذجـي المطلـوب. فسـيرة أبي الأعـور لا تتطلـب – كـما لا تسـتدعي – أن نقـرأ تحركاتـه مـن منطلقـات خيريـة أو أخلاقيـة، عـلى مقيـاس الخـير والـشر، الحـق والباطـل، بـل قراءتهـا مـن مُنطلـق المصالـح السياسـية للأطـراف، أو المنظومـة التـي كان يعمـل داخلهـا.

أبـو الأعـور: الشـخصية التاريخيـة لم ينجـح الـرواة في تجاهلهـا أو الاسـتغناء عنهـا، وذلـك لسـبب بسـيط وهـو أنهـا كانـت تمثـل المحـرك الواقعـي والمنطقـي للأحـداث بعيـدًا عـن النموذجيـة التـي لا يمكـن أن يكـون لهـا تأثـير عـلى الواقـع التاريخـي. كان أبـو الأعـور يتحـرك عـلى نحـو طبيعـي، يقاتـل كـما هـو مطلـوب منـه ويتوقـف كـما هـو مطلـوب منـه، وليـس وفقًـا لأيديولوجيـا قـد تقطعـه مـن المنظومـة التـي وُجِـدَ فيهـا.

هـو زعيـم قبـلي وقيـادي قبـل أن يكـون شـخصية دينيـة، لـذا ليـس مطلوبًـا منـه أن يـؤدي أكثـر مـن هـذا الـدور، ومـن

ثـمَّ لـو تـم حـذف المشـاهد التاريخيـة التـي كان فيهـا أبـو الأعـور يتحـرك بهـذه المنطقيـة العاليـة فـإن النـصَّ سـيختلُّ حتـمًا، ويصبـح منقوصًـا وغـير مكتمـل. إنهـا الحقيقـة التـي مـا كان بإمـكان المؤرخـين القدامـى أن يقدموهـا لنـا. فرغـم الاتهامـات والتشـويه والتشـكيك التـي طالـت شـخصية أبي الأعـور، لم تسـتطع الروايـة التاريخيـة الإسـلامية أن تسـتبطن واقعيـة الـدور الـذي لعبـه في المشـهد والنـص التاريخـي، وأصر أصحابهـا عـلى توظيـف هـذا العمـل التاريخـي لتلقـي عليـه أسـباب اللـوم والشـيطنة. أبـو الأعـور أنمـوذج آخـر مـن النـماذج التـي كانـت تتحـرك وفـق مقيـاس المكسـب والخسـارة (البراجماتيـة)، كل مـا في الأمـر أن هـذا المبـدأ لم تسـتوعبه الروايـة بسـبب انحيازهـا إلى أدوات غيرهـا (المثاليـة، الخـير، الـشر، القداسـة، الحـق، الباطل).....إلـخ.

الفصل

الثالث

3

عبد اللّه بن خازم

«علم من عرفني أني بصير بالفرص،
وثاب عليها، وقـاف عنـد المهالك»

"الاستقطاب النخبوي"

من غير المفاجئ أن يشكل ابن خازم نمطًا مختلفًا لطبقة الشخصيات والزعامات الإسلامية (البراجماتية) الذين رَصدت المصادر التاريخية على نحوٍ عفوي جوانب من صراعاتهم لخلق مساحات ذاتية في الفعل السياسي الإسلامي في القرن الأول.

لقد تحرك ابن خازم في كثير من الأوقات، وراح يوسع وبقوة لضمان مكتسبات شخصية له بعد أن أملت الأحداث المستجدة على الساحة السياسية أن يتحرك في عدة مرات بدافع ذاتي (ومنفردًا).

لم يُمنح ابن خازم فرصة الترقي السياسي، بل خلقها بإمكانات شخصية، وبعمل مصلحي دؤوب، عمل لم يغفل معه احتمالات التطور لنيل مصالح ومكتسبات وأدوار كان يدرك مدى صعوبتها وخطورتها، ولم يكن مرفوضًا في كثير من المرات تمسكه بالعصبية القبلية من أجل تحقيق هذه المزايا والوصول لها.

تقــرُّ جميــع المصــادر أن ابــن خــازم وصــل لمــا وصــل إليــه مــن ترقــي قيــادي وســلطوي عــبر (خدعــة)، وبهــذا يكــون أنموذجــا آخــر مــن هــذه القيــادات والزعامــات الإســلامية التــي تــم تحريكهــا بــين ثنايــا الحــوادث التاريخيــة بعيــدًا عــن الحمايــة التقديســية، وعــن المقاييــس المتعلقــة بجدليــة الخــير والــشر.

لعــل مــا يميــز ابــن خــازم عــن الآخريــن أنــه امتلــك في وقــت مبكــر - وليــس دائــمًا- تصــورًا لمــا يريــد، حيــث يمكــن اعتبــاره نمــوذج اتُخــذ فيــه طبيعــة التجربــة كوســيلة للوصــول إلى الســلطة، وكحقيقــة تخــدم بجانــب الطمــوح منظومــة الســلطة والقبيلــة التــي تنتمــي إليهــا.

فكيــف قــدم ابــن خــازم نفســه، وكيــف وصــل للســلطة، وكيــف حــاول الاســتقلال بهــا لاحقًــا، بــل وكيــف وقــف في فــترة مــن الفــترات بمصــاف قيــادات المنظومــة (المعارضــة) المقبولــة للحكــم (كابــن الزبــير ومصعــب والحســين).

إن النظــر لإحــدى الروايــات - والتــي كان ابــن خــازم حاضرًا فيهــا (كرمــز قيــادي قبــلي)، وتشــير لاتخــاذ بعــض القــادة شــعار

الديـن والدعـوة لنـصرة الحـق وإعادتـه لأصحابـه - سـتوضح لنـا كيـف تحتـم في بعـض الأحيـان والظـروف عـلى مـن قـاد هـذه الأفعـال وشـارك فيهـا أن يأخـذ في الاعتبـار ضرورة توجيـه الخطـاب، وتقديـم القرائـن وتغليـف الشـعارات والدعـوات والأهـداف بأسـباب ومسـوغات مقبولـة دينيًّـا (خصوصًـا مـن قبـل العامـة والأتبـاع).

حيـث يـرد في الأخبـار الطـوال للدينـوري: " لمـا حـوصر المختـار ابـن عبيـد الثقفـي في إحـدى المـرات، قـال للسـائب بـن مالـك الأشـعري:" أيهـا الشـيخ، أخـرج بنـا نقاتـل عـلى أحسـابنا لا عـلى الديـن، فاسـترجع السـائب، وقـال: يـا أبـا إسـحق، لقـد ظـن النـاس أن قيامـك بهـذا الأمـر دينونـة، فقـال المختـار: لا، لعمـري مـا كان إلا لطلـب دُنيـا، فـإني رأيـت عبـد الملـك بـن مـروان قـد غلـب عـلى الشـام، وعبـد الله بـن الزبـير عـلى الحجـاز، ومصعبًـا عـلى البـصرة، ونجـدة الحـروري عـلى العـروض، وعبـد الله بـن خـازم عـلى خراسـان، ولسـت بـدون واحـد منهـم، ولكـن مـا كنـت أقـدر عـلى مـا أردت إلا بالدعـاء إلى الطلـب بثـأر الحسـين"[1].

للوهلـة الأولى تبـدو هـذه الروايـة المتعلقـة بعـدة رمـوز قبليـة ودينيـة مـن القـرن الأول الهجـري وكأنهـا روايـة (اسـتثنائية منتقـاة)، إذ كان مـن غـير المألـوف أن يتـم الإفصـاح مـن قبـل رمـز قبـلي وسـياسي كالمختـار (بعـد الفشـل في مواجهـة الأمويـين)

(1)الدينوري، الأخبار الطوال، ج1، ص 307 .

أن الدعـوة للثـأر للحسـين كانـت بمثابـة مطيـة للحصـول عـلى المكاسِـب السياسـية، بعيـدًا عـن الواعـز الدينـي والأخلاقـي الـذي كان قـد تبنَّـاه سـابقًا. لكـن تبـدو هـذه الروايـة أكثـر نضجًـا في التعبـير عـن (طرحهـا) إذا مـا نظرنـا لهـا مـن نفـس المنطـق الـذي يتناولـه المختـار، ويـرد فيـه بقيـة الشـخصيات، إنـه منطـق (المصالـح) والمغانـم والارتقـاء والطمـوح والظهـور والاحتشـاد القبـلي. منطلـق ينـدر الإفصـاح العلنـي عنـه (للأتبـاع)، وإنـما يقتـضي إدراكـه في تفسـير الأحـداث ومجرياتهـا، تعطينـا هـذه الروايـة دلالـة حقيقـة عـلى مطالـب السياسـيين في ذلـك الوقـت، ومـن بينهـم شـخص عبـد الله بـن خـازم وسـعيه لإرسـاء مسـار نموذجـي لتطلعاتـه، كذلـك تصبـح مثـل تلـك الروايـات تنهيجًـا لكثـير مـن مثـل هـذه القيـادات الإسـلامية المبكـرة وتفسـيرًا لهـا، ابـن خـازم أحـد الملهمـين لشـخصيات الفعـل السـياسي، قيـادي مسـلم باحـث عـن أرض لتُحكـم، وسُـلطة لتُـمارَس، وإنجـاز حقيقـي عـلى أرض الواقـع.

عبدالله بن خازم كمال تاريخي مفقود:

ينشأ الصراع على نحو موسع من خلال شخصيات متناسقة ومتوازنة تتسم بسمات أصيلة لها هدف واضح تسعى إليه بإصرار وإيجابية، وتواجه في سبيله العقبات، ولن يكون الصراع كاملًا ما لم ينتج عنه تغير على أرض الواقع، عبد الله بن خازم السلمي[1] بن أسماء بن الصلت بن عوف بن امرئ القيس بن سليم السلمي، أحد الزعامات التي تبدأ ملامحها بالظهور من خلال المقدمات المنطقية (المألوفة) تاريخيًّا. فهو كغيره من مثل تلك القيادات التي ركزت طاقاتها وساهمت في فتوحات بلاد ما وراء النهر والجناح الشرقي للدولة الإسلامية، واستطاع من خلال نجاحاته

(1) عبد الله بن خازم (000 – 72 هـ) بن أسماء بن الصلت بن حبيب بن ارثة بن هلال بن حرام بن السمال بن عوف بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم السليمي، أبو صالح البصري. قيل أن له صحبة وقيل لا، جاء من صفاته أنه أسود اللون كثير الشعر، يتعمم بعمامة خز سوداء، يلبسها في الجمع والأعياد والحرب، ويقول: كسانيها رسول الله ﷺ، راجع، العسكري، تصحيفات المحدثين، ج1، ص 547؛ البخاري، تخريج الأحاديث المرفوعة المسندة في كتاب التاريخ الكبير، ج2، ص 211؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 359؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج3، ص 74؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج5، ص385؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج5، ص 171؛ خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج4، ص 84.

(فترة من الفترات) اعتلاء السلطة في خراسان، كما ساهم في وأد كثير من ثوراتها[1].

ابن خازم هو كذلك أحد من تولوا القيادة في عدد من الحملات الإسلامية وقاد الجيوش. ذكره الإمام البخاري في كتابه "التاريخ[2]" وأورد نصًّا " عن عبد الله بن سعيد بن الأزرق عن أبيه قال "رأيت رجلًا ببخارى من أصحاب النبي ﷺ، واسمه عبد الله بن خازم[3]"، كما أشار له المزي أنه روى عن النبي ﷺ، وروى البعض عن طريقه[4]. لكن أبو نعيم الأصبهاني ينتحي بنا جانبًا (مخالفًا) إذ يؤكد أنه لا يُعْتَدّ بكلامه ولا صحبة له[5] وهو ما يوافقه فيه الذهبي[6].

(1) خاصة بعد انهيار السلطة الساسانية سنة 21 هـ في معركة نهاوند، وهي إحدى أهم المعارك الفاصلة في الفتح الإسلامي لفارس، وقعت في خلافة عمر بن الخطاب، وقيل سنة 18 أو 19 هـ قرب بلدة نهاوند في فارس، وبانتصار المسلمين انتهى حكم الدولة الساسانية – انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج1، ص 453.

(2) البخاري، التاريخ الكبير، ج4، ص 67.

(3) المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ج14، ص 455.

(4) مِثْل: سعد بن عثمان الرازي، وهو سعد بن الأزرق والد عبد الله الدشتكي، راجع المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ج14، ص 442.

(5) الأصبهاني، معرفة الصحابة، ص 405.

(6) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج5، ص434.

إذًا تبقى صحبة ابن خازم أمرًا مشكوكًا فيه، وليبقى قائمًا- كما هو الحال مع كثير من مثل هذه الشخصيات - ما يحول دون إحرازها شرف الصحبة التي تؤهل صاحبها (إذا ما كان سياسيًا أو قياديًّا عسكريًّا) إلى شكلٍ من أشكال الكمال التاريخي، والبريق الأيديولوجي في كتابات المؤرخين والإخباريين الأوائل.

حكم خراسان... هل تبرر الغاية الخدعة؟!

لم يكن فتح خراسان بالنسبة للخلافة الإسلامية مستقرًا في بداياته الأولى، إلا أن الثابت أن خراسان استقرت فعليًّا ضمن حدود دولة الإسلام في عهد عثمان بن عفان، حينما فتحها عبد الله بن عامر في ولايته الأولى للبصرة سنة 28هـ[1]، حيث قسم ابن عامر خراسان لأجزاء (أرباعًا) على كل ربع أحد الولاة[2]، وتعتبر "نيسابور[3]" و"مرو[4]"

---

(1)وقيل 29 هـ. انظر: رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة، ص 814.

(2)صلاح طهبوب، العصر الأموي، ص 140.

(3)نيسابور: مدينة مشهورة في غرب خراسان أول من بناها ابن الملك أردشير شابور، ويلفظ اسمها "نيشابور"، وهو مشتق من "نيو شاه بور" في الفارسية القديمة - انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج1، ص131.

(4)من أشهر مدن خراسان وأقدمها، وروى بريدة بن الحصيب أن رسول الله ﷺ، قال: يا بريدة إنه ستبعث من بعدي بعوثًا، فإذا بعثت فكن في بعث المشرق، ثم في بعث خراسان، ثم في بعث أرض يقال لها مرو، فإذا أتيتها فانزل مدينتها، فإنه بناها ذو القرنين وصلى فيها عزير، وأنهارها تجري بالبركة، على كل نقب منها ملك شاهر سيفه يدفع عن أهله السوء إلى يوم القيامة. فقدمها بريدة غازيًا وأقام بها إلى أن مات- القزويني، أخبار البلاد وأثار العباد، ج1، ص 186.

و"هـــــراة[1]" و"بلـخ"[2]، أهـم هـذه الربـوع ومواطـن اسـتقرار العـرب الأكثـر ثبـات فيـما بعـد.

بـاشر ابـن خـازم حكمـه هنـاك أمـيرًا للحـرب، فـأدار عمليـة ناجحـة في التصـدي (لقـارن النهونـدي) بعـد أن انقلبـت قبائـل عـدة عـلى الحكـم الإسـلامي، وحاولـت فـك ارتباطهـا بالسـلطة المركزيـة في المدينـة (التـي لم تكـن قـد اعتـادت عليهـا بعـد)، تظهـر صـورة ابـن خـازم بالنسـبة لخراسـان وتعزيـز قبضتـه عـلى خيـوط السـلطة فيهـا أكثـر وضوحًـا إبـان الـصراع العسـكري والسـياسي لاسـتكمال الفتـوح وصـد الثـورات، ففـي مشـهد انتقائـي نـادر- باسـتثناء - خدعـة عمـرو بـن العـاص في فتـح مـصر[3]، وأيضًـا

(1)أهـم وأعظـم مـدن خراسـان، ويقـال أن مـن بناهـا الإسـكندر الأكـبر، وأصبحـت هـــراة بعـد ذلـك نقطـة انطـلاق لفتـح بقيـة البلـدان الخراسـانية، = = فمنهـا سـير الأحنـف مطـرف بـن عبـد الله الشـخير العامـري القيـسي إلى "نيسـابور" والحـارث بـن حسـان البكـري الوائـلي الربعـي إلى سرخـس.

(2)مدنهـا الأربـع هـذه لاشـك كانـت عواصـم للإقليـم بصـورة منفـردة أو مجتمعـة في أوقـات مختلفـة، إضافـة لمدينـة بلـخ التـي تقـع بالقـرب مـن نهـر جيحـون.

(3)حينـما قـال لـه عمـر بـن الخطـاب إني مرسـل إليـك كتابًـا، وأمرتـك فيـه بالانـصراف عـن مـصر، فـإن أدركك قبـل أن تدخلهـا أو شـيئًا مـن أرضهـا فانـصرف، وإن دخلتهـا قبـل أن يأتيـك كتـابي فامـض لوجهـك، واسـتعن بـالله واسـتنصره.و قبـل بلوغـه مـصر وصلـه الكتـاب، فلـم يتسـلمه مـن حاملـه، حتـى شـارف العريـش، فأخـذ الكتـاب، وقـرأه عـلى أصحابـه.

مشـهد عـزل معاويـة لعمـرو عـن مـصر ومحاولـة توليتهـا لأبي الأعـور السلمي[1]"باسـتثناء هذيـن المشـهدين التاريخيـين، نلحـظ الأشــخاص القياديــة والزعامــات نفســها التــي تدفــع نحــو التوقـف للنظـر في المشـاهد التـي أنتجتهـا، فينقـل عـن الطـبري أن ابـن عامـر اسـتبطأ قيـس بـن الهيثـم ابـن عـم عبـد الله بـن خـازم بالخـراج فـأراد أن يعزلـه، فانتهـز ابـن خـازم الفرصـة ليعـرض عـلى ابـن عامـر أن يتـولى "هـو خراسـان "، وبالفعـل كتـب ابـن عامـر عهـدًا بذلـك لـه، وكان العهـد - مشروطًـا- بخـروج قيـس بـن الهيثـم منهـا[2].

أمـا ابـن الأثـير فقـد تنـاول الواقعـة بالقـول أن قيـس بـن هبـيرة وعبـد الله بـن خـازم وفـدًا إلى ابـن عامـر، وطلـب ابـن خـازم أن يكتـب لـه بالولايـة عـلى خراسـان إن خـرج عنهـا قيـس، فلـما قتـل عثـمان بـن عفـان أشـار ابـن خـازم عـلى قيـس بالخـروج مـن خراسـان للنظـر فيـما سـيكون بعـد مقتـل الخليفـة، ومـن ثـم قـام بإخـراج العهـد وثبـت عـلى خراسـان.

يمكننـا أن نتجـاوز إذًا (الخلـل) التاريخـي للتوفيـق مـا بـين عمليـة القتـال التـي جـرت مـن ابـن خـازم لقـارن وجيشـه سـنة 33م، ومـا بـين مقتـل عثـمان 35هـ، إلا أن الثابـت ومـا تـصر

---

(1)والتـي تـرد بشـأنها روايـة ابـن عسـاكر إن عمـرو بـن العـاص احتجـز خـراج مـصر فعزلـه معاويـة واسـتعمل أبـا الأعـور السـلمي، انظـر: ابـن عسـاكر، تاريـخ دمشـق، ج 62، ص 432.

(2)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 193.

عليـه مصـادر وكتـب التاريـخ أن تـولي ابـن خـازم لخراسـان جـرى (بخدعـة)، حيـث يؤكـد ذلـك أيضًـا ابـن عسـاكر مشـيرًا أن قيـس ابـن الهيثـم عندمـا استشـار ابـن خـازم في أمـر قـارن النهاونـدي الزاحـف لمقاتلـة المسـلمين بجيـش قـارب الأربعـين ألفًـا، قـال لـه ابـن خـازم "نفسـك نفسـك، أنـت متهيـب للعـدو ولا تـدري يأتيـك مـددٌ أم لا"[1]، ومـن ثـم وبعـد خـروج ابـن الهيثـم أخـرج ابـن خـازم عهـد ابـن عامـر بولايتـه عـلى خـراسان بعـد خـروج ابـن الهيثـم. وتسـجل أغلـب الروايـات في المصـادر التاريخيـة السـياق نفسـه.

لكـن - هـل (الخدعـة) التـي تمـت كانـت بالفعـل في حاجـة لـوازعٍ أخلاقـي، وهـو خـروج ابـن الهيثـم مـن البـلاد لتبريـر فعـل ابـن خـازم؟

و لنتوقـف عنـد كلـمات ابـن خـازم لابـن عامـر حـين ألـح عليـه في توليتـه خراسـان، حيـث يقـول الأول للأخـير: "إنـك وجهـت إلى خراسـان رجـلا ضعيفًـا، وإني أخـاف إن لقـي حربًـا أن ينهـزم بالنـاس فتهلـك خراسـان وتفتضـح أخوالـك[2]".

هـذه المفـردات ربـما تـشي للباحـث بإسـقاطات مـا (تصـب في الغالـب تجـاه القبليـة العصبيـة)، لكنهـا في المقابـل توضـح نمطيـة تفكـير جـدي، فهـذه القيـادات التـي وجـدت نفسـها في

(1) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج28، ص 12.

(2) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 193.

خضـم تنافـس المصالـح المتنامية الجديـدة ومواجهـات الـصراع الـذي تفجَّـر، واختـلاط الأوراق، ومفـرزات المؤامـرة التـي أودت بحيـاة اثنـين مـن الخلفـاء (حتـى الآن) مُطالَبَـةٌ بفعـل كل مـا بوسـعها لإدامـة تفوقهـا وتفـوق منظومتهـا، التـي تعمـل مـن أجلهـا، سـواء كانـت سـلطة أو قبيلـة أو عصبيـة مـا، إنهـا مفردات تقـدم لنـا تعبـيرًا واضحًـا عـن الرغبـة في جريـان هـذا الفعـل السـياسي عـبر أطـر القبيلـة والديـن.

يقـدم ابـن خـازم نفسـه بصـورة مبـاشرة عـلى أنـه يريـد السـلطة، بـل وربـما قـدم الجـواب الواضـح لابـن عامـر أنـه في حالـة الهزيمـة سـيفتضح أخـوال عبـد الله بـن عامـر وهـو منهـم.

مشـهد تجتمـع فيـه (واقعيـة ومنطقيـة) مـن قيـادة مدركـة لحدودهـا، وواثقـة مـن قدراتهـا ومـا تسـتطيع أن تقدمـه: عـرض مبـاشر مـن ابـن خـازم لابـن عامـر لتـولي السـلطة يتضمـن اسـتمرار نفـوذ المنظومـة السياسـية نفسـها، بضمانـات المحافظـة والاحتشـاد حـول القبيلـة (بدعـوى الخـوف مـن الهزيمـة).

سياقًا برجماتيًا (للسُّلطة[1])، تبرز أهم دلائله في أمرين:

❑ الأول: الدِّين[2].

❑ الثاني: العصبية القبيلة.

إذًا هـي ليسـت صـورة مـن صـور (الغـش) أو (الخـداع)

---

(1)الممثلة في ابن عامر.

(2)وهو الخوف من الهزيمة للمسلمين في هذه المناطق الجهادية المفتوحة.

للقفز على السلطة كما تشير كثير من المصادر "من أن ابن خازم خدع ابن عامر وابن الهيثم"، إنها منطقية هذه القيادات حين يتعلق الأمر بالحفاظ على الأمن والبقاء (التخويف من الهزيمة والافتضاح)، في مقابل حصول السلطة على (خيار جدي). قيادة جديدة ترى في نفسها القدرة على الحفاظ على المكاسب والمغانم التي حازها المسلمون في خراسان، والحفاظ على مظهر الممسك بزمام الأمور والقدرة على ضبطها.

وهذا الأساس (المنطقي) بالنسبة لابن خازم هو أساس مستمد من استلهام ثنائي الطبيعة، فابن خازم قريب لابن عامر بما يضفيه عليه ذلك من حق القرابة ، ومن ناحية أخرى يمنح ابن عامر أمام سلطة مركزية ومنظومة أعلى وهي منظومة (الخلافة) صورة كوالي يوجه قادة أكفاء لمناطق المنازعات والحفاظ على رسوخ قدم المسلمين وثباتهم في المناطق المفتوحة. وعليه يكون عهد ابن عامر لابن خازم بمثابة ردِّ فعلٍ دفاعي إزاء التهديد الذي يتمثل في ملاقاة العدو، وخوف الهزيمة والانكسار في هذه البقعة المهمة، أي خراسان، الجناح الشرقي لدولة الإسلام المتوسعة.

خراسان إنجاز واقعي أم فراغ لسلطة مركزية؟

بعد توجه ابن خازم لخراسان، ومع أنباء مؤكدة عن محاولة قارن النهاوندي الزحف لمقاتلة المسلمين (بباذغيس وهراة)، ترافق ذلك مع ما كان يجري في المدينة من ظهور أصوات معارضة الخليفة (عثمان) في ظل كل ذلك تعاظمت فرصة ابن خازم في تثبيت نفسه على رأس السلطة بخراسان، حيث كان عليه أن يثبت أحقيته بالثقة الممنوحة له، ليلتقي بالفعل مع جيش قارن النهاوندي وعلى الرغم من أن ابن خازم لم يكن معه سوى أربعة آلاف مقاتل في مقابل أربعين ألفًا على الجهة المقابلة[1]، استطاع الانتصار بهم وكسب المعركة ، وليكتب بالنصر لابن عامر حيث أقره الأخير على خراسان[2].

يذكر أبو الربيع " سار ابن خازم إلى قارن وأمر الناس فحملوا الودك، فلما قرب من عسكره أمر الناس أن يدرج كل واحد منهم على زج رمحه ما كان من خرقة أو قطن أو صوف،

---

(1) المتأمل للقصة على هذا النحو قد يرى فيها الارتفاع في سقف الحماسة والبطولة، فابن خازم يعلم أن قوات الأعداء تفوقه بشكل كبير، وأنه في موقف غير متكافئ وبدرجة فيها مخاطرة، مخاطرة يعلم معها أن السلطة المركزية في المدينة نفسها لن تستطيع تقديم ما هو أفضل له بالنسبة للمواجهة العسكرية المرتقبة، لكنها يقدم على القتال.

(2) المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ج14، ص 443.

وأمر الناس فأشعلوا النيران في أطراف الرماح، وانتهت مقدمته إلى عسكر قارن نصف الليل، ولهم حرس، فناوشوهم، وهاج المشركون، ودنا ابن خازم منهم، فرأوا النيران يمنة ويسرة، وتتقدم وتتأخَّر، وتنخفض وترتفع، ولا يرون أحدًا فهالهم ذلك، ثم غشيهم ابن خازم، ومقدمته تقاتلهم، فقتل قارن وانهزم العدو، فاتبعوهم يقتلونهم كيف شاؤا، وأصابوا سبيًا كثيرًا، وأخذ ابن خازم عسكر قارن بما كان فيه[1]".

تسبق هذه الرواية رواية أخرى بأبعاد لا تنقصها (الأسطرة والخيالية) أوردها أبو جعفر البغدادي في كتابة (المحبر) وهي " أن عبد الله بن خازم كان من أشجع الناس وأشدهم نفسًا وبطشًا. وأنه لما غلب على خراسان. وجه إليه ملك الترك رسلًا يخبره أنه يغير على خراسان، أو يتقيه بخراج موظف. فأتاه الرسل في يوم شديد البرد. فأمر ابن خازم بأزج له فسجَّر فيه حتى ابيض، وأجلس الرسل على لبود في الثلج وعليهم الفراء وهو معهم في قباء رقيق. فجعل الرسل ينتقضون بردًا. فلما علم أن الأزج قد أخرج ما فيه قال للرسل: ما أحسب البرد إلا وقد آذاكم. قوموا بنا إلى البيت. فلما دنوا من البيت تلقاهم حرة فأحجموا عن دخوله. ودخل هو حتى جلس في صدره. فانصرف الرسل إلى صاحبهم فأخبروه أنهم أتوه من عند شيطان لا يعمل

(1) أبو الربيع، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، ج2، ص 622.

فيـه الثلـج ولا النـار. فأمسـك عـن الغـزو[1]" هـي إذن مشـاهد متداخلـة توحـي للقـارئ بمـدى الترابـط بـين الشـخصية ومـا تتصـف بـه مـن قـوى تـكاد تصـل للأسـطرة، مشـهد يُحـرز بـلا شـك نقاطًـا كثـيرةً لصالـح دلالات الشـخصية التـي تسـتمد خيوطهـا ونسـجها التاريخـي في بعـض الحـوادث بمشـاهد (متخيَّلة وإحـالات غيبيـة) لإكـمال الصـورة، لكنهـا في الغالـب تناسـت حقيقـة أن مـا حمـل الشـخصية عـلى مـا تقـوم بـه هـو إحـراز نـصر (مـا) لحسـابها وحسـاب المنظومـة التـي تعمـل مـن أجلهـا.

عمومًـا (ومـع أنـه لا تـرد شـواهد) تـأتي روايـة الطـبري لنتوقـع مـن خلالهـا أن معاويـة[2] حـاول إحبـاط تهديـد سـلطوي قبـلي لابـن خـازم بعـد عمليـة الخدعـة التـي جـرت. حيـث يقـول الطـبري أن ابـن خـازم لمـا تـولَّى خراسـان بخدعتـه غضبـت القيسـية، وشـكَت لمعاويـة الـذي طلـب مـن ابـن خـازم أن يقـوم في النـاس خطيبًـا معتـذرًا، وتسترسـل الروايـة في أن ابـن خـازم رجـع إلى أصحابـه فقـال إني أمـرت بالخطبـة ولسـت بصاحـب كلام، فاجلسـوا حـول المنـبر فـإذا تكلمـت فصدقـوني...ولمـا قـام للخطبـة قـال: "إنـما يتكلـف الخطبـة إمـام لا يجـد منهـا بـدًا أو أحمـق يهمـر

---

(1)أبو جعفر البغدادي، المحبر، ج1، ص 222.

(2)بالنسـبة لخراسـان سـارت الفتوحـات في عهـد معاويـة عـلى نحـو مختلـف، فـكان المسـلمون يكتفـون بـأن تمثـل القبائـل وتقبـل بالطاعـة أو بمعاهـدة فيـولى المسـلمون أحـد القيـادات عليهـا أو يتركـوا حكامهـا السـابقين، عـلا عبـد العزيـز أبـو زيـد، الدولـة الأمويـة دولـة الفتوحـات، مرجـع سـابق، ص 47.

مـن رأسـه، لا يبـان مـا خـرج منـه، ولسـت بواحـد منهـما، وقـد علـم مـن عرفنـي أنـى بصـير بالفـرص، وثـاب عليهـا وقـاف عنـد المهالـك، أنفـذ بالسريـة وأقسـم بالسـوية، أنشـدكم بـالله مـن كان يعـرف ذلـك منـي صدقنـي، قـال أصحابـه حـول المنبر: صدقـت "

بعيـدًا عـن التسلسـل التاريخـي للأحـداث التـي توحـي بأنهـا (الولايـة الثانيـة) لابـن خـازم في خرسـان وليسـت الأولى، قـدم ابن خـازم نفسـه للسـلطة عـلى نحـو يوحـي بمحاولـة اسـترداد سـياسي سريـع لشـخصية سياسـية طامحـة، وربـما كان الأمـر مُلحًـا بالنسـبة لمعاويـة نفسـه الـذي أدرك هـو الآخـر ضرورة تخفيـف التوتـر القبلي القائـم في خراسـان وكسـب قياداتهـا بصفتهـا النخبويـة والسياسـية.

أدوارٌ لم يكـن العامـل الدينـي فقـط هـو مـا يحركهـا، بـل منظومـة متشـابكة مـن السـياقات وإن كان الدينـي هـو (المفـترض المُصَـدر) ليكـون المحـرك الأول لـه. كان تثبيـت التنصيـب لابـن خـازم والرضـا مـن قبـل معاويـة يوحـي لـلأول بمزيـد مـن المكانـة السياسـية والمكاسـب القبليـة، بعيـدًا عـن الـدلالات الدينيـة التـي صـاغ ابـن خـازم جـزءًا كبـيرًا منهـا حـين قـال (لسـت إمـام ولا أحمـق....... إنـى بصـير بالفـرص وثـاب عليهـا) وفي رأيـي أن المهم في هـذا النـص ليـس نقـده أو الاتـكاء عـلى مـا فيـه مـن إشـارات تخـدم تصورنـا عـن الشـخصية، بـل استكشـاف التصـور الكامـن وراءه وفي حالـة (التَّحَـدِّي) التـي فرضتهـا الظـروف الموجـودة عـلى ابـن خـازم، وتقبـل أنهـا هـي نفسـها التـي دفعتـه للإفصـاح عـن منهجيـة العمـل السـياسي التـي ينتهجهـا أمـام السـلطة.

الفتنة وابن خازم: ومضات أخلاقية

بعد مقتل عثمان، فإنَّ الشيء المؤكد أن فترة حكم عبد الله بن خازم على رأس السلطة في خراسان لم تكن فترة استقرار وهدوء، حيث استمرت الصراعات الخفية والقلاقل والتحركات المناوئة لتثبيت الحكم الإسلامي هناك. يذكر ابن الأثير أن عبد الله بن عامر أمر عبد الله بن خازم بالشخوص لملاقاة زياد بمنطقة أرجان ليحثه على المسير إلى معاوية وقد نفذ ابن خازم الأمر[1]، ويشير الطبري أن ابن خازم بعد معركة الجمل سنة 36 هـ أقبل على البصرة[2] إلا أن رواية الطبري لا تشير إلى لعب أي دور عسكري صريح محدد فيما كان يجري هناك من حوادث.

وبالرجوع إلى ما يتوفر من مصادر نلحظ أن عبد الله بن عامر الحضرمي، عامل عثمان بن عفان والذي كان من أول المطالبين بدم عثمان بعد بني أمية موجودًا بمكة، في حين أن عبد الله بن عامر، والذي كان متواجدًا إبان مقتل عثمان بن عفان بالبصرة، قدم هو الآخر لينضم إلى المطالبين بالأخذ بالثأر[3]، وبهذا أصبح ابن عامر مبتعدًا عن خراسان ونواحيها في هذا التوقت، ويبدو أن ابن خازم كان لا يزال يحتفظ بنفوذ ما قبل موقعة الجمل. لكن بعد انتصار (علي) في

(1)ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص 113.
(2)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج2، 633.
(3)ابن الأثير، نفسه، ج2، ص 28.

"الجمـل" ربـما أسـهم ذلـك في عـدم رغبـة ابـن خـازم الانغـماس عـلى نحـوٍ أعمـق فيـما يجـري مـن صراعـات، هـذا الأمـر تحديـدًا ربـما أدى لتقليـص سـلطته عـلى خراسـان في هـذه الفـترة، حيث لا تذكـر المصـادر دورًا لـه هنـاك، بـل حتـى صفـين فيـما بعـد والتـي نعتقـد أنـه أحجـم أيضًـا عـن الانخـراط فيهـا ولم يشـهدها[1].

غـير أن ابـن الأثـير يذكـر في سـنة 38 هــ، أن معاويـة سـيَّر عبـد الله بـن عمـرو بـن الحضرمـي إلى البـصرة وكان عليهـا زيـاد بـن أبيـه، فلـما وصـل ابـن الحضرمـي إلى البـصرة نـزل في بعـض مـن بنـي تميـم، وخطـب فيهـم بنـصرة معاويـة والمطالبـة بـدم عثـمان، فحـاول الضحـاك بـن قيـس الهـلالي، أن يتصـدى لـه[2]، فقـام عبـد الله بـن خـازم وأقبـل عـلى ابـن الحضرمـي وقـال:" نحـن أنصـارك ويـدك والقـول قولـك "[3].

ويبـدو إذًا أن عـزل ابـن خـازم عـن منصبـه في خراسـان، ربـما جـرى في سـياق حركـة التغيـير التـي أحدثهـا الخليفـة عـليٌّ في هـذه النواحـي والتـي طالـت بدورهـا ابـن خـازم، وبـما أزال عـدم رغبـة الأخـير في الانغـماس في الـصراع، وسرَّع مـن وتـيرة العـودة لمشـاهد الـصراع الجديـد بـين عـلي ومعاويـة. خصوصًـا بعـد أن فقـد ابـن خـازم منصبـة ونفـوذه بخراسـان.

---

(1) كـما تـدل الشـواهد المذكـورة في: البـلاذري، فتـوح البلـدان، ج2، ص 460.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص 91.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص 91.

يذكـر البـلاذري (وهـو الأقـرب تاريخيًّـا)، أن جاريـة بـن قدامـة التميمـي ومعـه بعـض مـن بنـي تميـم جـاءوا لملاقـاة ابـن الحضرمـي، فـكان عـلى خيـل ابـن الحضرمـي عبـد الله بـن خـازم الـذي قاتـل جاريـة[1].

يبـدو أن هـذه الحادثـة كانـت أحـدث صـدام عسـكري بـين ابـن خـازم وجيـوش الخليفـة عـلي، حيـث تـمّ حصـار ابـن خـازم بـل كاد أن يقتـل وذلـك قبـل أن تـأتي أمـه وتهـدد كـما (يـرد في المصـادر) بأنـه إن لم يـترك القـصر المحـاصر وينـزل سـتتعرَّى، حيـث يـورد البـلاذري أن أم ابـن خـازم هددتـه " لئـن لم تنـزل لأتعـرن"[2] وذلـك قبـل أن يحـرق قدامـه القـصر[3].

وإن كان لا يوجـد سـبب مقبـول يدفعنـا إلى اعتبـار هـذه الحادثـة لوالـدة ابـن خـازم (أصيلـة)، إلا أنهـا تحتـوي هـي الأخـرى مشـهدا – توبيخيًّـا – كـما جـرت العـادة لزوجـات أو أمهـات مثـل هـذه الشـخصيات، فهـا هـو بهـذا المشـهد (الـذي يلوثـة الذنـب) ينجـو مـن القتـل والحـرق.

لم يكـن غريبًـا في ظـل مـا جـرى مـن أحـداث أن يـدرك ابـن خـازم أن الـصراع القائـم في النهايـة سـيحدد معـه مسـتقبله، وأن الانتـماء لمعسـكر الشـام الأقـوى والأكثـر قـدرة وتنظيـمًا ضرورة. ولعـل غيـاب يقـين الانتصـار أو الحسـم فيـما يجـري في البدايـات الأولى هـو مـا أخَّـر هـذا الإعـلان.

---

(1)البلاذري، أنساب الأشراف، ج1، ص 362.

(2)البلاذري، نفسه، ج1، ص 361.

(3)ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص 92.

هـذه الجزئيـة بالـذات ربـما رسـخت عنـد ابـن خـازم أنـه - وإن تـولى مـرة أخـرى السـلطة في خراسـان عليـه ألا يعـول كثـيرًا عـلى سـلطة مركزيـة قـادرة عـلى عزلـة متـى شـاءت.

لم يكـن ابـن خـازم يمتلـك حتـى هـذه اللحظـات أي مـشروع سـوى أن يعـود للوثـب عـلى خراسـان مـن جديـد، وبـما بـات يملكـه مـن وضـوح في طبيعـة مـا يجـرى، كان يـدرك أيضًـا أن العـودة للسـلطة بخراسـان لـن يعطلـه سـوى السـلطة المركزيـة التـي كانـت تمتلـك القـدرة دائـما عـلى خلعـه، إذًا فـإن انهيـار السـلطة سـيتيح لـه فرصـة أكـبر للتحـرك بحريـة. وعندئـذٍ، تكـون تحـركات ابـن خـازم في المرحلـة المقبلـة محكومـة بممـرٍ إجبـاري مغلـق -هـذه المـرة- ولا فـكاك منـه وهـو الانفـكاك مـن فلـك السـلطة المركزيـة.

اسـتقراؤنا هنـا لهـذه النقطـة تحديـدًا - كـما قلنـا سـابقًا - يعتمـد عـلى النظـرة الكليـة التركيبيـة لمعطيـات (الـكلي) المنسـوج بالمصـادر التاريخيـة مـن خيـوط تسلسـل الأحـداث بالنسـبة للشـخصية، فاشـتداد الـصراع الدَّمـوي وانخـراط معظـم القبائـل فيـه لم يكـن مـن العسـير معـه استشـفاف الأسـباب التـي دعـت ابـن خـازم إلى الوقـوف ضـد الخليفـة ومنـاصرة معاويـة. وليـس في الإمـكان البحـث في الأسـباب التـي دعـت ابـن خـازم للتواجد مـع معسـكر معاويـة دون الأخـذ بالحسـبان:

أولًا: أن ابـن خـازم (في النهايـة) زعامـة تـرى في نفسـها قـدرة عـلى الحكم.

ثانيًا: هـو يرتبـط بقرابـة مـع عبـد الله بـن عامـر المرتبـط بصلـة قرابـة هـو أيضًـا مـع عثـمان بـن عفـان، وكذلـك معاويـة بـن أبي سـفيان.

ثالثًا: هـو أحـد القـادة المُنَصَّبـين مـن قبـل السُّـلطة (عثـمان ومنظومتـه) ويلقـى منهـم كل القبـول والاستحسـان.

إذًا وفي كل الأحـوال سـيكون معاويـة بـن أبي سـفيان الشـخصية الأكثـر قـدرة عـلى الحفـاظ لابـن خـازم عـلى (البنَـى السـلطوية) التـي كانـت قائمـة لـه في خراسـان إن انتـصر.

وفي تقديرنـا أن قـراءة منطقيـة أيضًـا مـن قبـل ابـن خـازم لحـوادث كان يحرِّكهـا منطـق المصلحـة بعيـدًا عـن المثاليـة كانـت ستسـمح لـه بالتقـدم لمـا هـو أبعـد مـن ذلـك. بـل إن انقـلاب ابـن خـازم نفسـه عـلى الحكـم الأمـوي - فيـما بعـد - كان لأسـباب هـي أيضًـا متناسـبة مـع مجريـات وتطـورات الصراعـات السـلطوية التـي كانـت تجـري آنئِـذٍ.

صناعة القرار بعيدًا عن الأمويين

لفهـم هـذا التحـول السريـع في متغـيرات الفعـل التاريخـي لشـخصية ابـن خـازم، فـإنَّ مـن الواجـب التسـليم بـأن مـا كان يجـري لا يمكـن فصلـه عـن التغـيرات والتطـورات والحـوادث التـي كانـت حاصلـة عـلى الأرض، وليسـت بعيـدة عـن الدوافـع التـي كانـت تتحكـم فيهـا.

فبعد مقتل الخليفة عليٍّ أواخر 40 هـ، وبعد استعادة زمام الأمور في معظم النواحي والمناطق المفتوحة لمعاوية بن أبي سفيان، يقول ابن الأثير إن ابن خازم كان أميرًا على خراسان أيام فتنة ابن الزبير، وجرى له فيها حروب حتى تمّ أمره[1]، وهو ما يوافق ما قال به الطبري - الأقدم رواية - حيث يشير أن سلم بن زياد بعث عبد الله بن خازم إلى يزيد بن معاوية مع ما أصاب من هدايا سمرقند وخوارزم[2]. تقلُّ الأخبار عن هذا اللقاء في المصادر التاريخية من حيث ما جرى فيه، لكنه يعكس دورًا ما لابن خازم في فتوح هذه المناطق مرة أخرى، ويعني أن الحوادث استمرت بالنسبة لابن خازم في مسارها الطبيعي من موالاته للدولة الأموية في عهد معاوية، ويزيد من بعده.

غير أن وفاة يزيد ربما أسهمت في إنهاء هذا الولاء حيث يقول ابن الأثير أنه بعد وفاة يزيد، وبلوغ سلم بن زياد الأمر بخراسان، دعا الناس إلى البيعة على الرضا حتى يستقيم أمر الناس على خليفة، فبايعوه ثم نكثوا[3]، وأنه استخلف عليهم المهلب بن أبي صفرة. ويبدو أن عبد الله بن خازم في هذه الفترة كان في (نيسابور)، فلقي سلم بن زياد متسائلًا عن ولايات خراسان، فأخبره سلم بن زياد بما صنع قبل خروجه، حيث أعلن ابن خازم سخطه مخاطبًا

(1)ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج2، ص 100.

(2)الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص386.

(3)ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص 204.

سلم بن زياد: " أما وجدت في المصر من تستعمله حتى تفرق خراسان بين بكر بن وائل واليمن"[1].

الرواية نفسها ستأتي لاحقًا ولكن بشخصية مختلفة عن شخصية ابن خازم - حيث يستكمل ابن الأثير القول من أن ابن خازم قال: "اكتب له لي عهدًا على خراسان، فكتب له، ومن ثمة سار ابن خازم إلى مرو، بعد أن سهل له الأمر خروج المهلب بن أبي صفرة متجهًا نحو الشام[2].

تتواتر الروايات عن أن ابن خازم لما وصل إلى هناك منعه (الجشمي) والي المهلب بن أبي صُفْرة، وجرى بينهما قتال استطاع على إثره ابن خازم أن يدخل (مرو) منتصرًا. كان هذا في العام 65 هـ[3] ليعود مجددًا ابن خازم على رأس السلطة مرة أخرى في خراسان متجاوزًا الصراعات القائمة فيها.

إذًا بعد وفاة يزيد ولا شك حدثت أزمة حقيقة في مضامين الشرعية السياسية للكثير من القيادات لكنها كانت فرصة أيضًا في المقابل لكثيرٍ منهم لإيجاد دور جديد. ففي هذه الأثناء حاول والي خراسان، بعد أن عجز عن السيطرة في ظل غياب السلطة المركزية، أن يدير خراسان وولَّى بعض الأسماء القيادية والشخصيات القبلية عليها، فما كان من ابن خازم إلا أن بادر وطالبِ بالسلطة من جديد.

---

(1)ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص 204.

(2)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 387.

(3)ابن الأثير، نفسه، ج2، ص 205.

أدرك ابـن خـازم أن السـلطة المركزيـة هـي مـن تمنـح وتعطى؛ لـذا عـاد أكثـر إصرارًا عـلى ضرورة الانفـراد بعيـدًا عـن قبضتهـا. حــارب ابــن خــازم أوس بــن ثعلبــة في (هــراة) واســتطاع أن ينتزعهـا منـه بعـد حـرب استمرت لأكثـر مـن عـام[1]، مسـتعملاً عليهـا ابنـه محمـدًا، متجهًـا بعدهـا لبسـط سـيطرته عـلى مزيـد مـن الربــوع. لكــن كان أن اصطــدام بشــخصية كانــت هــي الأخــرى شــخصية طامحــة ومتوثبــة شــخصية سياســية عســكرية وقبليــة بامتيـاز، والغريـب أن ابـن خـازم حـارب في صفهـا أيضًـا لتثبيـت سـلطة خراسـان ونواحيهـا؛ إنـه (المهلـب بـن أبي صفـرة). يقـول ابــن الأثــير: إن عمــران بــن الفضيــل البُرجُمــي والمهلــب بــن أبي صفــرة، وعبــد الله بــن خــازم السُّــلمي خرجــوا، فأخــذ ســلم هـؤلاء الفرسـان معـه مـن البـصرة، ثـم سـار بهـم إلى خراسـان[2]. فهــل كان الاصطــدام مــع شــخصية براجماتيــة أقــوى حضُــورًا مؤذنًـا ببدايـة النهايـة لطموحـات ابـن خـازم وسـلطة المشـخصنة في خراسـان والتـي حـاول فيهـا إحـلال العنـصر (الشـخصي) محل الخلافـة العنـصر (المؤسسـاتي) سـببًا لفشـله ومقتلـه في النهايـة.

كان ابـن خـازم ومـن خـلال قـراءة سياسـية لموقـف الأطراف المتصارعـة يـرى ألا يتدخـل عـلى نحـوٍ يجعـل الكفـة تميـل ناحيـة أحـد الأطـراف، وأظهـر لاحقًـا قبولـه بتوجهـات إيجابيـة نحـو معســكر الحجــاز ومكــة وابــن الزبــير، وكان منطلقــه واقعيًّــا

(1)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص389.

(2)ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص 184.

بشـكل كبـير. فابـن الزبـير يلقـى قبـولًا موسـعًا عـلى المسـتوي القبـلي والعصبـي في خراسـان، بـل أن الحـوادث سـتؤكد لاحقًـا أن الانشـقاقات القبليـة التـي جـرت في خراسـان عـلى يـد ابـن خـازم هـي التـي أدت لمقتلـه وليـس السـلطة المركزيـة في دمشـق.

لقـد كانـت السـلطة المركزيـة التـي أنشـأها الأمويـون لاحقًـا، ومنـذ فـترة حكـم عبـد الملـك، ومـا كان لـه مـن قـدرة عـلى ضـم العـراق وفـرض السـيطرة عـلى الحجـاز بعـد مقتـل مصعـب ثـم أخيـه، قـادرة بالفعـل على إنهـاء التحديـات كافـة. كان مـن المفروض أن يُـدرك ابـن خـازم كل ذلـك، لاسـيما مـع السرعـة التـي أظهرهـا عبـد الملـك بـن مـروان في دعـوة ابـن خـازم: "بايعنـي حتـى أجعـل لـك خراسـان طعمـة سـبع سـنين"، ورفضـن ابـن خـازم بـل تشـير بعـض الروايـات إلى أنـه هـمَّ بقتـل رسـول عبـد الملـك[1].

كان مـن الواضـح أن السـلطة المؤسسـية (الخلافـة) كانـت في وضـع يجعلهـا تقبـل بأدنـى درجـات التعـاون مـن ابـن خـازم، لكـن في ظـل التعطـش مـن الأخـير لسـلطة (مشـخصنة) لا تخضـع لشرعيـة أعـلى منهـا جعلتـه لا يقبـل ويرفـض. ربـما ثمـة سـبب آخـر أن تجربتـه الأولى في حكـم خراسـان أثبتـت لـه سـهولة خروجـه عـن طاعـة السُّـلطة المركزيـة. وهكـذا كانـت خطوتـه في هـذا الاتجـاه الجديـد، أي الابتعـاد عـن فلـك السـلطة المركزيـة وقبضتهـا، وعليـه كان أن كتـب عبـد الملـك بـن مـروان في

(1) وقـد أشـار البعـض إلى أن هـذه الحادثـة قـد وقعـت بعـد قتـل ابـن الزبير. انظـر: ابـن خلـكان، وفيـات الأعيان وأنبـاء أبنـاء الزمـان، ج3، ص 74.

سنة 74هـ إلى بكير بن وشاح[1] إن قتلت ابن خازم أو أخرجته من خراسان فأنت الأمير[2].

على أية حال، لم يجد ابن خازم حلولًا لأهم المشكلات التي واجهها بعد الانفصال عن السلطة المركزية ألا وهي الصراع القبلي. فقد كان لعبد الملك بن مروان كما هو الحال بالنسبة لابن الزبير - قاعدة قبلية عريضة ومؤيدة في هذه النواحي، والخطأ في تقدير هذا الوضع سيكون حتما سَببًا النهاية.

خراسان القوة والثروة... مؤذنًا بنهاية ابن خازم

منذ عهد عمر - الخليفة الثاني في دولة الإسلام - استمدت خراسان دورها من اعتبارها المقاطعة الشرقية الأهم لدولة الإسلام في قرنها الأول، خراسان التي تميزت بتركيب اجتماعيٍّ قبلي فاعل سياسيًّا واجتماعيًّا مثلت - في حقيقة الأمر - الثروة والقوة الاقتصادية الأهم لكل من كان يريد تثبيت سلطته على دولة الخلافة، وإذا ما إذا نظرنا لسياسات ابن خازم المعاصرة لدخوله خراسان وجذورها لا شك سنعثر على الصورة ذاتها، لذا لم يكن غريبا أن تستمر الدولة الأموية في مطاردة القبائل القيسية بعنف وقسوة، ومن ثم دار الصراع

(1) بكير بن وشاح الصريمي. عنه انظر: خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص 294 - 295. في تسمية ولاة عبد الملك، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج9، ص 293.

(2) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج9، ص 293.

بـين اليمانيـة والقيسـية[1] في منطقـة خراسـان عـلى هذا الأسـاس[2].
ومـع شـعور ابـن خـازم بقوتـه وتفـرده اسـتطاع تنصيـب ابنـه محمـد عـلى (هـراة) وابنـه الآخـر مـوسي عـلى (مـرو)، ووزع بقيـة الولايـات المهمـة عـلى عـمال تابعـين لـه. ويشـير ابـن الأثـير ان ابـن خـازم كتـب إلى ابنـه وإلى بُكـير بـن وشـاح الثقفـي صاحـب شرطتـه وشـماس بـن دثـار العطـاردي، يأمرهـم بمنـع بنـي تميـم مـن دخـول هـراة[3]. غـير أن شـماس رفـض[4]، ومـن ثـم تطـورت الحـوادث لتقـوم بنـي تميـم بقتـل محمـد بـن عبدالله بـن خـازم[5].

يتنـاول البـلاذري ولايـة عبـد الله بـن خـازم الثانيـة عـلى

---

(1) أخـذ الـصراع بـين القيسـية واليمانيـة حيـزًا واسـعًا لبعـض الدراسـات (الحديثـة) في محاولـة لمعالجـة أسـبابه وتجذراتـه، حيـث حـاول بعـض الدارسـين رد طبيعـة الـصراع لمـا قبـل الإسـلام والعـصر الجاهـلي، وربـما النظـر بعمـق لطبيعـة الـصراع يدحـض هـذا الـرأي حيث عـاش عـرب الشـمال وعـرب الجنـوب قبـل الإسـلام دون صراع محتـدم لفـترات زمنيـة طويلـة، بـل أن الصراعـات التـي كانـت تحـدث بـين اليمانيـة أنفسـهم أو القيسـية أنفسـهم لربـما كانـت تأخـذ حيـزًا أكـبر ممـا كان عليـه الـصراع القيـسي اليمنـي بعـد ظهـور الإسـلام - راجـع يوسـف العـش، الدولـة الأمويـة، ط2، دار الفكـر، دمشـق 1985م، ص 185-186

(2) أحمـد زكـي صفـوت، جمهـرة رسـائل العـرب، العـصر الأمـوي ، ص 417-418.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص 218.

(4) ابن الأثير، نفسه، ج2، ص222.

(5) وكان الـذي تـولى قتـل محمـد رجـلان اسـم أحدهمـا عجلـة واسـم الآخـر كسـيب. فقـال ابـن خـازم: بئـس مـا اكتسـب كسـيب لقومـه، ولقـد عجـل عجلـة لقومـه شرًّا- راجـع ابـن الأثـير، الكامـل في التاريـخ، ج2، ص 222.

خراسـان وحربـه مـع سـليمان بـن مرثـد، فيذكـر أن ابـن خـازم حـين تلقيـه لسـلم بـن زيـاد بنيسـابور، جعلـه يكتـب لـه عهـد خراسـان، غـير أن العصبيـات القبليـة مـن بكـر بـن وائـل لم تـرض، وقالـوا "عـلامَ يـأكل هـؤلاء خراسـان دوننـا؟ فأغـاروا عـلى ثقـل ابـن خـازم[1] وكانـت الحـرب[2].

كـما يذكـر خليفـة ابـن خيـاط أن عبـد الملـك بـن مـروان كتـب في العـام الـذي قتـل فيـه مصعـب إلى عبـد الله بـن خـازم بولايتـه عـلى خراسـان وبعـث بالكتـاب مـع رسـول لـه فقـال لـه ابـن خـازم لـولا أني اكـره أن أضرب بـين بنـي تميـم وسـليم لقتلتـك ولكـن كُلْ كتابَـكَ فأكلـه فكتـب عبـد الملـك إلى بكـير بـن وشـاح الصريمـي يغريـه بقتـل ابـن خـازم[3]" إنهـا القـوة المعارضـة دومًـا التـي تواجـه الشرعيـة، فـإذا تصالحـت معهـا فـإن ذلـك في الغالـب يكـون لأجـل الـضرورة، وللإبقـاء عـلى المصالـح، وفي أحيـان أخـرى يكـون التصالـح لأجـل محـدد، فـإذا لم تكـن هنـاك حاجـة كان الـصراع"

تنـاول ابـن الأثـير مقتـل ابـن خـازم بالقـول" إن عبـد الملـك بـن مـروان كتـب إلى بكـير بـن وشـاح، وكان خليفـة ابـن خـازم على مـرو، بعهـده عـلى خراسـان، ووعـده ومنَّـاه إن هُـو قتـل ابـن خازم، الأمـر الـذي جعـل بكـير يقـوم بخلـع ولائـه لابـن خـازم والدعـوة

(1)فأرسـل سـليمان إلى ابـن خـازم بـأن العهـد الـذي معـك لـو اسـتطاع صاحبـه أن يقيـم بخراسـان لم يخـرج عنهـا ويوجهـك، وأقبـل سـليمان وابـن خـازم بمـرو، فاتفقـا أن يكتبـا إلى ابـن الزبـير فأيهـما أمـره فهـو الأمـير، ففعـلا، فـولى ابـن الزبـير ابـن خـازم، البـلاذري، فتـوح البلـدان، ض 511.

(2)البلاذري، نفسه، ص 511.

(3)خليفة ابن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص 294

لأخـذ البيعـة لعبـد الملـك، فأجابـه كثـيرٌ مـن أهـل مـرو[1].

يتمـم اليعقـوبي الصـورة، بالقـول أن سـبب ميـل أهل خراسـان وخاصـة مـرو إلى عبـد الملـك بـن مـروان هـو أن أهـل خراسـان قـد يكونـوا ملُّـوا وشـقَّ الأمـر عليهـم مـن كثـرة الحـروب التـي خاضها ابـن خـازم، ولا سـيما حروبـه مـع بنـي تميـم[2].

في حـين يـرى ابـن الأثـير أن ابـن خـازم خـاف مـن اجتـماع بكـير وأهـل مـرو ونيسـابور عليـه، فأقبـل إلى مـرو محـاولًا اسـتمالة الانقـلاب ضـده واحتوائِـه[3].

في الواقـع يتضـح أن الصراعـات القبليـة كانـت قـد أنهكـت ابـن خـازم بالفعـل لاسـيما بعـد حربـه مـع بنـي تميـم.

ويـورد البـلاذري وصفًـا يَـشي بدرجـة عاليـة مـن العصبيـة القبيلـة التـي رافقـت مقتـل ابـن خـازم حيـث يصـف مشـاهدها بالقـول " إن بكـير لمـا خلـع ابـن خـازم. وكان قـد ولاة عـلى مـرو أخـذ السـلاح وبيـت المـال ودعـا أهـل مـرو إلى بيعـة عبـد الملـك. وهـو الأمـر الـذي دفـع ابـن خـازم إلى محاولـة الهـرب إلى ابنـه مـوسي بترمِـذ، فتبعـه بقـرب مـرو، ودعـا وكيـع بـن الدورقيـة القريعـي فحمـل عـلى ابـن خـازم، وقعـد عـلى صـدره قائـلًا: يـا لثـارات دويلـة[4]. فقـال ابـن خـازم أتقتـل كبـش مـضر بأخيـك[5].

---

(1)ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص 270.

(2)اليعقوبي،البلدان، ج1، ص 218.

(3)ابن الأثير، نفسه، ج2، ص 270.

(4)دويلة أخو وكيع لأمِّه. وكان مولى لبنى قريع، قتله ابن خازم.

(5)البلاذري، فتوح البلدان، ص 512.

وأيًّا كانت النتائج في هذا الأمر الذي انتهى بمقتل ابن خازم إلا إنَّه مشهدًا عصبيًّا بامتياز، مشهدًا لشخصية سياسية وقيادة طامحة فشلت في النهاية في الحفاظ على مكتسباتها ومنظومتها بعد الانغماس في صراعات قبلية في منطقة من أشد المناطق اضطرابًا واشتعالًا.

إذًا فالإرْث القبلي لم يكن غائبًا في المراحل التي كان يتحرك في فضائها عبدالله بن خازم والتي أسقطت مفاهيمها على الكثير من الصراعات التي كانت تدور وهو طرفٌ فيها، بل إن هذا الإرث لربما كان يوفر الأرضية الخصبة والمفيدة له في بعض أوقات الصراع، ناهيك عن بقية المحددات الأخرى لاسيما السياسية منها حيث كان لكلّ من هذه المدارات ثِقَلٌ ضاغطٌ عليه، لكن هل كان ذلك مقبول أخلاقيًّا بالنسبة لبعض المصادر التاريخية التي اعتبرت فقدان النمط الأخلاقي للشخصية في بعض جوانب تحركها - المقبول منطقيًّا وعقليًّا في كثير من الأحيان - مشهدًا مدانًا.

إننا وفي كل الأحول لا ننكر قدرة ابن خازم الشخصية وتفرده في منطقة كانت من أصعب مناطق الحكم الإسلامي تسييرا. فابن خازم شخصية تنضح بالمشكلاتِ فعلًا، شخصية يصعب تصنيفها تصنيفًا واضحًا. لقد شارك في الفتوح، وخاض حروبًا فيها. قاتل مع معاوية وانقلب عليه، وهادن ابن الزبير، وانخرط في الصراعات القبلية التي كانت تجري. أما الدافع السياسي والعسكري فقد كان المساند والداعم الحاضر وبقوة في معظم أوقات التغيير والفعل، بل

إن الثقـة التـي كان يـرى فيهـا ابـن خـازم نفسـه ربـما تسـتدعي منـا بعـض التوقـف لمـا فيهـا مـن غرابـة. هـذا مـا تعكسـه لنـا الروايـة التـي تشـير أنـه عندمـا حـدث الخـلاف بـين عبـد الملـك بـن مـروان وبـين ابـن الزبـير تسـاءل ابـن خـازم حـين علـم بخـروج مصعـب ابـن الزبـير لملاقـاة عبـد الملـك بـن مـروان "أمعـه عمـر بـن مَعْمَـر أو المهلَّـب بـن أبي صُفْـرة أو عَبَّـاد بـن الحُصَـين" فلـما أجيـب بـلا - قـال "وأنـا بخراسـان".

تبقـى النهايـة التـي آل لهـا ابـن خـازم لتؤكـد أنـه وعـلى الرغـم مـن تحركـه في معظـم المواقـف الحاسـمة مـن منطـق براجمـاتي، إلا أنـه لم يكـن بعـد تنصيبـه كقيـادة في خراسـان ذا طـرح سياسي مقبـول يمكـن أن يسـاعده عـلى المواصلـة. ففـي الوقـت الـذي فقـد فيـه ابـن خـازم قدرتـه عـلى احتـواء الفتنـة القبليـة أو التعامـل معهـا، أتـى مقتلـه.

ومـع ذلـك واسـتنادًا لمـا أدرجنـاه مـن بعـض المشـاهد والأدوار المنتقـاة لابـن خـازم مـع السـلطة نعتقـد أننـا نسـتطيع الدلالـة عـلى إدراكـه في النهايـة أن مفهـوم أن السـلطة تكـون فعالة بدرجـة أكـبر عندمـا تصـدر عـن أشـخاص شرعيـين[1]" وهـو مـا حـدث بالفعـل حـين تحولـت وسـحبت الخلافـة اعترافهـا بـأدواره في خراسـان واتجهـت لتنصيـب قيـادات وشـخصيات أخـرى بديلـة، عـلى الرغـم مـن بقايـا النفـوذ الـذي كان يتمتـع بـه هنـاك والمسـتمد مـن تحالفاتـه وقبليتـه. بـل المسـتغرب أن هـذه الأدوات نفسـها لطالمـا كانـت بالنسـبة لابـن خـازم أدوات أساسـية اعتمـد

(1)في هـذا الإطـار يمكـن الرجـوع لمـا تناولـه دينكـن ميتشـل: معجـم علـم الاجتـماع، ترجمـة إحسـان محمـد الحسـن، بغـداد، 1967م.

عليهـا في ترقيـه السـلطوي واسـتخدمها.

لم يكـن حضـور ابـن خـازم التاريخـي حضـورًا باهتًـا وإن تميـز بالتقطـع لأنـه ارتبـط بمراحـل التـأزم والصراعـات التـي كانـت تجـري في مناطـق أخـرى بكثافـة واندفـاع أشـد. لكـن - ورغـم ذلـك - بقـى حضـور ابـن خـازم فاعـلًا سياسـيًّا، فاعـل كان قريبًـا مـن تحقيـق مشروعـه السـلطوي المنفـرد في خراسـان .

الشـخصية لم تكـن في يـوم مـن الأيـام رمـزًا دينيًـا، مثلـه في ذلـك مثـل الكثـير مـن الشـخصيات والقيـادات. فابـن خـازم الـذي حاولـت المصـادر إسـناد الصـدارة لـه في المشـهد كأحـد أبطـال الفتوحـات، (ودون أن نجـرده عـن مسـاقات الجهـاد والفتـوح)، كان في الواقـع قيـادة باحثـة عـن سـلطة تُشـبع طموحه (المقبـول) والـذي يـرى نفسـه جديـرًا بـه في ظـروف تنامـت فيهـا الحاجـات لإدارة السـلطة مـن منطـق واقعـي بعـد أن أصبحـت أكـبر حجـمًا وأكثـر اتسـاعًا.

إن مقارنـة بسـيطة بـين ابـن خـازم وشـبث بـن ربعـي وأبي الأعـور السـلمي والمهلـب بـن أبي صفـرة (لاحقًـا) تجعلنـا نلاحـظ مـدى القـرب والتشـابه في الفعـل والغايـة، فعـل تحركهـم مـن منطلقـات منطقيـة أو (نفعيـة) لـه ولمنظومتـه إذا أردنـا تحـرِّي الدقـة. كان هـذا السـلوك منتقـدًا مـرة ومقبـولًا مـرة، ومرتبـكًا في كثـير مـن المـرات. ابـن خـازم ليـس سـوى عينـة أخـرى مـن إرث تاريخـيٍّ لتلـك الشـخصيات البراجماتيـة؛ إرث كاد أن يختفـي بفعـل مـا أنجزتـه لاحقًـا القـراءة الإيديولوجيـة، والمغايـرة لهـا ولأمثالها.

الفصل

الرابع

4

المُهلَّب بن أبي صُفْرة

"راح يكذب" [1]

(1) كان حي من الازد حين يخرج المهلب للقتال يقولون هذا القول – انظر، أحمد أمين، فجر الإسلام، ص 282.

لماذا أفلت المهلب

من سلطة الأوصياء[1]، ومقص الرقابة التاريخية؟

تاريخنا الإسلامي محصلة لمرتكزات وتفاعلات متشابكة سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا، وبغض النظر عن كثير من النظريات والتحليلات المغايرة، ستبقى الحاكمية الدينية، ودور العقيدة لها العامل الأهم في صنع ذلك التاريخ ما لم تظهر توجهات مغايرة تقودنا منهجيًّا لغير ذلك.

المهلب بن أبي صُفْرة نُخبوي آخر[2]، براجماتي أصيل

(1) سلطة الأوصياء؛ ونقصد بها هنا بعض الكتابات التي أفرغت النصوص المقدّسة والتجارب (البراجماتية أو المنطقية) من محتواها وحيويتها وجعلتها فقط منسوبة لسلطة المقدس والديني.

(2) ويبدو أن زعامة والد المهلب كانت المشهد الذي من خلفه تشكلت شخصية المهلب في المصادر التاريخية كونه سيكون لاحقًا معطى رئيسيًا في كثير من الصراعات السياسية، وهو أيضًا الزعيم =

لنمـوذج مـن نـماذج إسـلام الأصـول (القـرن الأول الهجـري)، شـخصية أخـرى مـن الشـخصيات المحوريـة التـي امتلكـت ميكانيزمـات السـلطة والنسـب والجـاه والمـال[1]، شـخصية تحرَّكـت في ظـروف تاريخيـة مـن منطلـق حسـابات دقيقـة، لم تخـل دوافعهـا مـن المصالـح والسياسـة والقبيلـة.

المهلـب الـذي لاحـت لـه فـرص إبـان عهـد الخليفـة عـلي فـكان الـولاء، وعندمـا اسـتقرت السـلطة لمعاويـة كان الـولاء أيضًـا. وبعـد يزيـد الخليفـة عندمـا لاحـت فرصـة أنسـب مـن

= السـياسي والعسـكري لهـذا التجمـع القبـلي مـن الأزد، لـذا فالتمهيـد لـه ضرورة تحتمهـا تلـك المشـاهد التـي سـتتعلق بـه لاحقًـا مـن آليـات وميكانيزمـات.

(1) إن المنطلـق الـذي كان عـلى مثـل هـذه الشـخصيات الاتـكال عـلى أنفسـها فيـه، ومـن ثـم كان عـلى المؤرخـين الانطـلاق مـن تفسـير المشـاهد والأحـداث مـن هـذا المنطلـق، تـم للأسـف تغييبـه.

قبل المعارضة (الزبيريين) كان التقاء المصالح، وبعد مقتل مصعب كانت العودة للأمويين.

من الصعب جدًا، بل من غير الصحيح تاريخيًا، تفسير الحوادث التي صنعها وشارك فيها المهلب بن أبي صفرة وكذلك التغييرات التي نتجت عبرها من زاوية (الديني والأخلاقي) فقط، هناك دوافع أخرى (ثانوية - وربما كانت رئيسة - أيضًا) كانت من ضمن المحركات، وكانت بمثابة التحدي الذي ساعد على تحريك بقية العوامل الأخرى التي كانت في وضعية التهيؤ والاستعداد. عمومًا دراسة مواقفه في مختلف الحوادث التي شارك فيها تتيح لنا القول أنها حكمت بثلاثة معطيات.

- **أولًا**: الابتعاد عن القتال أو الانخراط في معارك الفتن (الجمل-صفين-معارك عبد الملك ومصعب في العراق)
- **ثانيًا**: أنه سيد قومه[1] بما يستدعيه ذلك من الحفاظ على مرتكزات هذه السيادة القبلية، وطبيعة الصراع الأزدي المضري وكذلك القيسي عمومًا.
- **ثالثًا**: مصالح السلطة يصدق هذا على معظم السلطات التي استخدمت المهلب (علي، معاوية، يزيد، الزبير، عبد الملك بن مروان) كانت تستميله وتتعهد له بالحفاظ على ما تحت يده من أموال وخراج ومناطق.

(1)(الأزد المهالبة).

المهلب نسبه وقبيلته:

....أنت الفتى كل الفتى.... لو كنت تصدق ما تقول[1]

"المبرد"[2]

قديـماً لم تكـن الأزد ببطونهـا وعشـائرها وقبائلهـا منفصلـة عن طبيعـة الصراعـات والتحالفـات التـي كانـت تجـري في الجزيـرة العربيـة قبـل الإسـلام فمـأرب ومـا حولهـا مـن بـلاد اليمـن كانت الموطـن الأصـلي لـلأزد، لكنهـم تركـوا اليمـن ورحلـوا (لأسـباب تحتـاج لمزيـد مـن البحـث والدقـة) ، غـير أن مـا يعنينـا وبشـكل مبـاشر هنـا أن نذكـر أنـه مـن الأزد مـن نـزل مكـة (خزاعـة) ومنهـم مـن نـزل المدينـة (الأوس والخـزرج)، ومنهـم مـن نـزل الشـام (آل جفنـة) ومنهـم مـن اسـتوطن عـمان وكان المهلـب المنتمـي لأزد (دبـا) أحـد أفـراد تلـك القبيلـة الذيـن نزلـو عـمان وانتمو لهـا[3].

(1)يقـال إن المهلـب كان يضـع الأحاديـث المختلقـة عـلى الخـوارج، لكـي يقـوي عزيمـة جنـده، وربـما فـسر البعـض هـذا العمـل بأنـه كان مـن ضروريـات الحـرب "فالحـرب خدعـه".

(2)المبرد، الكامل في الأدب، ج3، ص 318-319

(3)ومـن المحقـق أن جميـع قبائـل الأزد تنتسـب إلى جدهـا الأكـبر (الأزد)، واسـمه دراء بـن الغـوث بـن نبـت بـن مالـك بـن زيـد بـن كهـلان بـن سـبأ بـن يشـجب بـن يعـرب بـن قحطـان. انظـر: سـيرة ابـن هشـام ج1، ص13، الهمـداني، صفـة جزيـرة العـرب ص328، 330، المسـعودي، مـروج الذهـب ج2، ص 170-174، ياقـوت الحمـوي، معجـم البلـدان ج5، ص 36-37، كذلـك ابـن حـزم، جمهـرة أنسـاب العـرب،ص 330.

يذكر النيسابوري في رواية أنس بن مالك عن الرسول ﷺ قوله: الأزد أزد الله[1]، وفي رواية أخرى "الأزد أُسْدُ الله في الأرض"[2].

وكما هو الحال في الشخصيات التي تعرضنا لها سابقا، لانملك دراية كافية عن نشأة المهلب ومولده. لكن تؤكد المصادر أنه ينتسب إلى أزد دبا كما (ذكر سابقًا)، حيث يقول ياقوت الحموي: الأزد أربعة أقسام: شنوءة، السراة، وأزد عمان، وأزد غسان. وتعتبر الأزد عموما من القبائل العربية المهمة لاسيما أنها أنجبت مجموعة من الشخصيات البارزة التي لعبت أدوارًا في الجاهلية والإسلام. فمنهم مالك بن فهر وعمران بن عمر بن عامر ماء السماء وولداه: الحجر والأسود والنُّعْمَانُ بْنُ الزَّرَافَةِ اللهْبِي حامل راية الأزد في الجاهلية وجُعْثُمَةُ بْن يَشْكُر وصُرَد بنِ عَبْدِ اللهَّ الْأَزْدِي وعَمْرو بن مَعَديكَرِب. كذلك تنتسب إلى الأزد أم المؤمنين جويرية بنت الحارث، زوجُ النبي ﷺ وأم أبان زوجُ الخليفة عثمان بن عفان.

ويرى ابن خلكان أن مولد المهلب كان قبيل وفاة الرسول ﷺ بعامين أو ثلاثة أعوام[3].

في حين يروي البلاذري في "أنساب الأشراف" بيت شعر (يحتاج هو الآخر للتحقيق والتأمل) – ورد فيه:

(1) الخركوشي، شرف المصطفى، ج5، ص 265.
(2) الخركوشي، نفسه، ج5، ص 265.
(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص 351، كذلك انظر ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج3، ص 509.

ألم يكــن أبـــو صفــرة مجــوسيًّا

اسمه بسفروخ، فقلتم أبو صُفرة[1]

عمومًـا أول مـا يلحـظُ في عمليـة التوطئـة للمهلـب تاريخيـا إشـارات في المصـادر عـن دور أبيـه (أبـو صُفْـرة) في بعـض المشـاهد ومـن ثـم المهلـب نفسـه لاسـيما الغـزوات الإسـلامية في الجنـاح الشرقـي مـن دولـة الإسـلام. فابن خيـاط ذكـره في غزو سجسـتان[2]، في حـين أن أولى إشـارات الطـبري عنـه كانـت في حـوادث العـام 50 هــ "خـروج المهلـب مـع والي خراسـان الحكـم بـن عمروالغفـاري" والـذي لأسـباب لم يذكرهـا الطـبري[3]، تـرك القيـادة للمهلـب في هـذه الغـزوة التـي سـميت بغـزوة "جبـل الأشـل[4]".

أغلـب الـدلالات المبكـرة تفصـح أن المهلـب "هـو وحـده وريـث أبيـه في قيـادة قبيلتـه ، وأنـه لم يكـن شـخصًا مغمـورًا، حيـث مـارس دورًا قياديًـا مبكـرًا أهلـه ليكـون مـن قيـادات الصـف الأول المنفـردة في منطقـة تمـوج بالصراعـات والحـروب (خراسـان).

أيضًـا تجُمـع بعـض المصـادر أن والـد المهلـب (أبـو صُفْـرة) كان صحابيـا، قـدم عـلى النبـي ﷺ وأسـلم عنـده، غـير أن هنـاك

(1)البلاذري، أنساب الأشراف، ج 8، ص 292.

(2)تحـت إمـرة عبـد الرحمـن بـن سـمرة. انظـر: ابـن خيـاط، تاريـخ خليفـة، ص 205 – 206.

(3)إلا بالقول "فَعي بالَأمر".

(4)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 216.

مصادر أخرى تنفي ذلك وتستبعده، وترى أن (الوالد) أبو صفرة (قيل إن صفرة نسبة لابنة له)[1] قد أسْلم على عهد النبي ﷺ ولم يفد عليه.

عمومًا أثناء خلافة أبي بكر لعب (والد) المهلب دورًا ما، ولو على نحو غير مباشر، لأنه لم يخرج عن طاعة مُؤسّسة الخلافة الإسلامية أثناء موجات الصدمة الطارئة على المجتمع الإسلامي المتمثلة في حركات "الردة" تلك الحركات التي لم تكن بالضرورة بسبب أوضاع متجانسة إلا أنها تضافرت فيما بينها لتتسبب في تفجير الوضع . ورغم قدرة الخليفة أبو بكر، محاصرة نتائج الردة بالسرعة القصوى، ونجاحه في إثبات قدرة مؤسسة الخلافة على تدمير وسحق هذه الانشقاقات بمساعدة من مثل هذه القيادات القبلية إلا أن هذه الحركات أحدثت انشقاقات قبلية واضحة في كثير من البنى التقليدية لدولة الإسلام، لاسيما من حيث تأثيرها على طبيعة الاحتشاد القبلي والعصبي منها، يذكر الواقدي أن أبا بَكْرٍ كتب إِلَى عَمْرِو بنِ الْعَاصِ، وَهُوَ بِعُمَانَ، أَقبل عَلَى أَهْلِ عُمَانَ حيث أقبل عمرو بن العاص وهو يقول: هَذَا كِتَابُهُ ويقصد الخليفة أبو بكر، يَأْمُرُنِي بِالْقُدُوم، فَمَا الَّذِي عِنْدَكُمْ مِنَ الرَّأْيِ؟، فَوَثَبَ إِلَيْهِ أَبُو صُفْرَةَ، فَقَالَ: يَا عَمْرُو، إِنَّا نُطِيعُكَ الْيَوْمَ بِطَاعَةِ أَمْسِ، وَنُطِيعُكَ غَدًا بِطَاعَةِ الْيَوْمَ، وَلا

---

(1) انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج7، ص 129-130 كذلك الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج5، ص 330.

عَصَيْنَـا مَـنْ أَرْسَـلَكَ إِلَيْنَـا. وَالسَّـلامُ"[1].

كان مـن الطبيعـي أن ترصـد لنـا المصـادر دورًا مـا للمهلـب، أو حتـى أبيـه في معـارك الـردة حيـث إن هـذا مـا عـبر عنـه النـص السـابق مـن قـول (أبي صفـرة) لعمـرو بـن العـاص، لكـن هـذا ممَّـا لم تـأت المصـادر التـي تحـت أيدينـا عـلى ذكـره.

وفي عهـد الخليفـة الثـاني عمـر بـن الخطـاب، وهـو المؤدلـج الأهـم لشـكل الدولـة الإسـلامية والمنظـم لأطرهـا المؤسسـية ، كان لأبي المهلـب دورًا حـين أوعـز عمـر لـوالي عـمان أن يـرى إن كان في مقـدور المسـلمين مهاجمـة فـارس عـن طريـق البحـر، وقـد كان الـوالي آنـذاك هـو عثـمان بـن أبي العـاص الـذي طلـب مـن العمانيـين المشـورة، واقترحـوا أن تتـم الاسـتعانة بزعيـم قومـه (أبي صفـرة)، كذلـك يذكـر الواقـدي في كتابـة الـردة[2]: أَنَّ عمـر بعدمـا انتهـت حـروب الـردة، وعـادت الكثـير مـن القبائـل قـال: مَـا كَانَ مِـنْ رَأْيِ لأبي بكـر قـد كان، وَقَـدْ مَـاتَ أَبُـو بَكْـرٍ، وَقَـدْ أَفْـضَى الأَمْـرُ إِلَيَّ، فَانْطَلِقُـوا إِلَى أَيِّ بَلَـدٍ شِـئْتُمْ، فَأَنْتُـمْ أَحْـرَارٌ لِوَجْـهِ الله تَعَـالَى، فَـلا فِدْيَـةَ عَلَيْكُـمْ، فَمَـضَى الْقَـوْمُ عَـلَى وُجُوهِهِـمْ، فَمِنْهُـمْ مَـنْ صَـارَ إِلَى بِـلادِهِ، وَمِنْهُـمْ مَـنْ صَـارَ إِلَى الْبَـصْرَةِ بَعْـدَ عِمَارَتِهَـا فَنَزَلَهَـا، وَكَانَ أَبُـو صُفْـرَةَ (أَبُـو الْمُهَلَّـبِ) مِمَّـنْ نَـزَلَ الْبَـصْرَةَ بَعْـدَ عِمَارَتِهَـا".

---

(1)الواقـدي، الـردة مـع نبـذة مـن فتـوح العـراق وذكـر المثنـى بـن حارثـة الشـيباني، ص 55.

(2)ج1، ص 201.

ومع تنامي الفتوحات والتوسع في عهد الخليفة عثمان بن عفان، وسابقة انتقال المهلب وأبيه مع أهله وجنده من الأزد إلى البصرة التي كان قد تولاها عبد الله بن عامر[1]. يأتي ذكر المهلب بحملة سجستان أواخر العام 37هـ. حيث كان عمره في هذا الوقت حوالي العشرين عاما، وتؤكد بعض المصادر أنه استطاع إصابة ملك (كابل) في هذه الحملة[2] بالرغم من قلة خبرته العسكرية وحداثة سنه (فهل كان ذلك من طبيعة مثل تلك المشاهد والروايات التي روجت لاحقًا عن بعض الشخصيات وكفاءاتهم الاستثنائية!

(1)عبد الله بن عامر بن كريز بن حبيب ابن خال عثمان بن عفان، إذ إن أم عثمان أروى بنت كريز بن حبيب، وأم أروى البيضاء أم حكيم بنت عبدالمطلب، للمزيد راجع: الدينوري، الأخبار الطوال، ج1، ص 139–217 ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج5، ص 49؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج1، ص487.

(2)ابن أعثم الكوفي، الفتوح، م1، ص 339–340.

مع الخليفة

ثمة جانب من المشهد لا يبدو أنه سيكون مريحًا بالنسبة لتصورات دور فعال أو إيجابي للمهلب وأبيه في عملية صراع الفتنة بين علي ومعاوية، فعلى خلفية الفتنة والصراعات التي كانت تجري لم يتحدَّد ظهورٌ واضحٌ للمهلب ولا أبيه في هذه المشاهد الدموية، خاصة مع غياب إثباتات ودلائل تشي بانخراط أيا منهما في هذا الصراع - وإن أرجعها البعض لسبب انشغالهم بالغزو في جيش عبدالرحمن بن سمرة عامل عثمان بن عفان على سجستان، في المقابل لا نستطيع الوصول لنصوص تفيد ميل المهلب ولا أبيه لأبي طرف قبل الاقتتال. ففي الجمل مثلًا لا نمتلك دليل أن المهلب وأبيه كانا مع طرف ضد طرف وإن صرح والد المهلب لاحقًا بغير ذلك، لكن نستطيع أن نستدل - على الأقل - أن والد المهلب وحينما تقابل مع علي - المنتصر- بعد الجمل أبدى ميلًا نحوه، برغم أن الأزد كانوا من أشد الناس دفاعًا عن عائشة وطلحة والزبير، وقتل منهم خلق كثير في هذه المعركة، إلا أن اللقاء الذي جمع الخليفة علي ووالد المهلب في البصرة في أعقاب الموقعة بثلاثة أيام يشي بهذا الميل، حيث يرد أن الخليفة علي قال له "يا أبا صفرة ما لقيت من أحد مثل الذي لقيت من قومك، فأجابه أبو صفرة، والله يا أمير المؤمنين لو كنت حاضرًا ما اختلف عليك منهم سيفان". في السياق نفسه يأتي تنصيب علي

لوالـد المهلـب رئاسـة الأزد كـما يذكـر الصحـاري في أنسـابه[1].

مـن هـذه المرحلـة تبـدأ مسـيرة المهلـب حيـث يـسرد الصحـاري أن الخليفـة عـلي قـال: " آتنـي بولـد لـك أعقـد لـه لواء يؤمـن بـه النـاس - ويقصـد - مـن الأزد- إذا خرجـوا، فانطلق أبو صفـرة بالمهلـب، وهـو يومئـذ ابـن سـبع وعشريـن سـنة، فأدخلـه عـلى عـليٍّ، فمسـح عـلي مقـدم رأسـه إلى قدميـه، وعقـد لـه الرايـة، وقـال اللهـم ارزقـه الشـجاعة والسَّـخاء والنهـى، وأمـره أن يسـير يـؤم النـاس، قائـلًا لـه: أخـرج في أثـر أهـل البـصرة نحـو الأهـواز والباديـة، فأمنهـم وأخبرهـم أن يرجعـوا إلى منازلهـم في ذمـة الله وذمـة نبيـه ﷺ[2]. وربـما تشـير هـذا المعطيـات هنـا لمجموعـه مـن الاعتبـارات المهمـة إذ تـشرح لنـا طبيعـة التركيبـة القبليـة القائمـة، وتعطينـا فكـرة عـن سـياق الفعـل بغـض النظـر انهـا تـأتي بسـياق (ترويجـي للشـخصية) ، فأبـو صفـرة (أبـو المهلـب) يشـير لعـلي ان غيابـه عـن الجمـل وقتـال الأزد سـببه الرئيـس غيـاب الوحـدة السياسـية داخـل منظومـة الأزد.

وكأنـه يبـين لـه عـلى نحـوٍ غـير مبـاشر أن غيـاب قيـادة (قبليـة) للقبيلـة هـو مـا أوجـد هـذا الخـلاف وأنـه لـو حضرهـا[3] لـكان الضامـن في عـدم قتـال قومـه لعـلي، كـما لم يكـن عـرض

(1)الصحـاري، الأنسـاب، المعـروف بتاريـخ العوتبـي، عوتـب الخيـام، ص 205.

(2)الصحاري، الأنساب، ص 2-3.

(3)معركة الجمل.

هـذا الـكلام فحسـب مـن قبـل والـد المهلـب (أبـو صفـرة) للـرد عـلى الخليفـة أو لتوضيـح موقفـه فقـط، بـل لربـما جـاء أيضًـا ليطـرح طبيعـة التشـكيلة القبليـة وفلسـفتها مـن أنهـا تحتشـد خلـف القيـادة القـادرة عـلى إدارتهـا بـما يحقـق المصالـح ويحفـظ الحقـوق.

ولا نسـتطيع أن نحمـل النـص أكثـر مـن ذلـك، لكنـه يبـدو لنـا أن هـذا هـو السـبب الـذي جعـل الخليفـة يعجـل بتعيينـه عـلى رأس الأزد ويعقـد لـه اللـواء، حتـى يجعـل كل مـن ينضـوي تحتـه في مأمـن. وهـي إشـارة واضحـة هـي الأخـرى مـن عـلي لأثـر القيـادة القبليـة في صناعـه القـرار السـياسي . وعليـه فـإن القيمـة السياسـية التـي تفرضهـا الزعامـة القبليـة لأبي صفـرة ومـن بعـده المهلـب هـي هـذا الـوزن والقـدرة عـلى التحشـيد مـع أو ضـد. وهـو مـا فهمـه الخليفـة بـكل تأكيـد حيـث جعلـه رئيـس الأزد وعقـد للمهلـب اللـواء[1].

كذلـك سـنجد مـن معطيـات هـذا اللقـاء المهـم بـين عـلي ووالـد المهلـب، والمهلـب الابـن أنـه لقـاء توازنـات ، فبعـد انتصـار عـلي لابـد أن تقـف المصلحـة السياسـية في الواجهـة لأي مفاوضـات قائمـة، وبالنسـبة لأبي صفـرة والمهلـب فـإن الخيـار المطـروح هـو مـا سـتناله القبيلـة (الأزد) بعـد خسـارتها المعركـة وانتصـار عـلي - فهـل المصلحـة في الاسـتمرار في اسـتنزاف مقدراتهـا واسـتهدافها مـن قبـل المعسـكر المنتـصر، أم الخـروج

(1)الذي يجعل كل من ينضوي تحته في مأمن.

بأيـة مكاسـب سياسـية، أو قبليـة تحفـظ كيانهـا وتؤمنهـا، وتعيـد إليهـا نفوذهـا السـياسي المفقـود؟

مُجمـل الخطـاب المسـتبطن هـو أنـه وبعـد انتصـار الخليفـة عـلي رفـع أشراف الأزد شـعار "نحـن معـك يـا أمـير المؤمنـين"، نقـول هـذا رغـم أن المصـادر تبقـي شـحيحة في وصـف ملابسـات هـذا الحلـف الجديـد.

براجماتية الخطاب السياسي وتعانق المعطى القبلي

اللواء... للمهلب

لا بد من الإشارة إلى أن الخليفة علي كان يضع الكثير من الشروط والمعايير عند اختيار ثقاته ورجالاته، لاسيما في هذه الظروف (والفتنة المستعرة)، والتي كانت تحتم أن تكون أي قيادة يختارها في هذا الوقت تمتلك القدرة السياسية والحشد القبلي. قد لا تبدو هذه المقاييس الدقيقة مطابقة لما توفره شخصية المهلب، لكن، في تصورنا كان المهلب أهم الشخصيات الواقعية بين إخوته، عُرف بقدرته على القيادة مباشرة، والتعاطي مع الأحداث بعد وفاة أبيه.

يقول الصحاري: كان النجف أسن أولاد أبي صفرة، وحين عرض عليه لواء الخليفة علي، قال: "يا أبت مالي آتي رجلًا جعل قومي أقل العرب وقتل منهم بالأمس ألفين وخمسمائة رجل، فتركه أبو صفرة وعدل عنه إلى أخيه المهلب". من الواضح أن المهلب كان له الاستعداد دون بقية إخوته لتولى الأمر، وليكون هو الوجهة السياسية ويقدم وجهًا جديدًا للأزد مع الخليفة المنتصر. يوحي الخبر المتعلق برفض أخيه هذه المهمة بأننا أمام شخصية منطقية جديدة مثلها هذا الشاب، شخصية أظهرت فاعليتها وتعاطيها بإيجابية مع طبيعة الأوضاع والصراع الدائر. فعقد اللواء للمهلب ورئاسة أبيه الأزد، حتمًا سيمكن قومهما من الاتساق مرة أخرى في منظومة السلطة تحت قيادة وسلطة تتمترس خلف منظومة قبلية بالأساس.

لا عداوة دائمة....لا صداقة دائمة

المهلب في خدمة الأمويين (معاوية ويزيد)؟

أغلب الظن أن المهلب فضَّل النأي عن معركة صفين، التي شاركت فيها عناصر كثيرة من الأزد، ما يعكس قناعة بأن الانخراط في هذا الصراع لا طائل منه. فالطرفان المتنازعان - وبنظرة معمقة - يقتربان من بعضهما في القوة وفي الاحتشاد القبلي.

يمتلك علي بن أبي طالب مقومات السلطة في مناطق ويفتقدها في أخرى، ومعاوية من ناحيته، وبعد معركة الجمل، نجح في الاستعداد الجيد والحشد والتسويق السياسي للقضية على نحو أكثر إثارة (في الشام).

فلئن كانت المصلحة تقتضي التواجد بمعسكر الخليفة إلا أن ذلك أصبح ومع تلاقي السيوف في المعركة أمرا مُكلفًا سياسيًّا، ومن شأنه أن يضر برصيد القوة لدى القبيلة ويلحق الضرر بشخصياتها القيادية. دون هذا لا يمكننا أن نفهم أسباب هذا الابتعاد.

لكن بعد صفين ونتيجة للواقع العسكري والمفاوضات فإن إعادة النظر لطبيعة التحالفات الجديدة صار أمرًا يحتمه الواقع والمنطق مع شخصية مثل المهلب. فبعد انخراط علي وصراعه مع الخوارج، وبعد تثبيت معاوية لأوضاعه (سياسيًّا وعسكريًّا) في الشام وربوعها ومصر، وبعد ذلك وفاة الخليفة علي أصبح

اللجـوء للسـلطة الجديـدة والانضـواء تحـت رايتهـا أمـرًا منطقيًّـا.

تعكـس المصـادر أنـه بعـد وفـاة الخليفـة علـي كان المهلـب أكثـر حضـورًا، ويكثـر ذكـره في الناحيـة الشرقيـة وفتوحاتهـا، وقـد سـاعد عـلى ذلـك - دون شـك - مـا أظهـره المهلـب مـن قـدرة عـلى القيـادة ممـا كان دافعًـا لأغلـب الـولاة الذيـن تولـوا خراسـان ومـا حولهـا في عهـد معاويـة أن يجعلـوا المهلـب أحـد قادتهـم العسـكريين، ويسـتعينوا بـه. يـرد في للبـلاذري أن المهلـب، في عـام أربـع وأربعـين، (في خلافـة معاويـة) خـرج إلى الغـزو فأتـى بنـة والأهـواز[1]. ويقـول ابـن خيـاط:" سـنة 56هــ عـزل معاويـة عبيـد الله بـن زيـاد عـن خراسـان وولاهـا سـعيد بـن عثـمان بـن عفـان فغـزا ومعـه المهلـب بـن أبي صفـرة[2]، وهـو مـا يؤكـده ابـن عسـاكر[3] والبـلاذري حـين أوردو أنـه في هـذا العـام " فقئـت عـين المهلـب بـن أَبِي صفـرة" حـين غـزا سَـعِيد بـن عُثْـمَان سـمرقند[4]. وفي العـام 61 هــ وفي خلافـة يزيـد بـن معاويـة كان عـلى خراسـان وسجسـتان سـلم بـن زيـاد حيـث كان إلى جانبـه أيضًـا المهلـب بـن أبي صفـرة، أمـا خليفـة بـن خيـاط والطـبري فيذكـران أنـه في العـام 65 هــ كان المهلـب أحد قـواد سـعيد بـن عثـمان بـن عفـان حـين خـرج لولايـة خراسـان[5].

---

(1)البلاذري، فتوح البلدان، ص 417.

(2)خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص 224.

(3)ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج21، ص 223.

(4)البلاذري، فتوح البلدان، ص 397.

(5)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص 305.

إن الأمـر الأشـد إثـارة للانتبـاه هـو كيفيـة انتقـال شـخصية كالمهلـب بـكل هـذه السلاسـة في الـولاء القبـلي.

ففـي هـذه المشـاهد، وبغـض النظـر عـن غيـاب المهلـب عـن صفـين والتـي لا نمتلـك معطيـات متوافـرة عنـه فيهـا إلا الاسـتنتاج والتحليـل. مـن الناحيـة المنطقيـة لا يمكـن أن نـرى في انتقـال المهلـب إلى صـف معاويـة مـا يعيـب.

نذكـر أن فـترة خلافـة عـليٍّ كانـت أربـع سـنوات مـن الفتنـة والحـرب الأهليـة، انتهـت بمقتـل الرجـل نفسـه مغتـالا، كذلـك تمـت تصفيـة عـدد مـن الصحابـة واحـدًا إثـر الآخـر في اغتيـالات ومؤامـرات لم تنتـهِ حتـى بعـد أن انتهـت الخلافـة الراشـدة نفسـها.

إن تحـول الرجـل ليصبـح أحـد الفاعلـين في دولـة بنـي أميـة وأحـد الأطـر العسـكرية والسياسـية للأمويـين بالمنطقـة الشرقيـة، وإثبـات فاعليتـه وقدرتـه عـلى الفعـل السـياسي أمـر مفهـوم إذ يـرد في تاريـخ ابـن خيـاط روايـة أن المهلـب قـال:" وجهنـي سـلم بـن زيـاد إلى يزيـد بـن معاويـة بالشـام مـن خراسـان"[1] فقدمـت

(1)وهـي روايـة فيهـا سـبه الغيبيـة حيـث تسـتكمل الروايـة القـول " فقدمت عليـه فـوالله إني لقائـم إلى جنـب سريـره عنـد رأسـه ويـدي عـلى مرافقـه إذ جـاء الآذن فقـال لـه هـذا عبـد الملـك بـن مـروان يسـتأذن فقـال يزيـد بـن معاويـة أليـس قـد قضينـا حوائجـه أبيـه فقـال إنـما سـأل أن يكلمـك قائـمًا ولا يجلـس، قـال يزيـد فـأذن لـه، قـال المهلـب: فدخـل رجـل آدم أدعـج العينـين سـهل الوجـه جميـل عليـه عمامـة سـوداء قـد أرخاهـا من بـين يديـه ومـن خلفـه كمـا يفعـل القـراء فكلمه فقـال يزيـد نعم =

عليـه فـو الله إني لقائـم إلى جنـب سريـره عنـد رأسـه ويـدي عـلى مرافقـه"[1]. تكشـف الروايـة عـن مـدى مـا كان يتمتـع بـه المهلـب مـن مكانـة عنـد القيـادة السياسـية الممثلـة في يزيـد بـن معاويـة.

لكـن يحـق التسـاؤل هـل هـذه المكانـة التـي حظـي بهـا المهلـب مـع يزيـد وقبـل ذلـك مـع الخليفـة عـلي، وقدرتـه عـلى التعاطـي مـع النقيضـين، تحمـل في طياتهـا ازدواجيـة مـا؟ أم أن الأمـر يتعلـق بسـلوك سـياسي لا صلـة لـه بقناعـة دينيـة أو أخلاقيـة؟

إن اختيـار المهلـب لأن يكـون دائـمًا في صـف أحـد الأطـراف الفاعلـة سياسـيًّا مـا هـو في (نظرنـا) إلا موقـف منطقـي يخـدم مصلحـة النظـام الـذي ينتمـي لـه - هـذا مـن جهـة - ومـن جهـة أخـرى مصلحـة القبيلـة (الأزد). لذلـك لا عجـب أن تتبـدل الأدوار والمصالـح وأن ينضـم المهلـب لقيـادة سياسـية تؤمـن لـه المصالـح والمغانـم، ومـن غـير المفيـد الاسـتمرار في الوقـوف ضدهـا.

= وكرامـة. فلـما ولى أتبعـه يزيـد بـصره، ثـم أقبـل عـليَّ فقـال يـا مهلـب، فقلـت لبيـك يـا أمـير المؤمنـين قـال زعـم أهـل الكتـب أن هـذا سـيملك، قـال: فقلـت الله أعلـم، والله لئـن ملـك إنـه لعفيـف في الإسـلام، واسـط في العشـيرة، قـال فبلغـت عبـد الملـك عـن المهلـب، فـكان يشـكرها لـه، حتـى كتـب إليـه بـما كتـب ثـم اسـتعمله بعـد ذلـك عـلى خراسـان. انظـر: ابـن خيـاط، تاريـخ خليفـة، ص 262.

(1) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص 262.

المهلب وموت يزيد

● البقاء بعيدًا عن الانهيار

كانت وفاة يزيد بن معاوية فاتحة لأزمة معقدة طالت معظم الأطراف الفاعلة سواء منها القيادات أو الحلفاء. في خراسان تأزمت أوضاع المقاطعة أمام الوالي سلم بن زياد، والي يزيد على خراسان، فاستخلف المهلب.

يقول الطبري: "لما اختلف الناس بخراسان ونكثوا بيعة سلم، خرج سلم عن خراسان وخلّف عليها المهلب بن أبي صفرة"[1]. ويورد ابن الأعثم الكوفي في فتوحه: "علم سلم بن زياد أن يزيد بن معاوية قد مات، فتجهز وخرج يريد بلاد الشام، وخلّف المهلب بن أبي صفرة على بلاد خراسان[2]. يرد كذلك في تاريخ ابن عساكر:" لما مات يزيد استخلف سلم بن زياد المهلب بن أبي صفرة عليها ولحق بالشام[3]. لكن تتعمق المفارقة على نحو أكبر لأن المهلب رفض المنصب[4].

هل كان حافزه التهرب من احتلال موقع الصدارة في مرحلة اتسمت بالتشتت وغياب الرؤيا الواضحة؟ هل كان

(1)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص 546.

(2)ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج5، ص 169.

(3)ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج28، ص 12.

(4)بطريقة ربما تقترب من شكل الاعتذار الدبلوماسي في وقتنا الحالي.

يدفعه إلى ذلك غموض صورة المستقبل؟. حيث يرد في تاريخ الطبري: "لما بلغ الخبر المهلب بن أبي صفرة، أقبل واستخلف رجلا من بني جشم بن سعد بن زيد مناة بن تميم"[1]. ويذكر ابن الاثير كذلك "بلغ خبره المهلب فأقبل واستخلف رجلًا من بني جشم بن سعد بن زيد مناة بن تميم[2].

أسباب هذا الرفض تبقى غامضة. لكن ربما يتكشَّف جزء من أسبابها إذا ما نظرنا لطبيعة خراسان في ذلك الوقت من حيث الصراعات وشدة تأثيرها، فمثله مثل كثير من القيادات، ومن بينها ابن خازم نفسه، كان يسعى من أجل مكانة له في خراسان، لذا فإن الأمر الأكثر إثارة هو لماذا تم استخلافه لرجل من خارج قبيلته الأزد.

إن رفض المهلب هذه الفرصة (النادرة) التي طالما كانت تراود قيادات عسكرية أخرى كانت تخرج للجهاد في المنطقة نفسها أمر لا يمكن فهمه إلا تحت ضوء الصراع القبلي المحتدم في خراسان، والصراع على السلطة بين ابن الزبير بمكة والأمويين في دمشق، وعلاقة كل ذلك بالعوامل والمعطيات السياسية والعسكرية المتغيرة دوما هناك. فموقف المهلب هو موقف منطقي إن قرأناه في سياقه العسكري، موقف محكوم بمجموعة من التناقضات، بحيث لا يمكن استيعابها وتأطيرها إلا وفق تصور المصلحة وأبجديات المغانم.

(1)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص 546.

(2)ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج3، ص 246.

يشكل كل ذلك جزءًا لا يتجزأ من جدلية العلاقة بين السلطة والقبيلة، لذا إذا ما حاولنا تصور أسباب هذا الرفض فيمكن حصره في الأتي:

أولًا - انقسام المجال السياسي بين دمشق عاصمة الأمويين وبين مكة التي يتمركز فيها المعارض القوي ابن الزبير، وما أسْفر عن هذا الوضع من تكريس للانفصال و"القطيعة" بين مجالي القبيلة والسلطة في هذه المرحلة، واستحالة رجوح كفة أحدهما على الآخر. فعملية تولي خراسان بالنسبة للمهلب هي إذا عملية محفوفة بالمخاطر لاسيما في ظل وجود منافسين أقوياء مثل ابن خازم.

ولقد كنا تطرقنا لهذا القضية في فقرة سابقة، ويمكننا الآن أن نرسم الفرق فيها بين أمرين:

الأمر الأول - أن ابن خازم تحفز لهذا المنصب وعمل على الوصول إليه على نحو شخصي، ومن خلال إبراز قدراته السياسية والعسكرية، في حين نرى أن المهلب، وعلى النقيض من ذلك، يرفضه بل ويترك الأمر لقيادة من غير قبيلته الأزد. لا شك أن الأخير فهم أن الزج بالأزد في صراع قبلي تجعله وقبيلته هدفًا للقمع أو الطرد في ظل غياب أفق واضح للسلطة (المركزية)، وهو أمر لا يمكن المجازفة معه، فهذه المخاطرة ربما تهدد مجال نفوذ وبقاء الأزد كقبيلة مترابطة في خراسان، يضاف إلى هذا أن معظم القبائل، وخاصة القيسية منها، لم تكن راضية عن إسناد ابن زياد خراسان للمهلب.

يقول الطبري: "لقي سليمان بن مرثد أحد بني قيس بن ثعلبة سلم بن زياد، فقال له: من خلفت على خراسان؟ قال: المهلب، فقال: ضاقت عليك نزار حتى وليت رجلًا من أهل اليمن[1]".

 الأمر الثاني – قدرات الشخصيتين وطبيعتهما السياسية ، وأولويات وتراتيب المصالح والرؤى التي حكمتهما. فالمهلب له رصيد قبلي ضخم اعتمد عليه في تحركه، وعليه فلو تولى هذا المنصب فإن ذلك سيجعل القبيلة مستهدفة وستُحسب توجهاته على كل الأزد. هذا ما لا يتوفر لابن خازم ولا يُثقل كاهله لأن قبيلة سليم لا تشكل ثقلًا قبليًّا وعسكريا كبيرا بالمنطقة في هذه الفترة. وعليه فابن خازم يعتبر أن قفزه لاستلام السلطة وإبرازه لقدراته وتشكيل وضعه، حتى وإن كان بثمن مرتفع لن يمس بقية الأوضاع القبلية المحيطة به.

لذلك، كان استخلاف المهلب لشخص من غير أهله بمثابة تخلص من هذا الوضع المعقد، وبقاء في إطار الشرعية السياسية المركزية نفسها، مما لا يشكل مجالًا واسعًا للجدل والاختلاف والاستقطاب، وربما للاتهام والاقتتال، ولن يُفهم منه أنه شق لعصا الطاعة. حيث يذكر ابن عساكر أن المهلب توجه إلى الشام وهي آنذاك معقل الأمويين وليس إلى الجزيرة التي بدأت تتشكل فيها معارضة حثيثة لحكم بني أمية.

---

(1)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص 546.

في ضيافة الزبيريين... سيدًا لأهل العراق.

إن مسألة البيعة وما يخص الشرعية بعد مقتل يزيد بن معاوية تعاطت معها كثير من الشخصيات والقيادات الإسلامية في القرن الأول الهجري بنوع من التوجس والريبة من حيث رفضهم بيعة الأمويين أو قبولهم لها، ورفضهم كذلك بيعة ابن الزبير أو قبولها. غير أن ما يعنينا في هذه الإشكالية، هي أنه مع استمرار ضبابية المشهد في دمشق ومع تنازل معاوية الثاني عن الحكم والصراع على السلطة بين الأمويين أنفسهم، وانفراط عقد السلطة المركزية بدمشق، وظهور حالة من الفراغ السياسي، كوَّن كل هذا وضعًا مناسبًا لمراقبة كيفية التعاطي وتوجهات القيادات المختلفة لبيان الدوافع والأسباب لكل منها، واختيار كل قيادة لما يناسبها من الكتل السياسية المتشكلة.

هذا ما يقتضي النظر له بدقة وتسليط الضوء على جزئياته وتفكيك الصورة العامة له لمزيد من الفهم.

يكشف لنا الفحص عن مدى حاجة هذه السلطات والشرعيات المتشكلة لمثل تلك القيادات والشخصيات والزعامات القبلية والسياسية وغيرها من أصغرها إلى أكبرها. فالسلطة المركزية تحتاج عند تشكلها لمن يدعمها ويستكمل لها أدوات سيطرتها وتوفير التبرير الشرعي لوجودها.

كذلك القيادات والزعامات القبلية هي الأخرى، لئن كانت قادرة على التحرك بأشكال مختلفة، إلا أنها تظل محتاجة

لسلطة مركزية تضفي على تحركاتها الشرعية المطلوبة

فحين تصبح هذه القيادات والشخصيات والزعامات بدون سلطة مركزية قد تخسر قدرتها على الاستمرار والبقاء وعلى تمثيل الوسط القبلي التي تريد تمثيله (وهي نظرة ربما غابت عن ابن خازم وتعاطيه معها).

وعليه فان ما يبدو لبعض القيادات السلطوية من أن هناك رغبة لدى رجال القبائل في التخلص من السلطة المركزية أو العمل على زوالها هو في واقع الأمر بعيدًا عن المعقول (والمنطقي).

ففراغ عرش الخلافة بعد وفاة يزيد جعل كل قوة تبحث عن مظلة. حيث عزز هذا التمزق - على صعيد الاختيار السياسي أيضًا - التمزق على صعيد الولاءات القبلية بالنسبة لكثير من الزعامات، فحين أتى المهلب الشام واكتشف الفراغ السياسي فيه والتصارع كان حتمًا عليه التوجه للقوى الجديدة التي كانت تتشكل في مكة وهي قوى (المعارضة) المتمثلة في ابن الزبير. في هذا الإطار جاءت تلك الزيارة. يقول ابن عساكر[1] " وفد المهلب بن أبي صفرة على عبد الله بن الزبير فأطال الخلوة معه فجاء ابن صفوان فقال من هذا الذي قد شغلك منذ اليوم يا أمير المؤمنين، فقال هذا سيد العرب بالعراق" وكان يقصد المهلب.". إنها محاولة منطقية من المهلب لتعزيز صلاته

(1)ابن عساكر، تاريخ دمشق (29ج / ص 213).

بالقيادات الفاعلة، بل هي أنموذج حي يحث باقي الزعامات على التسريع بالاعتراف بابن الزبير كسلطة مركزية بديلة بعد وفاة الخليفة يزيد، وتنازل ابنة معاوية، وفي ذلك ما يدعم نشأة سلطة مركزية جديدة تخفف من خطر المواجهات القبلية. في ضوء كل هذه الأبعاد يمكننا أن نفهم دلالات تبدل الولاء من قِبَل المهلب من الأمويين إلى الزبيريين.

ابن الزبير هو أيضًا وبفعل الفراغ السياسي المتخلف عن عدم اتضاح الصورة بعد موت يزيد، استطاع التواصل وخلق نفوذ قوي له بمكة والمدينة وخراسان وأجزاء من العراق واليمن، كما نجحَ ابن الزبير كذلك في استقطاب عدد من القيادات البارزة وبناء تحالفات قوية معهم. في هذا الإطار، كانت زيارة المهلب لابن الزبير بمثابة إعادة تموقع جديد بالنسبة له، خاصة وأن الزيارة كانت بمثابة إعلان الولاء لدولة ابن الزبير التي تتشكل، حيث تبع ذلك إقرار ابن الزبير للمهلب بولاية خراسان.

حتما لن تتسع هذه الصفحات التي تعالج طبيعة شخصية مواقف المهلب من الأحداث وصناعتها لعرض كل تفاصيل الصراع بين السلطة السياسية للدولة الإسلامية في قرنها الهجري الأول منذ صفين وما تلاها من اقتتال مع الخوارج، صراعات ستبقى تشكل للمؤرخين والباحثين في كل وقت وحين مجالًا خصبًا للتحليلات والاستنتاجات والافتراضات لكن، قد تكون بعض المحطات القليلة حول بعض النقاط التي تثيرها المصادر

عـن صراع المهلـب مـع الأزارقـة، وإن كانـت في الواقـع اسـتقطاعًا مـن مشـاهد معقـدة ومتشـابكة.

إن السـلطة المركزيـة وعـلى أهميتهـا تظـل عاجـزة عـن ضـمان الاسـتقرار والأمـن اللازمـين؛ بـدون قيـادات قويـة تسـتطيع تنفيـذ سياسـاتها في بسـط سـيطرتها عـلى أرض الواقـع، في هـذا الإطـار تحديـدًا تشـكلت طبيعـة الـدور الجديـد للمهلـب مـع الزبـير. فمـع إحجـام الكثـير مـن المناطـق عـن مبايعـة ابـن الزبـير، ومـع الصراعـات القبليـة والدينيـة التـي بـدأت تنشـأ جـراء الفـراغ المركـزي لسـلطة دمشـق، انتـشر منـاخ مـن التوجـس والتحفـز نحـو أي سـلطة جديـدة حتـى ولـو كانـت سـلطة ابـن الزبـير بـكل مـا كان لـه كاريزمـا سياسـية ودينيـة؛ بحيـث أصبـح الخيـار الأبـرز المتـاح، وفـق ذات المنطـق القبـلي، هـو مـا يدفـع إليـه منطـق الحصـول عـلى المغانـم وتفـادي الخسـائر لـدى أي شـخصية قياديـة تتعامـل معـه.

يـرد في الأخبـار الطـوال للدينوري:"قـال الأحنـف بـن قيـس للحـارث بـن عبـد الله: أيهـا الأمـير، أكتـب إلى أمـير المؤمنـين عبـد الله بـن الزبـير، وسـله أن يكتـب إلى المهلـب بـأن يخلـف عـلى خراسـان رجـلًا، ويسـير إلى الخـوارج، فيتـولى محاربتهـم. فكتب.فلـما انتهـى كتابـه إلى عبـد الله بـن الزبـير كتـب إلى المهلـب: بسـم الله الرحمـن الرحيـم، مـن عبـدالله أمـير المؤمنـين إلى المهلـب بـن أبـى صفـرة، أمـا بعـد، فـان الحـارث بـن عبـد الله كتـب إلى يخـبرني أن الأزارقـة المارقـة قـد سـعرت نارهـا، وتفاقـم أمرهـا، فرأيـت أن أوليـك قتالهـم، لمـا رجـوت مـن قيامـك، فتكفـي أهـل مـصرك شرهـم، وتؤمـن

روعتهم، فخلِّف بخراسان من يقوم مقامك من أهل بيتك، وسر حتى توافى البصرة، فتستعد منها بأفضل عدتك، وتخرج إليهم، فأنى أرجو أن ينصرك الله عليهم، والسلام. فلما وصل كتابه إلى المهلب خلف على خراسان." ويرد في تاريخ الطبري أن المهلب " قال: فإني والله لا أسير إليهم إلا أن تجعلوا لي ما غلبت عليه، وتعطوني من بيت المال ما أقوِّي به من معي، وأنتخب من فرسان الناس ووجوههم وذوي الشرف من أحببت، فقال جميع أهل البصرة: ذلك لك[1]. يستكمل الدينوري صورة الأحداث فيقول: أقبل حتى وافى البصرة، فصعد على المنبر، وكان نزر الكلام وجيزه، فقال: أيها الناس، إنه قد غشيكم عدو جاحد، يسفك دماءكم، وينتهب أموالكم، فان أعطيتموني خصالًا أسألكموها قمت لكم بحربهم، واستعنت بالله عليهم، وإلا كنت كواحد منكم لمن تجتمعون عليه في أمركم. قالوا: وما الذي تريد؟ قال: أنتخب منكم أوساطكم، لا الغنى المثقل، ولا السبروت المخف، وعلى أن لي ما غلبت عليه من الأرض، وألا أُخالف فيما أُدبر من رأيي في حربهم، وأُترك ورأيي الذي أراه، وتدبيرى الذي أُدبره، فناداه الناس: لك ذلك[2].

والواضح أن العروض التي قدمتها السلطة للمهلب لم تكن بمستوى طموحه، فربما كان امتثال المهلب في البداية ووصوله البصرة شكلا من أشكال التعاطي المنطقي، فهو مكلف من

(1)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 5ج، ص 616.

(2)الدينوري، الأخبار الطوال، ج1، ص 271.

قبل قيادة شرعية، لكن عدم وضوح المكاسب المنتظرة استتبعه اشتراط المهلب على أهل البصرة عدة شروط يمكن للمتمعن فيها أن يكشف أنها لا تعكس غير مصلحية قبلية بحتة، بل ربما يمكن أن نرى فيها شروطًا شبيهة بما كانت القبائل تشترطه قبل الإسلام في (أحلافها وتحالفاتها)، ومنها أخذ ما يغلب عليه، وتوفير ما يقوي المجندين للحرب حتى يمكن انتخاب مَنْ يصلح من فرسان ووجوه الناس، في انتظار العوائد الأخرى المنتظرة. كل ما هناك من فرق هو أن هذه الشروط تمت مناقشتها تحت غطاء وبرضاء سلطة الخلافة التي تحاول أن تتشكل وأن تخلق لنفسها شرعية مستقرة (الزبيريين).

وربما جاء توجه المهلب بهذه الشروط لأهل البصرة مُفصِحًا عن قدرة على اختيار الأرض والمكان المناسب لعرض المطالب السياسية والمادية، وربما يعطينا ذلك إطلالة غير مباشرة على أسباب إحجام المهلب عن الخوض في صراعات الفتنة سابقًا، وقبوله في مرحلة لاحقة بالتوجه لقتال الأزارقة رغم ما اشتهروا به من القوة والاستبسال في القتال. فنرى المهلب يتوجه لقتالهم على ما اشترطه من دون أن يتبنَّي أو يعلن أي مطلب أيدلوجي آخر له علاقة بالمعتقدات الدينية أو الأخلاقية. كانت مطالبه فقط مطالب منطقية واقعية لدعم موقفه حين الخروج لقتال وتأمين الموارد المالية اللازمة له ولجيشه.

تشير المصادر أنه ومنذ العام الخامس والستين من الهجرة انخرط المهلب في قتال الأزارقة، وتوفر له ولقبيلته ورجاله

وضعًـا ماليًّـا جيـدًا، وأرسـلت لـه القيـادة السياسـية رسـالة تشـيد بـما يحققـه، يقـول ابـن أعثـم إن مصعـب ابـن الزبـير أرسـل للمهلـب برسـالة جـاء فيهـا: " بسـم الله الرحمـن الرحيـم، مـن مصعـب بـن الزبـير إلى المهلـب بـن أبي صفـرة؛ أمـا بعـد، فـإن النـاس لـو أعطـوا كل إنسـان عـلى قـدره لقدمـت في العـرب قاطبـة غـير مُدَافَـعٍ، لمـا قـد بقـي الله بـك العـدو، وغلـب بـك عـلى البـلاد، فـإن طاعتك وحسـن بلائـك قـد بلـغ بـك عندنـا كل الـذي تحـب"[1].

عبـارات مصعـب التـي اسـتخدمها في رسـالته تؤكـد بدورهـا أن السـلطة تلحظـه وتـرى أهميـة مـا يقـوم بـه، كذلـك تحمل الرسـالة معـاني الرضـا والاقتنـاع بمنطقيـة إدارتـه للـصراع، في المقابـل كان المهلـب يـدرك أن نجاحـه في القتـال يحقـق لـه عوائـد ماليـة مـن شـأنها أن تزيـد في نفـوذه وقدرتـه عـلى التحشـيد.

في هـذه الأثنـاء كان الأمويـون يحاولون إعـادة التوازن وتشـكيل خلافتهـم انطلاقًـا مـن سـيطرتهم عـلى الشـام ومـصر وبعـض ربـوع متفرقـة مـن العـراق. ومـع قـدرة مصعـب بـن الزبـير عـلى التخلـص مـن المختـار بـن عبيـد الثقفـي ومـع توليـة المهلـب الأقاليم التـي كان يسـيطر عليهـا الأشـتر في الموصـل والجزيـرة وأذربيجـان، جـاءَ عـزل المهلـب ومنعـه اسـتكمال قتـال الأزارقـة، حيـث يقـول ابـن أعثـم في ذلـك " لم يـزل المهلـب باقيًـا عـلى حـرب الأزارقـة حتـى قالـوا: أيهـا الأمـير! إن المهلـب رجـل يحـب مطاولـة العـدو، لمـا يجبـي مـن البلاد، ولـو عزلتـه ووليـت غـيره حـرب الأزارقـة لـكان في ذلـك هـلاك

(1)ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ص 189.

العـدو وتوفـير المـال عـلى أمـير المؤمنـين، فعـزل مصعـب بـن الزبـير المهلـب عـن حـرب الأزارقـة، فرجـع المهلـب حتـى نـزل بموضـع يقـال لـه الزائـدان مـع بنيـه وعشـيرته. فهـل كان عـزل المهلـب عـن قتـال الأزارقـة هـو الآخـر تحـرك منطقـي مـن السـلطة لتحجيـم قيـادة أصبحـت تـرى فيهـا خطـورة عليهـا؟

يمثـل هـذا في كل الأحـوال توجهًـا جديـدًا للسـلطة وتراجعًـا عـن التعاطـي بإيجابيـة مـع مثـل هـذه الشـخصيات، وهـو مـا يدعـم تصورنـا عـن أن هـذا النـوع مـن القيـادات السياسـية كان لا يسـعى لأكثـر مـن تحقيـق مكتسـبات لـه ولمنظومتـة القبليـة. إن هـذا المنـاخ الجديـد هـو مـا أعطـى لبعـض مـن الوشـاة فرصـة النيـل منهـم عنـد السـلطة.

فـإذا كانـت قـوة المهلـب تتجسـد في جمعـه للعنـاصر القبليـة، فـإن ذلـك بالـذات تحـول إلى سـبب للريبـة في أعـيُن السـلطة. لذلـك أخـذت الاحتجاجـات والاتهامـات تصـل إلى مصعـب، اتهامـات للمهلـب بأنـه يتعمَّـد إطالَـة أمـد الحـرب ليتحصـل عـلى مزيـد مـن العوائـد والأمـوال، وهـي نفـس التهمـة التـي سـيُتهم بهـا لاحقًـا في زمـن الحجـاج وعبـد الملـك بـن مـروان أيضًـا.

إلى هنـا تحركـت السـلطة تحـركًا منطقيًـا وعزلـت المهلـب ومنعتـه مـن الاسـتمرار في قتـال الأزارقـة، لكـن يبـدو أن النتائـج التـي حققهـا الأزارقـة سـاعدت عـلى عـودة المهلـب لحربهـم مـرة أخـرى، حيـث أعـاده مصعـب لقتالهـم في العـام الثامـن والسـتون واسـتمر في حربهـم حتـى العـام الواحـد والسـبعون هجريًـا، وهـو

العـام الـذي تحـرك فيـه عبـد الملـك بـن مـروان واسـتطاع فيـه هزيمـة مصعـب.

وقبـل الحديـث عـن أسـباب التحـول للمهلـب نحـو الخليفـة الجديـد لابـد أن نشـير أنـه كان هنـاك صراع قـوي بـين عبـد الملـك بـن مـروان وبـين الزبيريـين، غـاب عنـه المهلـب، مثلـما غـاب سـابقًا عـن الجمـل وصفـين. إن هـذا المُعطـى يدعـم بشـكل كبـير تصورنـا السـابق. ففـي الفتـن تكـون المغانـم قليلـة، وهـذا لا يخفـى عـلى شـخصية كشـخصية المهلـب. لذلـك كان الاسـتقلال لـه أنسـب. لكـن هـذه الفرضيـة ربـما كانـت هـي الأخـرى فرضيـة مرفوضـة، لأن الأطـراف المتصارعـة قويـة ولابـد مـن تـرك البـاب أمـام أي فرصـة مناسـبة تلـوح في الأفـق.

لا تمنحنـا المصـادر فرصـة مؤكـدة للدلالـة عـلى معرفـة مـا قـد يكـون المهلـب خاضـه مـن نقاشـات ليـبرر أسـباب غيابـه عـن الفتـن، سـواء لتواجـده في أماكـن أخـرى أو لانشـغاله بحـروب الأزارقـة. يبقـى الـدور الـذي لعبـه المهلـب بالنسـبة لمعالجتنـا يمثـل لنـا تعاطيًـا إيجابيًّـا مـع الحـوادث وبقـدرة عاليـة. لكـن قـد لا يمثـل الصنـف الوحيـد مـن البراجماتيـين الذيـن كانـت الفتـن والمصـارع أحيانًـا بابًـا مـن أبـواب الارتقـاء في السـلم السـياسي والاجتماعـي والقبـلي لهـم.

عودة الولاء

عقب مقتل مصعب ابن الزبير وسيطرة عبد الملك بن مروان على العراق في العام 71م بايع المهلب الخليفة الجديد عبد الملك بن مروان، على الرغم من أن ابن الزبير كان لا يزال بمكة إذ لم يُقتل إلا في سنة 73هـ.

يقول الطبري: "أن الأزارقة والمهلب بعدما اقتتلوا بسولاف ثمانية أشهر أشد القتال أتاهم أن مصعب بن الزبير قد قتل فبلغ ذلك الخوارج قبل أن يبلغ المهلب وأصحابه فناداهم الخوارج ألا تخبرونا ما قولكم في مصعب، قالوا إمام هدى، قالوا فهو وليكم في الدنيا والآخرة، قالوا نعم قالوا وأنتم أولياؤه أحياءً وأمواتًا قالوا ونحن أولياؤه أحياءً وأمواتًا. قالوا فما قولكم في عبد الملك بن مروان قالوا: ذلك ابن اللعين، نحن إلى الله منه براء، هو عندنا أحل دمًا منكم، قالوا: فأنتم منه براء في الدنيا والآخرة قالوا نعم، كبراءتنا منكم قالوا وأنتم له أعداء أحياءً وأمواتًا، قالوا نعم، نحن له أعداء كعداوتنا لكم، قالوا فإن إمامكم مصعبًا قد قتله عبد الملك بن مروان ونراكم ستجعلون غدًا عبد الملك إمامكم وأنتم الآن تتبرؤون منه وتلعنون أباه. قالوا كذبتم يا أعداء الله. فلما كان من الغد تبين لهم قتل مصعب فبايع المهلب الناس لعبد الملك بن مروان".

وفي رواية للطبري أرسل عبد الملك بن مروان إلى المهلب يقول له " الناس مجتمعون على بيعتي فإن دخلت

عرفنـا لـك منزلتـك... وإن لم تفعـل اسـتعنا بـالله عليـك[1]".

هكـذا ينتقـل الـولاء للأمويـين ومـن جديـد، فعـلى مسـتوى المنطـق والواقعـي - كان زوال سـلطة مصعـب المسـتمدة مـن سـلطة أخيـه في مكـة وعجـزه عـن مواجهـة عبـد الملـك بـن مـروان السـلطة المركزيـة الجديـدة الأقـوى والأكثـر تجـذرًا واندماجًـا. بـدأت ومـن خـلال التحالفـات ومـع الزمـن تكتسـي طابعًـا سياسـيًّا وشرعيًّـا -. فـكان هـذا التحـول، تحـولًا بقـي محكومًـا بمجموعـة العوامـل والمعطيـات الماثلـة.

المهلـب نمـوذج براجمـاتي، شـخصية تتحـرك في ضـوءِ معطيـات ومحـركات الفعـل السـياسي وفي جوهـره مـن منطلـق المصالـح وضـمان اسـتمراريتها

ليـس الأيديولوجـي أو الدينـي إذًا هـو الـذي يحـدد هـذه التحـركات ويعطيهـا مبرراتهـا، إنهـا المصالـح وطبيعـة المكتسـبات التـي تضمنهـا، هـذا هـو محـور الـدور الـذي يتقاطـع فيـه خـط القبيلـة مـع خـطِّ السـلطة ومـع المصلحـة والمكتسـبات. هـذا لا ينفـي بطبيعـة الحـال غيـاب الدوافـع الأخـرى، لكـن الارتبـاط الدائـم بـما هـو واقعـي ومنطقـي وسياسـيي وقبـلي.

يبقـى القـول أنـه مـن غـير الممكـن فهْـم هـذه التحـركات، إلا إذا أخذنـا بعـين الاعتبـار واقـع الاسـتقلالية النسـبية التـي ميَّـزت هـذه الشـخصيات كقيـادات وزعامـات قبليـة.

(1) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج7، ص 198-199.

نجحت هذه الشخصيات وإلى حد بعيد في ضبط التوازنات، ليس لصالحها فقط وإنما لصالح السلطة أيًّا كانت. كان ذلك حتى في أشد فترات ضعف الخلافة أو غيابها تمامًا، حيث بقيت هذه القيادات والشخصيات الضامن الرَّئيس لتشكل أية سلطات جديدة.

عمليًّا كان المهلب – وبعد مبايعة عبد الملك خليفة – قد تم تعيينه من جديد واليًا بنواحي خراسان، بل وشكر عبد الملك بن مروان للمهلب موقفه. وفي العام 74 هـ عندما وصل خبر هزيمة جيش الأمويين على يد الأزارقة[1] قرر والي البصرة آنذاك خالد بن عبد الله بن أسيد تنحية المهلب عن حربهم وعهَد إلى أخيه عبد العزيز بقيادة الحرب على الأزارقة، إلا أن الأخير هُزم، وعليه في ظل الانتكاسات المتوالية في الحرب مع الأزارقة، يكتب الخليفة عبد الملك إلى خالد بكتاب يلومه جاء فيه:" قبح الله رأيك حين تبعث أخاك عبد العزيز أعرابيًّا من أهل مكة على القتال، وتدع المهلب، وهو الميمون النقيبة، الحسن السياسة، البصير بالحرب، المقاسي لها وابن أبنائها".

(1)يقول الدينوري "سموا أزارقة برئيسهم نافع بن الأزرق". انظر: الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتب العربي – القاهرة ط1، 1960م "ويورد البلاذري" منهم الأزرق الذي نسبت الأزارقة إليه. كان عبدًا روميًّا حدادًا وهو أبو نافع بن الأزرق الخارجي. انظر: البلاذري، فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، 1988م.

هكـذا إذن تُقـر رسـالة الخليفـة بـأن المهلـب قيـادة عضويـة فاعلـة، بـل ذهبـت الرسـالة لأبعـد مـن ذلـك حـين جعلتـه ابنًـا مـن أبنـاء الحـرب بـكل مـا تحملـه العبـارة مـن دلالات ملحميـة ترتقـي لتلـك التـي تقـرأ في ملاحـم الإغريـق القديمـة، هـذا الإقـرار الـذي يحمـل في طياتـه كذلـك معطيـات ربـما تشـير إلى واقـع مـا قبـل الإسـلام، ولا غـرو أن الحجـاج نفسـه - بـكل مالـه مـن (كاريزمـا) وحضـور تاريخـي (هـو الآخـر) - أقـر للمهلـب بـما كان اشـترطه مـن قبـل عـلى أهـل البـصرة إبـان حـرب الأزارقـة.

وفي عهـد ابـن الزبـير كذلـك يقـول ابـن أعثـم أن الحجـاج الـذي تـولى أمـر العـراق في العـام الخامـس والسـبعين مـن الهجـرة، كتـب ليعلـم المهلـب أنـه قـد جعـل لـه الـشرط الأول، وأن لـه خـراج مـا غلـب عليـه مـن البـلاد إلى أن يقـضي حـرب الأزارقـة، فكانـت الأمـوال تنتقـل إليـه مـن أرض فـارس إلى أرض البـصرة، مكتـوب عليهـا: (هـذا مـا أطعـم الله المهلـب بـن أبي صفـرة ممـا غلـب عليـه مـن بـلاد الله يحملـه إلى قومـه، لا يعـترض عليـه معـترض)[1].

روايـة أخـرى تؤسـس بطبيعة الحـال لشـكل وصـورة الخلفية التاريخيـة لهـذه الشـخصية وتمكـن مـن الإجابـة عـلى بعـض الاسـتفهامات لاسـيما الخاصـة بطبيعـة المصالـح والمكتسـبات عـلى وجـه التحديـد.

---

(1)ابن أعثم الكوفي - الفتوح،ج،7، ص 13.

بـإزاء هـذا، ربـما شـعر الخليفـة عبـد الملـك ببـوادر صراع وتنافـس مبكـر بـين المهلـب والحجـاج حيـث يقـول الطـبري إن فـارس صـارت في يـدي المهلـب، فبعـث الحجـاج، عليهـا عمالـه وأخذهـا مـن المهلـب، فبلـغ ذلـك عبـد الملـك، فكتـب إلى الحجـاج دع بيـد المهلـب خـراج جبـال فـارس، فإنـه لا بـد للجيـش مـن قـوة، ولصاحـب الجيـش مـن معونـة، ودع لـه كـورة فسـا ودرابجـرد، وكـورة إصطخـر، فتركهـا الحجـاج.

مـن الواضـح أن الخليفـة عبـد الملـك كان يـدرك أن الـصراع بـين المهلـب والحجـاج، إن تطـور (والحـال أنـه منخـرط في قتـال شرس مـع الأزارقـة) سـيكون مهـددًا الخلافـة نفسـها بالاختناق، ولعـل هـذا مـا دفعـه لسرعـة اسـتقراء طبيعـة الوضـع بشـكل أكثـر حـذر بـإزاء هـذا التهديـد (الماثـل)، وعليـه تـم الإيعـاز وبشـكل سريـع للحجـاج بـترك المهلـب ومـا تحـت يـده مـن أمـوال أو خـراج، وعـدم المسـاس بأيـة مزايـا حاليـة يتمتـع بهـا .

لكـن ومـع مـا يحققـه المهلـب مـن مكاسـب، ومـع تصاعـد العصبيـة القبليـة في نفـس الحجـاج ونفـوره مـن المهلـب، يكتـب الأول للثـاني رسـالة تقريـع فيهـا " بلغنـي أنـك قـد أقبلـت عـلى جبايـة الخـراج وتركـت قتـال العـدو وإني وليتـك... واخترتـك وأنـت مـن أهـل عـمان ثـم رجـل مـن الأزد " لـيرد المهلـب هـو الآخـر بالقـول: "مـن يعجـز عـن جبايـة الخـراج فهـو عـن قتـال العـدو أعجـز، وزعمـت أنـك اخترتنـي وأنـا رجـل مـن الأزد ولعمـري إن شرًا مـن الأزد لقبيلـة تنازعتهـا ثـلاث قبائـل

لم تستقر في واحدة منهن (ويقصد بذلك قبيلة ثقيف). يتلو ذلك كتاب على لسان رسول الحجاج نفسه فيه " العجب أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره"، وعندما وقع الخلاف بين الأزارقة وطلب الحجاج من المهلب مجددا سرعة إنهاء الأمر وقتالهم بعث المهلب برسالة جاء فيها "لست أرى قتالهم مادام يقتل بعضهم بعضًا". في نهاية الأمر استطاع المهلب الانتصار على الأزارقة واستئصال شافتهم وأن يكتب له الحجاج بالقدوم عليه وقال: "يا أهل العراق أنتم عبيد المهلب"، بل وتقديرًا لجهوده في حروب الأزارقة، تولى المهلب ولاية خراسان من جديد في العام 78هـ.

في هذه الأثناء حاول ابن الأشعث استمالة المهلب ضد الحجاج ومع الصراع الذي دار بين الحجاج وابن الأشعث يقول البلاذري أن المهلب كتب إلى ابن الأشعث حين بلغه خلعه: "إنك يا بن محمد قد وضعت رجلك في غرز طويل الغي، فالله الله يا بن أخي انظر لنفسك ولا تهلكها"[1]. رافضا الانجرار في خضم هذا الصراع.

توفى المهلب بمرو الروذ في العام 82هـ وهو قول الذهبي[2] وقيل عام 83هـ وهو قول الطبري[3]. إذن مات

(1)البلاذري، أنساب الأشراف، 319.

(2)الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج5، ص 331.

(3)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج7، ص 297.

المهلب بعد أن عاش حياته منغمسًا في الصراعات والحروب والسياسية، لكن بقيت مشاهدة التاريخية في مجملها تعبر عن تصورات منطقية واقعية.

وربما يُساعد تحليل مضامين بعض هذه المراسلات على فهم طبيعة المهلب وطريقة تحركه، إذ توحي في مجملها بقدرته على احترام التوازنات القائمة، مثل تلك التي كانت قائمة في فترة الحجاج. لقد كان يُدرك أن التضحية بعلاقة سلمية وطيبة معه، ولو كان ذلك مع ضمان الطاعة للخليفة عبد الملك، يمثل مجازفة قد تقضي على كل طموحه السياسي وتحرمه مكاسبه ومكاسب قبيلته.

يدل مضمون بعض هذه المراسلات أيضًا على تحوله التدريجي بفعل الواقع، وما تفرضه الأحداث إلى التصرف بتأنٍّ شديد حتى في المسائل الجزئية.

إن هذه الصورة التي تتشكل لنا بالنسبة للمهلب، تشي كذلك أن تحركاتها كانت معزولة عن المستويات الدينية والمعتقدية والروحية، تحركات متجذرة داخل مجالها القبلي وتعمل على هذا الأساس.

شخصية تجاوزت كذلك في تحركاتها ونشاطاتها السياسية والعسكرية (الجهادية)- بفعل هذه الحدود إلى ما هو واقعي ومنطقي إلى ما نجمعه في مصطلح (البراجماتية). على ضوء هذه المعطيات إذن، يمكن تفكيك ما أحاط بالمهلب من روايات ونصوص وأخبار مشابهة، تشكلت من خلالها

صورتـه في مصـادر التاريـخ الإسـلامي. نأخـذ بعـين الاعتبـار كذلـك تجربتـه الغنيـة بتاريـخ قبـلي.

أخـيرًا، بقـي أن نثـير الانتبـاه إلى إحـدى المفارقـات، التـي شـكَّلت خصوصيـة بـارزة بالنسـبة إلى هـذه الشـخصية وهـي أن المصـادر تبـدو لدرجـة كبـيرة متفهمـة ومسـايرة لطبيعـة المصالـح التـي كان يريـد المهلـب أن يضمنهـا، في حـين أن نفـس هـذه المصـادر ترفـض ذلـك وتنتقـده في حـالات شـخصيات أخـرى مثـل أبـو الأعـور السـلمي وشـبث بـن ربعـي. لا شـك في أن السـبب في ذلـك هـو مجموعـة معطيـات سـاهت في تلطيـف صـورة هـذه الشـخصية، مـن أبرزهـا كفـاح هـذا القائـد وتصادمـه مـع مـا هـو مُعتـبر مـن ضمـن منظومـة الـشر والتمـرد مثـل صراعـه مـع الأزارقـة، ووقوفـه في وجـه جـبروت الحجـاج ومهادنتـه، وقربـه في فـترة مـن الفـترات مـن الخليفـة عـلي.

ربـما حمتـه هـذه المعطيـات مـن هجـوم (الـرواة والمؤرخـين) ولـو أنهـا لم تكـن كافيـة لتحويلـه إلى شـخصية مقدسـة أو رمْـز دينـيٍّ.

ولعـل مـن النقـاط المهمـة التـي يمكـن لنـا أن نختـم بهـا معالجتنـا لهـذه الشـخصية التـي جعلناهـا خاتمـة الشـخصيات المدروسـة في الكتـاب، هـي أن المهلـب وسـيرته تعطينـا عينـة حيـة مـن طبيعـة الفعـل السـياسي مـن قبـل قيـادات القـرن الإسـلامي الأول. فـكل السـلطات التـي تعامـل معهـا المهلـب تعاملـت

معه بإيجابية كبيرة (نظريًّا وعمليًّا)، تعامل بعيد عن الرمزي والملحمي الذي تراكم عليه، تعامل اصطدم في مرات عدة مع قيم العدل والحق والحرية والمساواة!

لم تكتسي شخصية المهلب في مختلف تحركاته بأي كساء أيديولوجي أو قداسة خاصة، فالكل تعاطى واصطنع رجلًا سياسيًّا وقائدًا عسكريًّا يحقق مصالح النظام أو الخلافة دون أن يضفي على فِعله مبررات دينية أو أخلاقية أو مثالية، تحركات كانت تبحث عن الانجاز المنطقي على أرض الواقع. فسواء في عهد الخلافة أو دولة الأمويين أو معارضة ابن الزبير في مكة، قبلت السلطة بالشروط التي كان يشترطها المهلب، في مقابل تحقيقه لمصالح هذه المنظومات.

ما يمكن أن نختم به هو التساؤل حول ما إذا كان سلوك السياسيين هذا قد ارتبط أيضًا بطبيعة الفعل السياسي سواء في هذه الفترة من تاريخ الدولة الإسلامية أم في غيرها، فبِمَ كان يرتبط؟

الأصل عند جميع السياسيين في كل فترات التجربة الإنسانية هو الانطلاق من نقطة الإنجاز وتحقيق المصالح الواقعية التي تؤمن لهم المزايا والمكتسبات التي من أجلها يعملون (سواء تحت ظل منظومة الدولة) التي استخدمتهم أو جندتهم لصالحها أو حتى تحت عباءة تطلعاتهم وطاقاتهم الشخصية.

والنتيجة أن (براجماتية هذه النماذج) مثلت فضاء العرض والاستثنائي، فضاء الممكن والمحتمل والمعقول، بل وفضاء النسبي أيضًا، فضاء لصفة متجذرة في طبيعة التفكير السياسي القبلي في الجزيرة العربية، وربما ظل ذلك حتى اليوم.

الفصل

الخامس

5

الاحتماء بالتاريخ

ما سبق عرضه يأتي في سياق محاولات جدية للقيام بالرصد التاريخي غير المؤدلج لنماذج فاعلة ومحركة لأحداث القرن الأول الهجري، ومنابع صناعة التغيير فيه.

كان دافعنا الأصلي حين البحث في ميكانيزمات حركة وتطور صورة الشخصيات الأربع (شبث، وأبي الأعور، وابن خازم، والمهلب)، منطلقًا من النتائج التي حازتها هذه الشخصيات، وما ترتب عليه من مشاهد تاريخية لاحقة، ومحاولة جعل هذه المشاهد في النهاية تشكل نتاجًا تاريخيًا قابلًا للتصديق أو الرفض، يبقى أنه ما كان من الممكن الوصول إلى تحديد طبيعة هذه الأدوار دون اختراق ما نسجه المؤرخون والرواة حولهم من أخبار.

أما عن نقطة التشابه بين الشخصيات وبين نظيراتها الأخرى في نفس الفترة، فتتمثَّل في أن هذه الشخصيات إضافة إلى أنها امتلكت سلطة (فاعلة) وقدرة على إحداث تغييرات منطقية على أرض الواقع، إلا أنها ارتبطت في جزء كبير من تحركاتها وأفعالها، بأهم

الرمــوز الدينيــة في وقتهـا وكانــت ضمــن منظومتهـا ســواء (في الســلطة أو المعارضــة)[1].

تؤكـد هـذه الشـخصيات أنهـا رغـم مـا امتلكتـه مـن أدوات التغيــير والفاعليــة بالنسـبة لأحـداث القــرن الأول الهجــري إلا أنـه – ولأسـباب مختلفـة – تـم وضعهـا بعيـدًا عـن مسـار التاريـخ التمجيـدي النموذجـي أو المثـالي الـذي حازتـه رموز وشـخصيات أخـرى، شـخصيات تُثبـت حقيقـة يُتغافـل عنهـا (ربـما بسـبب الخـوف مـن التصـادم مـع التقليـدي والدينـي، أو خوفًـا مـن الاتهـام بالتطـاول والتمـرد عـلى تاريـخ الأمـة في شـكله المُثبـت والراسـخ منـذ قـرون) وهـي أن تاريـخ القـرن الأول الهجـري لم

(1) فمنهــم مــن عمــل مــع الخليفــة عــلي ومنهــم مــن عمــل مــع الخليفــة معاويــة ومنهــم مــن عمــل مــع ابــن الزبــير ومنهــم مــن كان طرفًــا (أصيــلًا) في صراعــات مفصليــة كان الرمــزي والدينــي والمقــدس حــاضرًا فيهــا وبقــوة، بــل وتشــاركوا مــن خلالهــا جوانــب التحصــين تــارة والاحتــماء بفاعليــة التقديــس أو رمزيــة المضامــين (الخــير والــشر) تــارة أخــرى.

يكـن مثاليًّـا عـلى طـول الخـط وأن الديني لم يكـن وحـدة الفاعـل الأبـرز.

إن النظـر لمسـببات المشـاركة الفاعلـة تاريخيًّـا للشـخصيات الأربـع، وممارسـاتها، ودرجـة ارتباطهـا بالقـدرة عـلى التغيـير والفاعليـة التاريخيـة لهـذه الفـترة تؤكـد إن هـذه القيـادات البراجماتيـة عملـت داخـل دائـرة دولـة الإسـلام وشـاركت في الجهـاد وسـاهمت في الفتوحـات وتثبيـت الأمـن، منهـا مـن عمـل في الـشرق مثـل ابـن خـازم بخراسـان ومنهـا مـن عمـل في الغـرب كأبي الأعـور السـلمي.

هـذه الشـخصيات كانـت مؤثـرة بدرجـة كبـيرة في معظـم مراحـل الفتـوح وأسـبابها، تولـت أمـر المسـلمين وحكمـت باسـم الخلافـة وأكـدت مـن خـلال سـلوكها الملمـوس أن الواقـع السـياسي واقـع يكـذب فرضيـة نموذجيـة النظـرة المثاليـة لصـدر الإسـلام، بـل يثبـت الإخبـار التاريخـي التقليـدي عـن شـبث وأبي الأعـور وابـن خـازم والمهلـب أن هنـاك أحـداث تاريخيـة تبلـورت في حيـز رؤيـة أيديولوجيـة جعلـت التاريـخ بمثابـة اسـتمرار لقضيـة الـصراع بـين الخـير والـشر الحـق والباطـل فحسـب.

شـخصيات احتـاج تاريخهـا إلى صياغـة خاصـة، صياغـة بـدا مـن المقبـول فيهـا تشـويه مطالبهـا السياسـية والقبليـة وإلباسـها رداء القبـح والـذم، رغـم أن هـذه الشـخصيات كانـت منخرطـة في أعـمال الجهـاد والفتـوح وفـرض العـدل وإقـرار الأمـن ضمـن منظومـة السـلطة تـارة، أو المعارضـة تـراه أخـرى.

رأينـا كيـف أنـه إن كانـت هـذه الشـخصيات في خضـم الانخـراط في الخـط التقليـدي للمثاليـة الإسـلامية، ومـع ذلك فإن التاريـخ في هـذه الحالـة كان حـاضرًا لإعـادة إنتاجهـا عـلى نحـو معقـول للقـارئ وإلباسـها وتحركاتهـا لبـاس القبـول والرضـا.

رأينـا أيضًـا كيـف أن مثـل هـذه الشـخصيات كانـت تمثـل الجانـب غـير المحبـب أو قـوى الظـل المرفوضـة المخالفـة لنظريات المؤرخـين حـول فضيلـة التاريـخ الإسـلامي ونموذجيتـه، ممـا جعلهـا تسـتحضر أو تُسـتجلب في كثـير مـن الأوقـات لأجـل قضايـا وأهـداف معينـة ومنتقـاه ومـن ثـمَّ باختفـاء أو انتهـاء هـذه لأحـداث تعـود هـي الأخـرى لتختفـي مجـددًا في ثنايـا كتـب التاريـخ.

إن هـذا المعطـى بالنسـبة لهـذه الشـخصيات تـم الإصرار عـلى تجاهلـه خوفًـا مـن أن يـضر بصـورة التغـير الإبسـتيمولوجي والأخلاقـي الـذي أحدثـه الإسـلام.

إن مصطلـح "البراجماتيـة" الـذي اسـتخدمناه في وسـم هـذه الشـخصيات بـه وعـلى الرغـم مـن حداثتـه، بـدا لنـا أكثـر ملائمـة وقربًـا.

شـبث بـن ربعـي مثـلًا مثـل نموذجًـا مُربـكًا للصناعـة المثالية للمؤرخـين الذيـن فقـدوا القـدرة عـلى تحديـد تصنيفهـا، وفشـلوا في مـرات كثـيرة في التعامـل مـع النصـوص والروايـات المتعلقـه بـه.

لا يمكـــن القـــول كذلـــك بـــأن شـــبث وأبـــا الأعـــور وابـــن خـــازم والمهلـــب غابـــوا مـــن دائـــرة الروايـــة أو تـــم تجاهلهـــم فيهـــا، عـــلى العكـــس فرضـــوا حضورهـــم مـــن خـــلال الوقائـــع والأحـــداث التـــي تحركـــوا داخلهـــا، وكانـــت الصناعـــة التاريخية تنطلق في شـــأنهم مـــن مجموعـــة معطيـــات عامـــة، معطيـــات مرتبطـــة بتاريـــخ الأمـــة / تاريـــخ الديـــن الإســـلامي / تاريـــخ العـــرب، هـــذه المعطيـــات التـــي كانـــت تنظـــر لمثـــل هـــذه الشـــخصيات مـــن منطلقـــات فضيلـــة دينيـــة تحتـــم قراءتهـــا قـــراءة ذات منتـــج إيجـــابي وبدرجـــة عاليـــة[1].

لا شـــك أن البعـــض ســـيرى في طريقـــة عرضنـــا واســـتعراضنا لهـــذه الشـــخصيات اســـتفزازًا أو تشـــكيكًا في قيمـــة شـــخصيات القـــرن الأول مـــن تاريخنـــا الإســـلامي، وربـــما يـــرون فيهـــا تعارضًـــا مـــع التصـــورات الدينيـــة نفســـها لاســـيما أفضليـــة القـــرون الأولى (إســـلام الأصـــول) ورجالـــه[2]. وهـــذا مـــردود عليـــه بأننـــا لا نـــبرأ ولا نديـــن، بـــل نحـــاول فقـــط فهـــم المنطقيـــة والمعقوليـــة وأســـباب

---

(1) فرغـــم أن هـــذا بحـــد ذاتـــه كان محـــل خـــلاف وتصـــادم بـــين غايـــات المؤرخـــين ومعطيـــات الإخباريـــين إلا أن المحـــور الرئيـــس الـــذي أردنـــا أن يكـــون محـــل نظـــر تمثـــل في خطـــورة طغيـــان المثاليـــة كنمـــط أســـاسي للشـــخصيات والحـــوادث للقـــرن الأول الهجـــري، عـــلى اعتبـــار أنهـــا منتـــج الديـــن وفضيلتـــه

(2) ومـــع حديـــث الرســـول ﷺ (خَـيْرُ النَّـاسِ قَـرْنِي، ثُـمَّ الَّذِيـنَ يَلُونَهُـمْ، ثُـمَّ الَّذِيـنَ يَلُونَهُـمْ).
فحتـــى هـــذه القـــراءة مـــن البعـــض ســـتكون قـــراءة مرتبطـــة هـــي الأخـــرى بالتســـليم بالقديـــم وبعصمتـــه دون محاولـــة فهـــم دوافعـــه وأســـبابه.

الفعل التاريخي الذي تم وحقيقته.

أيضًا قد يثير سعينا اعتراضًا (مهمًّا) يتمثل في أن هذه المراجعة لا يمكن أن تكون عبر نماذج وشخصيات أو وقائع وأحداث (منتقاة)، لكن في واقع الحال، نحن لا نسعى إلى إدانة ولا إلى تمجيد بقدر ما نسعى إلى معرفة أعمق لأصول الفعل التاريخي المحرك في ذلك الوقت، ندعو إلى عملية نقض لركام ما علق بكثير من النصوص وقراءتها قراءة منطقية خارج دائرة المقدس والمثالي، قراءة تستطيع الإجابة على تساؤلات تاريخية مقبولة " كيف حدث....ماذا حدث".

النظر بعمق إلى الكثير من الروايات والنصوص التي تحرك فيها شبث وأبو الأعور وابن خازم والمهلب في ثنايا المصادر الإسلامية، وما اعتراها من التشويه والارتباك والتجريح، والقدح والذم الذي طال بالإضافة لهم زوجاتهم، كما هو الحال بالنسبة لشبث وأبي الأعور، فضلًا عن التعريض بالأم كما هو الحال مع ابن خازم على سبيل المثال.

كل ذلك يثير ويضعنا أمام ملابسات وتساؤلات مقبولة، فحتى نستطيع أن نُمسك بالشكل الذي جرى فيه العمل التاريخي لا يمكننا أن نستبعد منها - أو نفصل عنها - أي دافع، لا المصالح والمغانم ولا الطموح ولا الصراع.

أن محاولة جعل البراجماتيين في شكل استثناء من قاعدة الفضيلة في تاريخنا الإسلامي هو أصل الوهم، خاصة وأن مجمل الفعل السياسي جرى من خلال شخصيات من هذا

الصنـف، كانـت تتحـرك مـن منطلقـات براجماتيـة وواقعيـة حقيقيَّـة. في المقابـل، لا نجـزم بعـدم وجـود شـخصيات اسـتدعت طبيعتهـا وظـروف تحركهـا مثاليـة عاليـة. فقيـادات دينيـة كعـلي ومعاويـة مثـلًا، في مستوى تعاملهـم مـع مثـل هـذه الشـخصيات (البراجماتيـة)، كانـت تـدرك تمـام الإدراك المطالـب القبليـة والطمـوح الشـخصي لبعضهـم، تعاملـت الرمـوز الدينيـة معهـم في مشـاهد موسـعة عـلى هـذا الأسـاس. فهـذا شـبث - كـما رأينـا - وبعـد الخـروج عـلى الخليفـة عـلي وقتالـه يعـود مجـددًا بطلـب مـن عـلي (نفسـه) لينضـم تحـت لوائـه ويصبـح في مركـز قيـادي أعـلى.

وهـذا معاويـة يقـر ابـن خـازم عـلى مـا تحت يـده في خراسـان حتـى ولـو كان ذلـك عـن طريـق الخدعة.

عمـل المؤرخـون عـلى صناعـة المـبررات والمسـوغات لـكل الشـخصيات المثاليـة في التاريـخ الإسـلامي لأنـه كان عليهـم حماية هـذه الرمـوز مـن الانتقـاد، ثـم تـم اسـتهداف هـذه القيـادات (مثـل ابـن خـازم وشـبث وأبي الأعـور والمهلـب) وتحويلهـا إلى متاريـس تتمـترس خلفهـا الرمـوز الدينـة وتتلقـى تاريخيًّـا بـدلا منهـا التجريـح أو اللـوم.

ومـن المؤكـد أننـا نتفهـم أن الفعـل التاريخـي، والدوافـع التـي تشـكلت (لاحقًـا) كان عليهـا تقديـم "حمايـة " للشـخصيات الرمزيـة لتكـون نـماذج الخـير المطلـق والفضيلـة، لكـن هـذه القـدرة عجـزت عـن تغييـب آثـار السياسـة الحقيقـة التـي كانـت

تنطلق من مصالح القوى السياسية. وحاولت حصرها في صيغة ضيقة داخل جدران (الديني والمقدس)

فمن ولوا شبث بن ربعي في صفين، يقابلهم من اختاروا أبا الأعور أيضًا في صفين!

ومن قاتل الخوارج وزعيمهم شبث بعد صفين هو نفسه من اختار شبث لمحاربة الخوارج في النهروان[1]! ومن قاتل الحسين في كربلاء هو نفسه من دعم وانضم لدولة المختار لأجل المطالبة بدم الحسين!

فكل من شبث وأبي الأعور وابن خازم والمهلب كانوا يمثلون المنطق الواقعي أو البراجماتي، تقابلهم الرموز والشخصيات المحمية التي تمثل (النموذجي أو المثالي)، وبهذا يصبح التشويش على أي رمز من الرموز والقيادات الدينية الكبرى (الخليفة على أو معاوية مثلًا) أمرا غير مقبول تاريخيًّا، بل اعتبره البعض خطرًا يهدد الصورة التقليدية والمثالية لدولة الإسلام.

---

(1)"النهروان" معركة جرت في شعبان سنة 38 هـ، ودارت رحاها بين علي والخوارج، حيث انتصر فيها علي وسار بعدها بالناس بالنخيلة تمهيدا لمواصلة المسير إلى أهل الشام حيث فوجئ بعدها علي بتسرب كثير من الجند وانسلالهم نحو الكوفة، يقول خليفة بن خياط "وقتل من أصحاب علي اثنا عشر رجلًا أو ثلاثة عشر رجلًا" انظر تاريخ خليفة، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار القلم، بيروت، ط2،ص197.

فعلى سبيل المثال، هل كان من المقبول عند المؤرخين، حين خرج شبث عن معسكر الخليفة علي، الحديث عن واقعية هذا الفعل وتبرير أسبابه؟

إن رأيًا من هذا الصنف يقود إلى مجموعة من النتائج أولها وأبرزها فقدان الخليفة علي لجزء من شرعيته تاريخيًّا، إثر خروج جزء كبير من جيشة ورفضهم عملية التحكيم.

عملية التحكيم نفسها التي جرت بعد صفين ورفع المصاحف، تتهم المصادر أبا الأعور بأنه هو من قام بذلك، وربما لا يكون هذا الصنف من الروايات سوى إنتاج لاحق تمت بلورته لكي يكون ترسًا يحمي الشخصيات المقدسة من اللوم بعد هذا الاقتتال الأهلي الأكبر والأشد دموية في تاريخ المسلمين الأوائل، والذي راح ضحيته عدد كبير من الصحابة والتابعين.

تخوض المصادر كذلك في عملية الخداع التي قام بها ابن خازم لتولى الحكم، وسرعان ما تُلحقها بقصص انتصاراته على قارن النهاوندي وهو على رأس أربعة آلاف في حين كان خصمه يقود أربعين ألفًا. هكذا إذًا تختفي آثار الخدعة، ويرتسم مشهد الانتصار لقيادة إسلامية تُرسخ بعملها الحكم الإسلامي وتُثبت أركانه.

القرن الأول بين الانتصار للديني والبعد السياسي

قلـمّا تجـد إجابـة عـن التسـاؤل "مـن كان يحـرك الحـوادث التاريخيـة ذات الطبيعـة البعيـدة عـن الديـن والأخـلاق والرمزيـة والمقـدس في القـرن الأول؟".

فبعـد مـضي أربعـة عـشر قرنًـا مـن الزمـان يتجـدد التسـاؤل عـن الأسـباب التـي جعلـت التاريـخ الإسـلامي مفتقـدًا في كثـيرًا مـن الحـوادث التـي أنتجهـا للترابـط المنطقـي بـين مـا هـو دينـي ومـا هـو سـياسي.

إن "الأوديسـا" الدينيـة التـي خلقتهـا المصـادر لمنابـع الفعـل والتغيـير بـات مـن المحتـم أن يرافقهـا قـراءة أكثـر مرونـة وواقعية، قـراءة تسـتطيع جعـل التطـور التاريخـي لهـذه الأفعـال والأحـداث مفهومًـا ومقبـولًا.

بعيـدًا عـن سـلطة الأوصيـاء؛ التـي لم تعالـج القضايـا الرئيسـة، ولم تتطـرَّق إلى المسـكوت عنـه بـل والتـي زادت في حيِّـز التَّماهـي وخلـق جدليـات وقطيعـة. يكـون الابتعـاد عـن القـراءة التقليديـة الانتقائيـة والتقديسـية المنسـوجة حـول شـخصيات القـرن الأول الهجـري (تحديـدًا) لـه أهميـة في زيـادة القـدرة عـلى فهـم مـا حـدث بقصـد اسـتئناف المسـار، وفتـح آفـاق القـراءة النقديـة للمـوروث الدينـي.

التاريخ لم يكن يومًا حكرًا على الديني والمقدس، والرمز أو تجسيدًا لصراع الحق والباطل و(القيم النبيلة ومضاداتها)[1].

تغييب... أم... استذكار منقوص

تغييب جزء من الممارسة التاريخية الواسعة لشخصيات وقيادات حققت حضورًا ملموسًا، واستطاعت أن تكون منابع للتغير وللفعل السياسي الإسلامي وأحد أهم محركاته لصالح من؟!!

نتفهم أن تطورات التأليف التاريخي دفعت نحو بلورة بُعد مثالي وتدوين تاريخ الأمة من منطلق مثالي كان استجابة لاحتياجات المجتمع. لكن ذلك لم يستطيع أن يغيب حقيقة وجود هذه الشخصيات، ولم يكن في النهاية سوى كتابة لتاريخ الإسلام ذاته وليس تاريخ المجتمع، الأمر الذي أنتج تاريخًا أشبه ما يكون بما أسميناه "أوديسا دينية" يصعب المساس بها. ومن هنا تحديدًا يمكننا أن نفهم كيف عمل المؤرخون على توظيف هذه الشخصيات من خلال الروايات

(1) إن القدرة على فهم التحركات والتغييرات التي صنعتها مثل هذه الشخصيات بعيدًا عن ثنائية الخير والشر، هي وحدها القادرة على تحرير تاريخنا، وانعتاقه من الصورة المثالية التقليدية. إن هيمنة النظرة المثالية المطلقة للتاريخ جعلنا في وضع مثالي استثنائي يخالف كل التجارب التاريخية الإنسانية، لكن هذا الأنموذج المثالي يلبي فقط احتياجات الرواة المسلمين التقليديين، وبلا شك لا يعكس حقيقة ما كان.

والنصوص التي تناسب الأيديولوجيا[1] الدينية/ السياسية.

إن هذا الكتاب بما فيه من تأكيد على أن الخسائر التي خلفها التصور التاريخي المغيب لحقائق الفعل البراجماتي والاكتفاء بالسرد المثالي للتاريخ الإسلامي على الوعي الجمعي هو في الحقيقة ردة فعل على القلق من الاستمرار في السرد المثالي للتاريخ.

الاستمرار في إنتاج المثالية التقليدية، خصوصًا في تاريخ القرن الأول الهجري سيقود للمزيد من الضرر والضبابية.

إن الاستمرار في ترديد تاريخ استعراضي ومواصلة الاعتقاد أن التاريخ الإسلامي إنجاز ثقافي لا يوازيه إنجاز لاحق في التجربة البشرية الإنسانية هو أمر من شأنه أن يتحول إلى ثقافة تجمد[2] المجتمعات وتفقدها القدرة السياسية مقابل السلطة والحكم.

فالمُحقق أن المجتمعات الإسلامية، ومنذ سقوط الخلافة الإسلامية في بغداد، استيقظت لتجد نفسها أهم الخاسرين أمام تاريخ موظَّف، تاريخ ليس بمقدوره أن يضيف لها، تاريخ فقدت أيضًا معه القدرة على مجاراة التاريخ القديم نفسه.

---

(1) يرى Karl Mannheim عالم الاجتماع ان المجتمع السياسي ميدان للدعوة من أجل المصالح، ولكي تكتسب أي أدلجة أتباعًا فلا بد أن تنظر إلى المنافسين باعتبارهم أطراف وقوى تمارس التزوير والخداع.

(2) تركي علي الربيعو، الحركات الإسلامية في منظور الخطاب العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، ط1، 2006.

لقد قُدِّم أبطال هذا التاريخ في أدوار جعلتهم أبعد ما يكونون عن الفعل البشري الطبيعي. بالَغ المؤرخون وجردوا الحوادث من مسبباتها الطبيعية وربطوها بمسببات ميتافيزيقية حينًا وأخلاقية حينًا آخر، ووزعوها على مقياس الخير والشر والحق والباطل، وقدموا الفاعلين على أنهم أشخاصًا تنطلق تحركاتهم من منطلق الخير لكي تحارب الشر، وتراكمت هذه الصور لتشكل عبئًا وتحديًّا عبر الزمن لكل العناصر الحقيقية السَّاعية لتوجيه التاريخ.

ففي البداية كانت الشخوص أداة للضغط على السياسيين، فبالمقارنة مثلًا مع أبي بكر/ عمر/ عثمان/ وعلي، سيثبت فشل السياسيين، وسيثبت كذلك أن الحنق عليهم أمر مبرر، وكان ذلك مطلوبًا وأداة اجتماعية مفهومة تسمح للمجتمع بممارسة دور فاعل وضاغط على السلطات بمثالية هذه النماذج.

لكن، استطاعت السلطة فيما بعد تجاوز هذا المنظور، وإعادة صياغته وتوظيفه لصالح مزيد من القدرة على الفعل والتحرر من الالتزامات والإصلاحات[1]. وُظفت الرواية

(1) "ولأن السلاطين تخلو عن الأيديولوجيا والثقافة مرغمين فإن رجال الحديث والفقهاء ملكوا هذا الجانب، فالصورة التاريخية عن أمتنا والتي نمتلكها اليوم بوجهيها الثقافي والسياسي هي الصورة التي رسمها هؤلاء الفقهاء والمحدثين الذين كتبوا كتب التاريخ والفقه والتراجم وغيرها من أصول المعرفة التاريخية الإسلامية" انظر: رضوان السيد، الجماعة والمجتمع والدولة، المرجع السابق، ص 363.

المثاليـة المسـتندة إلى الجـذر الأيديولوجـي الأول (النـص وتأويلاتـه ولواحقـه[1] لصالـح السـلطة وليـس ضدهـا. ولنسـتعرض ما روي عـن أن رجُـلًا مـن الخـوارج جـاء إلى عـلي بـن أبي طالـب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائـلًا: "يـا عـلي مـا بـال النـاس انتقـدوا عليـك ولم ينتقـدوا عـلى أبي بكـر وعمـر؟ فقـال لـه عـلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن رجـال أبي بكـر وعمـر كنـت أنـا وأمثـالي، أمـا رجـالي فكنـت أنـت وأمثالـك!!". وهنـا يتضـح أن جـواب السـلطة عـاد بالمسـئولية عـلى المجتمـع.

تـأتي الحجـة مـرة أخـرى عـلى لسـان عبـد الملـك بـن مـروان. حـين سـمع أن أناسًـا يتكلمـون فيـه وفي خلافتـه، فجمـع أشراف النـاس ووجهاءهـم وتكلـم قائـلًا:" إنكـم تريـدون منَّـا أن نكـون مثـل أبي بكـر وعمـر؟ قالـوا: نعـم أنـت خليفـة وهـم خلفـاء!. قـال: كونـوا أنتـم مثـل رجـال أبي بكـر وعمـر "نكـن نحـن مثـل أبي بكـر وعمـر".

هـذه هـي القاعـدة التـي سـوقت والتـي اسـتطاعت بهـا السـلطة تحويـر إشـكالية مثاليـة النمـوذج، وبهـذا يصبـح تكـرار أو إعـادة إنتـاج حلـم الخلافـة الراشـدة أو الحكـم الصَّالـح لا يتحقـق إلا في ظـل وجـود شـعوب لابـد أن تكـون هـي الأخـرى مثلـما كان عليـه المحكومـين أيـام أبي بكـر وعمـر.

بهـذا، لم يكـن السـرد التاريخـي للصـورة المثاليـة سردًا ضاغطًـا عـلى السـلطة (كـما يفـترض) بـل في حقيقـة الأمـر كان ضغطًـا

(1) رضوان السيد، الجماعة والمجتمع والدولة، مرجع سابق، ص 364.

على المجتمع ذاته، فإن فضُل ذلك الجيل من الحكام فذلك بفضل المحكومين الذين عاشوا في ذلك الجيل، هنا تحديدًا يكون الانحراف، انحراف وأزمة خلقها تصدير مشهد النموذج المثالي الذي كان إحدى أدوات الضغط في مرحلة، ومن ثم تحول لإحدى أدوات السلطة في ضغطها على الشعوب في مرحلة لاحقة.

إن ثمة نقاط عديدة أخرى في هذه الإشكالية. إحدى هذه النقاط هي عقيدة المثالية التي يجب أن يرجع لها المجتمع، حيث تم توظيفها لصالح السلطة فأصبحت أكثر امتلاكًا لأدوات الصراع وأكثر قدرة على إدارة الحوادث وخلط الأوراق وفق مصالحها ووفق ما يخدم تكريس (طغيانها) في كثير من الأحيان. هكذا أصبح النموذج المثالي أداة لرفع الحرج عن السلطة، فالصورة المثالية تقدمها السلطات كصورة ممتنعة لأن الشعب هو المناقض لها.

نكتشف كذلك أن السلطة بتصدير هذا النموذج (المثالي) تحررت من قيودها، واستطاعت التخلص من تبعات ما يخصها، بل وألزمت المجتمع بالتغير، وجعلت الإصلاح رهين عودة المجتمع نفسه للعصر المثالي.

لم يكن من المستغرب إذًا أن نشاهد الفقهاء يطالبون المجتمعات الإسلامية بالرجوع لما كان عليه المجتمع الإسلامي في بداياته الأولى، أو قرنه الأول تحديدًا تحقيقًا لمتطلبات عودة السلطة للنَّسق نفسه.

إشكالية أخرى تضاف لوهم المثالية التقليدية التي ترى أن محاولات الإصلاح منطقها استلهام النموذج (الراشدي)، وليس في الأمر مفاجأة حين نجد أن معظم أو أغلب الأنظمة اللاحقة - استنادًا لهذا الواقع - حصلت على حصانة تاريخية أنتجها لها دعاة وفقهاء ومنظومة (انتمت للتاريخ) مستفيدة من تصدير المشهد المثالي لشخصيات وأحداث القرن الأول الهجري.

وعليه، يظل السؤال (الأنسب) متعلقًا بالأسباب التي منعت الأمة من مشاريع إصلاحية تحمل معها الحد من طغيان وتغول السلطة على المجتمع وإرغامها على القبول بمشاريع إصلاحية وتنظيرية فكرية للمجتمعات.

فكيف إن المجتمعات الإسلامية التي زخرت بكم هائل من الفقهاء والعلماء والمبدعين في كل المجالات بل كانت قلب الحضارة الإنسانية في فترة من الفترات، وقفت عاجزة عن إبداع منظومة ذات مؤسسات تقييميه أو إصلاحية مستسلمة لقيود (الحلم) بإعادة العصر الرَّاشدي - ويوتوبيا إعادة الأمة - لما كانت عليه إبان قرنها الأول الهجري، الذي كان التسارع على تحميله كل أدوات السرد المثالي، والاستسلام لواقع السلطة المفترضة وهي سلطة الخلافة الراشدة.

كذلك العجز عن تقبل فكرة أن أدوات (الفعل) ومسببات ومنابع (التغيير)، في القرن الأول الهجري، لم تكن مثالية على طول الخط، بل المستغرب إننا لا نستطيع أن نجد نصوصًا إصلاحيةً (منطقيةً) نستطيع من خلالها أن نقيم تجربة قُدِّمت

للسلطة أو الخلافة للمشاركة دون ربط بنودها أو ما تضمنته بالديني ودلالاته.

فأغلب من كان يقدم النصح والمشورة للحكام والخلفاء كانوا (الفقهاء والعلماء) الذين اعتبرت هذه القدرة منهم أعلى صور الشجاعة والإيثار بالنفس والجرأة. هذه المحاولات نفسها كانت تتم عبر مشروع الدين والديني، وما يرتبط بهما من قضايا أخلاقية (رفع الظلم، تطبيق الشريعة، العدل، الحدود، وغيرها من هذه الأدوات). إذًا لم يتم تقديم مشروع حقيقي لمنظومة سياسية تصلح الواقع السياسي بناء على متطلبات الواقع والمنطق الموجود، والسبب أن الصورة المثالية المرتبطة بالمخيال الجمعي استندت بشكل مباشر لصورة الخليفة الإمام العادل الراشد، ومنظومة الحق والباطل الخير والشر.

حتى الشخوص التاريخية والرموز الدينية، كانت تستحضر فقط بدون صلاحيات جديدة (المثالية التخديرية) أو (المثالية الطقوسية)، دون صلاحيات ودون أدوات منطقية قادرة على الفعل وتغيير الواقع المختلف كليًّا.

هذا ما أسهم في جعل التجربة التاريخية الإسلامية[1] تخسر إمكانيات الفعل والتغيير والإصلاح المنطقي والواقعي

(1) المصرة على الاستمرار في حالة تشتت (تاريخي) بمزج أنساق متباينة في أصول الاعتقاد وأحكام التشريع بالآراء والمواقف السياسية.

مقارنـــة بتجـــارب بشريـــة وإنســـانية أخـــرى، الخســـارة إذًا لم تكـــن لصالـــح المـــشروع المثـــالي أو المـــشروع الخـــيري، بـــل لغـــيره.

لا ندعـــي أن التاريـــخ الإســـلامي يخلـــو مـــن بعـــض المحـــاولات الجـــادة التـــي تصـــب في هـــذا الســـياق، لكننـــا نقـــول أن التصـــور ظـــلَّ في معـــزل عـــن الواقـــع والحقيقيـــة، ظـــل ســـجينًا لوهـــم (مثاليـــة تاريخيـــة) والاســـتمرار في التقليـــد.

وعـــلى الرغـــم مـــن تطـــور القـــوى والمضامـــين الثقافيـــة والفكرية في العلـــوم الإســـلامية، إلا أن ذلـــك التطـــور في مقابلـــة ظـــل هنـــاك قصـــور في إنتـــاج تصـــور واقعـــي أو حتـــى (مثـــالي عقـــلاني) يتيـــح القـــدرة عـــلى تطبيقـــه.

الواقـــع أنـــه كان مـــن المفـــترض أن تتطـــور الرؤيـــة المثاليـــة (التـــي لا يمكننـــا أن نفهـــم التجربـــة الإســـلامية عـــلى حقيقتهـــا اعتـــمادًا عليهـــا فقـــط) لكـــن هـــذا لم يحـــدث.

مـــا الفائـــدة إذن التـــي عـــادت عـــلى التاريخ وعـــلى تجربـــة الأمة حين غُيِّبَـــت مثـــل هـــذه النـــماذج وطوتهـــا ثنايـــا النصـــوص بعيـــدًا عـــن الأطـــر الحقيقيـــة التـــي كانـــت تتحـــرك مـــن خلالهـــا، ومـــا نتجـــت في ظلهـــا أو تحـــت تأثيرهـــا مـــن تطـــورات سياســـية وعســـكرية بـــل ومجتمعيـــة.

إن إبعـــاد مثـــل تلـــك الشـــخصيات مـــن الســـياق التاريخـــي المنطقـــي الـــذي تحركـــت فيـــه لصالـــح مشـــاهد معينـــة أخـــرى[1]،

---

(1)مرتبطـة بشـكل مبـاشر بالدينـي والعقائـدي، فالمسـار الـذي تشـكلت فيـه كثـير مـن مثـل هـذه النـماذج لم يكـن ليسـمح لهـا أن تتجـاوز هـذا الإطـار.

أمــر يزيــد في الإيهــام الأيديولوجــي، ويســهم في ابتعادنــا عــن المســار الحضــاري العقــلاني الــذي مــن خلالــه تقدمــت بقيــة التجــارب وأثمــرت.

تحميـل النمـوذج المثـالي أكثـر ممـا يتحمـل مـن شروط زمـان غـير زمانـه، ومـكان غـير مكانـه، سـبَّب للتاريـخ الإسـلامي نفسـه عزلـة حضاريـة. فـلا اسـتطاع مـن خـلال مثاليتـه أن يثبـت خصوصيـة حضاريـة تسـمح لـه بمواجهـة التحديـات القائمـة وفهـم حيثيـات الوقائـع التاريخيـة التـي جـرت وتقييمهـا عـلى نحـو موضوعـي واقعـي، ولا اسـتطاعت المثاليـة أن تقـدم للتاريـخ مشــهدًا منفتحًــا عــلى مجريــات ومنجــزات بقيــة الحضــارات يسـتطيع بواسـطته الاسـتمرار في وَهْـم تفـرد منجزاتـه الغيبيَّـة.

إن تأويـل المشـهد التاريخـي انطلاقًـا مـن المقاييـس الدينيـة والفكريـة والأيديولوجيـة، والبحـث عـن دوافـع الفعـل السـياسي في مسـتوى العقيـدة فقـط، يُهمـل حقيقـة أن الفاعلـين الأساسـيين في تاريـخ القـرن الأول الهجـري هـم في الواقـع أبنـاء (الجزيـرة العربيـة) الذيـن تحرَّكـوا وفـق وعـي مرتبـط بمكونـات الثقافـة والـتراث المحـلي المرتبـط والمتجـذِّر مـع القبيلـة ومقوماتهـا، التـي تمتلـك خصائـص معينـة لطبيعـة الفعـل التاريخـي

إن مفــردات هــذا الحــراك والفاعليــة المنتجــة يمكــن أن تفسر أصـول هـذه (البراجماتيـة) التـي ميـزت تلـك الشـخصيات وكانــت عنوانًــا لكثــير مــن ممارســاتها.

المصادر والمراجع

- ابـن اعثـم الكـوفي، الفتـوح، تحقيـق عـلى شـيري، بـيروت، دار الأضواء، 1991م
- ابــن الاثـير، الكامـل في التاريـخ، تحقيـق عمـر عبـد السـلام تدمـري، بـيروت، دار الكتــاب العــربي مــج3، 1997م
- ابـن الجـوزي، المنتظـم في تاريـخ الأمـم والملـوك، تحقيـق حمـد عبـد القـادر عطــا، مصطفــى عبــد القــادر عطــا، بــيروت، دار الكتــب العلميــة، 1992م
- ابــن حبــان، الســيرة النبويــة وأخبــار الخلفــاء، ج2، النــاشر: الكتــب الثقافيــة – بــيروت الطبعــة: الثانيــة، 1417 هــ
- ابـن حجـر العسـقلاني، الإصابـة في تمييـز الصحابـة، تحقيـق عـادل أحمـد عبــد الموجــود وعــلى محمــد معــوض، دار الكتــب العلميــة، بــيروت، 1991
- ابــن حجــر العســقلاني، تقريــب التهذيــب، تحقيــق، محمــد عوامــة، دار الرشــيد – ط1، 1986

- ابـن خلـدون، ديـوان المبتـدأ والخـبر في تاريـخ العـرب والبربـر ومـن عاصرهـم مـن ذوي الشـأن الأكـبر، خليـل شـحادة، سـهيل زكار، دار الفكـر، 2000م
- ابـن خلـكان، وفيـات الأعيـان وأنبـاء أبنـاء الزمـان، تحقيـق إحسـان عبـاس، دار صـادر، بـيروت، 1976
- ابـن سـعد، الطبقـات الكـبرى، تحقيـق محمـد عبـد القـادر عطـا، بيروت، دار الكتـب العلمية، 1990م
- ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1984م
- ابـن عسـاكر، تاريـخ دمشـق، تحقيـق عمـرو بـن غرامـة العمـروي، دار الفكـر للطباعـة والنـشر، بـيروت، 1995 م،
- ابن كثير، البداية والنهاية، دار المعرفة، بيروت، 2003 م
- ابن منظور الإفريقى، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1993م
- ابـن هشـام، السـيرة النبويـة، عمـر عبـد السـلام تدمـري النـاشر: دار الكتـاب العـربي 1990م

- أبـو الحجـاج مجاهـد بـن جـبر التابعـي المكـي القـرشي المخزومـي، تفسـير مجاهـد، تحقيـق، محمـد عبـد السـلام أبـو النيـل، دار الفكـر الإسـلامي الحديثـة بـيروت، 1989 م
- أبـو العـرب التميمـي، المحـن، تحقيـق عمـر سـليمان العقيـلي، ج1، دار العلـوم، الريـاض، 1984م
- أبـو المعـالي، بهـاء الديـن البغـدادي، التذكـرة الحمدونيـة، دار صـادر، بـيروت، د.ت
- أبـو جعفـر البغـدادي، المحـبر، ج1، تحقيـق إيلـزة ليختـن شـتيتر، دار الافـاق الجديـدة، بـيروت، د. ت
- أبـو عبـد الله نعيـم بـن حمـاد المـروزي، الفتـن، تحقيـق سـمير أمـين الزهـيري النـاشر مكتبـة التوحيـد، القاهـرة ط1، 1991م
- أحمـد ابراهيـم الشريـف، مكـة والمدينـة في الجاهليـة وعهـد الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم، دار الفكـر العـربي، ط2، د.ت
- أحمد أمين، فجر الإسلام، مؤسسة هنداوي للنشر، مصر، 2011م
- أحمـد زكـي بـدوي: معجـم مصطلحـات العلـوم الاجتماعيـة، مكتبـة لبنـان، بـيروت، 1978م
- أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، العصر الأموي، طبعة مصر، 1933م
- الأصبهـاني، سـير السـلف الصالحـين، تحقيـق كـرم بـن حلمـي بـن فرحـات بـن أحمـد، النـاشر دار الرايـة للنـشر والتوزيـع، الريـاض، د.ت.
- الـبُرِّي، الجوهـرة في نسـب النبـي وأصحابـه العـشرة، تعليـق محمـد التونجـي، النـاشر دار الرفاعـي للنـشر والطباعـة والتوزيـع – الريــاض الطبعــة، 1983 م
- البغـوي، معجـم الصحابـة، تحقيـق محمـد الأمـين بـن محمـد الجكنـي، مكتبـة دار البيـان، الكويـت، 2000م

- البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، دار الفكر - بيروت، الطبعة: الأولى، 1996 م .
- البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق وشرح عبد الله أنيس الطباع، عمر أنيس الطباع، بيروت، منشورات مؤسسة المعارف، 1987م
- تركي علي الربيعو، الحركات الإسلامية في منظور الخطاب العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، ط1، 2006م
- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، بيروت، 2001م
- حمدي شاهين، الدولة الاموية المفترى عليها، دراسة الشبهات ورد المفتريات، ط1، دار القاهرة للكتاب، 2001 م
- حياة عمامو (ماهية المصادر الإسلامية المبكرة واختلاف آراء الباحثين في أهميتها التاريخية)، مجلة أسطورة، عدد6، 2017م
- خالد كشك The Historians› Muawiya: The Depiction of Muawiya in the Early Islamic Sources- VDM Verlag Dr. Müller (2008)
- الخركوشي، أبو سعد، شرف المصطفي، شرف المصطفى حققه أبو عاصم نبيل بن هاشم الغمري الحسيني وسماه "مناحل الشفا ومناهل الصفا " بتحقيق كتاب (شرف المصطفى صلى الله عليه وسلم) حققه على ثلاث نسخ خطية، وطبع في ستة أجزاء في بيروت عن دار البشائر الإسلامية 2003م
- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، بيروت، دار الغرب الاسلامي، 2002م
- خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1977م
- الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربي - عيسى البابي الحلبي وشركاه / القاهرة الطبعة: الأولى، 1960 م

- الدينـوري، المعـارف، تحقيـق ثـروت عكاشـة النـاشر: الهيئـة المصريـة العامـة للكتـاب، القاهـرة الطبعـة: الثانيـة، 1992م
- الذهبـي، تاريـخ الإسـلام ووفيـات المشـاهير والأعـلام، تحقيـق عمـر عبـد السـلام تدمـري، د.ط، دار الكتـاب العـربي، بـيروت، 1990م .
- الذهبـي، تذكـرة الحفـاظ، وضـع حواشـيه الشـيخ زكريـا عمـيرات، أربعـه أجـزاء، الطبعـة الأولي، دار الكتـب العلمية، بـيروت، 1998م.
- الذهبـي، سـير أعـلام النبـلاء، تحقيـق مجموعـة مـن المحققـين بـإشراف شـعيب الأرنـاؤوط، بـيروت، ط3، مؤسسـة الرسـالة، 1985م
- الذهبـي، ميـزان الاعتـدال في نقـد الرجـال، تحقيـق عـلي محمـد البجاوي، الطبعـة الأولي، مطبعة عيسـى الحلبي، القاهـرة، 1963م
- رضـوان السـيد الجماعـة والمجتمـع والدولـة، سـلطة الايديولوجيـا في المجـال السـياسي العـربي الإسـلامي، دار الكتـاب العـربي، ط2، 2007م
- رفيـق العظـم، أشـهر مشـاهير الإسـلام في الحـرب والسياسـة، المكتبـة المسـتنصرية، ج1، ط2، د.ت
- رفيـق المهاينـي، تاريـخ الدولـة الأمويـة والعباسـية والدول الإسـلامية والعصور الوسـطى في أوربـا، دار اليقظة العربية، دمشـق، 1946م
- رواد الفلسـفة البراجماتيـة، تشـارلز موريـس، ترجمـة ابرهيـم مصطفـى ابراهيـم، 2011م.
- ريـاض عيسـى الحزبيـة السياسـية منـذ قيـام الاسـلام حتـى سـقوط الدولـة الامويـة، تقديـم سـهيل زكار، دمشـق، 1992م
- سـيف بـن عمـر الأسـدي التَّمِيمـي، الفتنـة ووقعـة الجمـل، المحقـق أحمـد راتـب عرمـوش النـاشر: دار النفائـس، 1993م

- السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق حمدي الدمرداش الناشر، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط 1، 2004م
- شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ط1، 1978م
- شكري محمد عياد، البطل في الآدب والاساطير، دار المعرفة، القاهرة، 1959م
- شمس الدين الكيلاني، من العود الأدبي إلى الوعي التاريخي. الكنوزالأدبية. بيروت. 1998م
- صلاح طهبوب، العصر الأموي، دار أسامة للنشر، عمان، ط1، 2004م.
- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، 1967م.
- عبد الجواد ياسين، السلطة في الإسلام العقل الفقهي السلفي بين النص والتاريخ، المركز الثقافي العربي، ط2، سنة 2000م
- عبد الحكيم الكعبي، الدولة العربية في صدر الإسلام 12 قبل الهجرة – 40 هـ/ 610 – 660 م، صفحات للدراسات والنشر، 2012م
- عبد اللطيف محفوظ، الرواية التاريخية وتمثل الواقع، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد438، السنة السابعة والثلاثون، 2007م.
- عبد الهادي العجمي، "صفين والتحكيم بين الأيديولوجية المذهبية والواقعية التاريخية"، حولية التاريخ الإسلامي الوسيط، دار الفكر العربي، المجلد العاشر 2015–2016م
- عبدالله العروي، مفهوم الدولة، بيروت، المركز الثقافي، 1980م
- عروسي لسمر، العنف والمقدس في الإسلام (كتاب المحن) لأبي العرب التميمي أنموذجا، الدار التونسية للكتاب، 2012م
- علا عبد العزيز أبو زيد، الدولة الأموية دولة الفتوحات (41هـ – 132هـ / 661–750م)، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996م

- علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، جوامع السيرة النبوية، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ن، د.ت
- القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي، علق عليه محب الدين الخطيب، الناشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، 1998م
- القزويني، أخبار البلاد وأثار العباد، ج1، دار صادر، بيروت، د، ت.
- الكلاعي، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله – صلى الله عليه وسلم، ج2، دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، 1999 م.
- محمد الحسيني، تاريخ الصراع على السلطة، مكتبة وهبة – القاهرة ط 2010م.
- محمد بن يوسف الصالحي الشامي الصالحي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد تحقيق وتعليق : عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م.
- محمد شوقي بن إبراهيم مكي، أطلس المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 1985م.
- محمد مجيد بلال، الإسلام المبكر في التواريخ السريانية: دراسة مقارنة بين تاريخ الطبري وتاريخ ميخائيل الكبير، ميخائيل الكبير (595 هجرية – 1199م)، تاريخ ميخائيل الكبير، ترجمه من السريانية الى العربية في أقدم الترجمات (شمعون صليبا)، ط1، دار الرافدين – بيروت، 2015م .

- المدخل في الأيديولوجيا والحضارة، عبد الرحمن خليفة – فضل الله محمد اسماعيل، مكتبة بستان المعرفة، الاسكندرية، 2006م
- المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، المحقق، بشار عواد معروف، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة: الأولى، 1980م.
- مسلم بن الحجاج النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم(صحيح مسلم)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت
- المقدسي، البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، د.ن، د.ت
- هشام جعيط، (الفتنة)، جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، ترجمة خليل أحمد خليل، بيروت دار الطليعة 1991م.
- الواقدي، الردة، الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة الشيباني، تحقيق، يحيى الجبوري، بيروت، دار الغرب الاسلامي، 1990م.
- وجدان جميل علي جابر– الردة/ دراسة تاريخية في مرويات محمد بن اسحاق (151 هـ/ 768 م) و(سيف بن عمر 180 هـ/ 796 م) و(محمد بن عمر الواقدي 207 هـ/ 822 م) جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2013م.
- وداد القاضي، نحو منهج سليم في قضية موثوقية الرسائل العربية الإسلامية المبكرة، في موافقات تونس الدار التونسية للنشر، 1989م .
- وداد القاضي Population census and land surveys under the der Islam. Umayyads (41-132/661-750) 2006. Vol.83

- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، د.ط، مطبعة دار الفكر، بيروت، 1980م.
- يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي الفسوي، أبو يوسف، المعرفة والتاريخ، تحقيق أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت ط2، 1981م.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، تاريخ اليعقوبي، د.ط، المجلد الثاني، دار بيروت للطباعة، بيروت، 1970م.
- يوسف العش، الدولة الاموية، ط2، دار الفكر، دمشق 1985م.



